كارينا ساينز بورجو

KARINA SAINZ BORGO

الابنة الإسبانية

LA HIJA DE LA ESPAÑOLA

رواية







KARINA SAINZ BORGO

الإبنة الإسبانية

LA HIJA DE LA ESPAÑOLA

1288 | مكتبة

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإسباني

LA HIJA DE LA ESPAÑOLA

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونيًا من المؤلف:

Karina Sainz Borgo

عبر وكالة .Casanovas & Lynch Literary Agency S.L

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى: أيار/مايو 2020 م - 1441 هـ

ردمك 978-614-01-3051-7

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 785107 - 785108 - 786233 (1-961+)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic

twitter.com/ASPArabic

www.aspbooks.com

asparabic

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلو

كارينا ساينز بورجو
KARINA SAINZ BORGO

الإبنة الإسبانية

LA HIJA DE LA ESPAÑOLA

رواية

مكتبة | 1288

ترجمة

جلال العطاس

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

إلى الرجال والنساء الذين سبقوني،

وإلى أولئك الذين سيأتون بعدي. لأنّ كل

حكايات البحر سياسية، ونحن جميعًا

أجزاء من شيء ما يتلمس مكانًا للاستقرار.

ليس هنالك أيَ شيء بإمكانه أن يروّعك أيّها الشاعر،
ولا حتّى الكهرباء الجامحة التي تسري في الأسلاك.
ارفع رأسك،
ولكن اجعل مِمّا تكتبه شيئًا منطقيًا.

يولاند بانتين، (عظم الحوض)

لقد منحوني وسام الشجاعة، ولم أكن شجاعًا.

خورخي لويس بورخيس، (الندم)

لقد تلقيت تعليمي، على غرارك، في المنفى.

سوفوكليس

وارينا أمي الثرى وهي ترتدي ملابسها؛ الفستان الأزرق، والحذاء الأسود ذا الأسافين والنظارة متعدّدة العدسات. لو لم نفعل ذلك لما استطعنا أن نودّعها. لم نتمكّن من أن نزيل تلك الثياب الموحية. بدا الأمر كما لو أنّنا سنعيدها ناقصةً إلى التراب. لقد دفنّا كُلّ شيء، لأنه لم يتبقّ أيّ شيء بعد موتها.

في ذلك اليوم سقطنا منهكين من التعب. كانت هي في صندوقها الخشبي، وأنا في كرسيٍ من دون مساند للذراعين، في كنيسةٍ متداعية، هي الوحيدة المُتاحة من بين الكنائس الخمس أو الست التي بحثت عنها لكي أقيم مراسم الجنازة فيها، حيث استطعت أن أستأجرها لثلاث ساعاتٍ فقط. وإضافة إلى دار الجنائز، فقد كان في المدينة أفران لحرق الأموات. يدخل الناس إليها ويخرجون منها مثل أرغفة الخبز التي كانت شحيحة على رفوف المتاجر لتثقلَ على أنفسنا بتذكر الجوع. إذا كنت أتحدث بصيغة الجمع عن ذاك اليوم فمردّ هذا إلى التقاليد، لأن الأعوام قد صهرتنا في بوتقة واحدة معًا مثل مكونات السيف الذي ندافع به عن بعضنا بعضًا.

عندما كنت أدّون النقش الذي سيوضع على قبرها، أدركت أنّ الموت أوّل ما يحدث يحدث، في اللغة، في فعل اجتثاث الأشخاص من الزمن الحاضر وزرعهم في الزمن الماضي، حيث يحولهم إلى أفعال منتهية، أشياء بدأت في الزمن المندثر وانتهت فيه، ولن تعود أبدًا. الحقيقة هي أنّ أمّي ستوجد ولكن مُقترنة بطريقة أخرى فحسب. لقد أغلق دفنها الباب على طفولتي بصفتي ابنة من دون أولاد. في تلك المدينة، في غيبوبة الموت، خسرنا كلّ شيء، حتّى الكلمات المكتوبة في الزمن الحاضر.

أتى ستّة أشخاص إلى جنازة أمّي. كانت آنا هي الأولى، جرجرت قدميها، وشبكت ذراعها بذراع زوجها خوليو. بدت آنا كما لو أنّها عبرت نفقًا مظلمًا أفضى بها إلى العالم الذي نقطنه. كابدت آنا منذ بضعة شهور إجراء علاج بالبنزوديازيبين. بدأ تأثير العقار بالزوال، وبالكاد توفرت لديها الحبوب الكافية لكي تستكمل الجرعة اليومية. وعلى غرار الخبز، كان الآلبرازولام شحيحًا، وشقّ الإحباط طريقه بقوة اليأس نفسها لدى أولئك الذين شهدوا على اختفاء كل شيءٍ احتاجوا إليه: الناس، الأماكن، الأصدقاء، الذكريات، الغذاء، السكينة، السلام، الصحّة العقلية. أصبحت "الخسارة" هي الفعل المكافئ الذي استخدمه أبناء الثورة ضدّنا. التقيت آنا في كلّية الآداب، ومنذ ذلك الحين تشاركنا التزامن في جحيمنا الخاص.

عندما دخلت أمي إلى وحدة الرعاية المخفّفة للآلام هذه المرّة أيضًا، اعتقل أبناء الثورة شقيقها سانتياغو. في ذاك اليوم ألقوا القبض

على عشرات الطلاب الذين انتهى بهم المطاف بتلقي الخردق في ظهورهم، كانوا إمّا يتلقون الضرب في إحدى الزوايا وإما يُعتدى عليهم بعقب بندقية، كان لسانتياغو قبر، وهو مزيج من الأشياء الثلاثة التي تم حقنها معًا.

أمضى سانتياغو أكثر من شهر داخل ذاك السجن المحفور بعمق خمس طبقات تحت الأرض. لم تكن هناك أصوات أو نوافذ، ولا حتّى تهوية أو ضوء شمس. أمكن فقط سماع أصوات الخطوات وقعقعة سكّة قطار الأنفاق فوق الرؤوس. شغل سانتياغو إحدى الحجرات السبع المتحاذية، غرفة خلف أخرى، لذا لم أكن قادرة على أن أعرف من كان الشخص المعتقل في الزنزانة المجاورة له.

كانت أبعاد كل زنزانة ثلاثة أمتار طولًا ومترين عرضًا، أمّا الأرضية والجدران والقضبان والأسرّة فكانت بيضاء تمامًا، وتمّ تقديم الطعام في وعاءٍ كان يُمرّر عبر القضبان. لم يزّودوا السجناءَ بأدوات المائدة، لذا وجب عليهم أن يأكلوا بأيديهم. لم تسمع آنا عن سانتياغو منذ أسابيع، ولم تعد تتلقى المكالمة الهاتفية التي دفعوا لقاءها مبالغ أسبوعية من المال، حتّى الإيمان المعطوب بالحياة المتمثّل بشكل صورٍ ورقم هاتف، لم يعد كما كان. لا نعلم إن كان حيًّا أم ميتًا. "لا نعلم أيّ شيءٍ عنه". همس لي خوليو بصوتٍ خفيض للغاية، وهو يتحرّك مبتعدًا عن الكرسي الذي جلست فيه آنا، وقد استغرقت في التحديق إلى قدميها لثلاثين دقيقة. وخلال ذاك الوقت كلّه، كانت ترفع رأسها لتطرح ثلاثة أسئلة:

"في أية ساعة سيتم دفن أديليدا؟".

- "في الثانية والنصف".

غمغمت: "حسنًا، أين؟".

- "في الجزء القديم من مقبرة لاجويريتا، ابتاعت أميّ المكان منذ وقتٍ طويل. إنه يطلّ على مناظر جميلة".

"أجل..." بدت آنا كأنها تبذل جهدًا إضافيًا، كما لو أن التلفّظ بتلك الكلمات سيكون مهمّةً جسيمة.

"هل ترغبين في البقاء معنا اليوم حين تنتهي المراسم؟".

"سأغادر في وقتٍ باكر غدًا إلى أوكامار لأزور خالتيّ وأعطيهما بعض الأشياء، شكرًا لك، أنتِ تعيشين وقتًا عسيرًا أيضًا". لقد كذبت في هذا الشأن.

كانت قد قبّلت خدّيّ أصلًا وغادرت. من سيرغب في مراقبة شخصٍ متوفٍ في حين أنّ الألم يعتصره لأنّه فقدَ أحدهم؟ أتت مُعلّمتان كانت أمي دائمة التواصل معهما: ماريا خيسوس وفلورنسيا. قدّمتا التعازي وغادرتا مسرعتَين، كانتا مدركتين أنّه لا يوجد ما يمكن قوله لتصحيح موت امرأة مازالت شابّة. لقد غادرتا وهما تحثّان الخُطا كما لو كانتا تنتهزان فرصة غياب ملاك الموت قبل أن يأتي ليبحث عنهما أيضًا. لم يرسل أحد إلى دار الجنائز أيّ إكليلٍ من الزهور باستثناء الإكليل الذي أرسلته أنا. بالكاد غطّى القرنفل الأبيض النصف الأعلى من النعش.

لدى أمّي شقيقتان؛ خالتي إميليا وخالتي وكلارا، اللتان لم تأتيا

إلى الجنازة. كانتا توأمًا، إحداهما بدينة والأخرى نحيفة عجفاء. إحداهما تأكل من دون توقّف والأخرى لا تتناول شيئًا سوى فنجانٍ من القهوة عندما تدخن السجائر الملفوفة. عاشتا في أوكامار دي لا كوستا؛ وهي بلدة تقع بالقرب من خليج كاتا وشوروني في ولاية آراغوا القريبة. المياه الزرقاء هناك تتمازج مع الرمال البيضاء، وكان المكان نقطة افتراق الطريق القادمة من كاراكاس إلى طرقٍ عديدة. تبلغ إميليا وكلارا الثمانين من العمر، ولم تذهبا إلى كاراكاس إلا مرة واحدة في حياتهما. لم تغادرا تلك البلدة الصغيرة حتّى عندما تخرّجت أمي من كلّية الحقوق حين كانت أول طالبة جامعية في عائلة فالكون. بدت جميلة في تلك الصور، وهي تقف في الردهة الرئيسة لجامعة فنزويلا المركزية: العينان مزينتان بالكحل، والشعر مسرّح تعلوه قبّعة الخرّيجين، وهي تمسك بالشهادة الجامعية بيدين قويتين وتبتسم، كما لو كانت حانقة. احتفظت أمي بتلك الصورة مع سجلّها الأكاديمي للإجازة في العلوم التربوية وأعلمت خالتيّ أنها توظفت في جريدة إل أراغينو المحلّية، لكي يعلم الجميع أنّ هناك بالفعل موظّفًا محترفًا من عائلة فالكون.

كنّا نسافر مرّة أو مرتين إلى البلدة كلّ عام، لكي نزور خالتيّ خلال شهري تموز وآب، وأحيانًا في وقت المهرجان أو في عيد الفصح. وكنّا نساعدهما في أمور النفقة لتخفيف الأعباء المادية عنهما. تركت أمي لهما بعض المال ووصيّة مزعجة: أن تتوقف إحداهما عن تناول الطعام وأن تشرع الأخرى في تناوله. كانتا تعدّان

لنا وجبات الفطور التي عافتها نفسي: فتائل اللحم، وشرائح لحم الخنزير المقلية، والطماطم، والأفوكادو، والقهوة المحلاة بقصب السكر، حتى علقت رائحة الكمّون والفلفل على نصف ثيابي وملأت المنزل كلّه. لقد سبّبت لي الطفلة حالات إغماء غير قليلة وكانتا توقظانني منها وكثيرًا ما تذمّرت الطفلة من تلك المرأتين المجنونتين.

- "أديليدا، يا فتاة. لو رأت أمّي هذه الفتاة، كم هي هزيلة وضعيفة، لقد أعطيتها ثلاث قطع من كعك الذرة المشوية مع الزبدة!".

أردفت خالتي إميليا؛ وهي المرأة البدينة: "ما الذي فعلته بهذا المخلوق؟ تبدو كأنّها سمكة رنكة مقلية تنتظر هنا...، لا تُقدمي على أيّة حركةٍ يا بنتي، أنا قادمة أيّتها الفتاة الصغيرة!".

"إميليا، دعي الفتاة وشأنها، أنت جائعةٌ طوال الوقت ولكن هذا لا يعني أنّ الآخرين جائعون أيضًا". هكذا ردّت خالتي كلارا من فناء الدار وهي تدخن سيجارة وتراقب أشجار المانجا.

"خالتي، ما الذي تفعلينه هناك؟ ادخلي لتتناول الطعام".

- "مهلًا، أنا أراقب إن كان الأوغاد في الأرض المجاورة سيأتون لقطف ثمار المانجا بالقصبة. قبل عدّة أيام أخذوا ملء ثلاثة أكياس".

قالت خالتي إميليا وهي عائدة من المطبخ تحمل صحنًا فيه فطيرتان محشوتان بلحم الخنزير المقلي.

- "إليكِ هذا، تناولي واحدة فقط إذا أحببتِ، لكن هناك أيضًا المزيد منها. إنّنا نفتقدك! تناولي الطعام أيّتها الفتاة الصغيرة، لكي تصبحي أفضل حالًا!".

بعد غسل الصحون، جلسن ثلاثتهن في فناء الدار للعب البنجو حتّى يتقهقر البلاء المتمثّل بأسراب البعوض التي تنشط في الساعة السادسة بعد الظهر. أصبنا بالهلع لرؤية الدخان المنبعث من الحرج بفعل التماسّ مع النار، وصنعنا مدفأة من الخشب، وجلسنا نراقب زوال شمس ذاك اليوم. بعد ذلك بدأت إميليا أو كلارا في تحريك كرسيها وهي تتأفف، ثمّ تقول الكلمة السحرية: "المغفور له". كان المقصود أبي، الذي كان يدرس الهندسة، وكان قد ألغى خطط الزفاف تمامًا عندما أخبرته أمي أنّها حامل. وبالنظر إلى الغضب المتراكم لدى خالتيّ، فإن أحدًا سيقول إنّهما تركتا الغضب يعشش داخلهما. كانتا تتذكرانه أكثر مِمّا تفعل أمي بكثير، إذ لم أسمعها مطلقًا تلفظ اسمه. لم يعلم والدي بشأني أبدًا، على الأقل هذا ما أخبرتني به. بدا ذلك تفسيرًا منطقيًا أكثر لعدم فقدان الرّقة. إذا لم يكن يرغب في أن يعرف ما آلت إليه حالنا، فلماذا يجب علينا أن نتوقّع شيئًا منه؟ لم أستطع أن أعتبر عائلتي أنّها عائلة كبيرة، كانت الأسرة مكوّنة منّي ومن أمي فقط، إن شجرة العائلة تبدأ بنا وتنتهي بنا. شكلنا قصبة، وهي صنف من نبات الصبّار القادرة على النمو في أي مكان. كنّا صغيرتين وكانت أوردتنا نافرة ومرئية، وعلى الأغلب لن يكون مؤلمًا إذا ما انتزعوا منّا قطعة أو حتّى الجذر كلّه. لقد خُلِقنا كي نقاوم ونستمرّ. تم

الحفاظ على عالمنا في حالة توازن وكنّا قادرتين على الاحتفاظ بالشيء الاستثنائي والمستهلك في الوقت ذاته، ولم نتوقّع أي شيء من أحد، فقد كانت إحدانا مكتفية بالأخرى.

التحطّم، ذلك كان شعوري عندما اتصلت بنُزل فالكون في يوم الجنازة من هاتف أمّي، وقد استغرقتا وقتًا طويلًا للرّد على الهاتف. امرأتان مُتألمتان في ذاك المنزل بالكاد تستطيعان أن تجتازا المسافة من فناء المنزل إلى غرفة المعيشة، حيث يوجد هاتف صغير بحصّالة لم يعد يستخدمه أحد، ولكن لا يزال صالحًا لإجراء المكالمات وتلقيها.

أدارت خالتاي النُزل منذ ثلاثين عامًا، ولم تُجريا فيه منذ تلك الأثناء أدنى تغيير. هكذا كانت الحال في ذاك النزل، وقد كان أمرًا غير معقول، مثل الخشب الفنزويلي المدهون الذي عُلّقت عليه أقمشة التزيين المغطاة بالغبار لتزين تلك الجدران الملطخة بالزيوت والقذارة.

بعد أن اتصلت عدّة مرّات، ردّتا على الهاتف في النهاية، تلقّتا الخبر بانكسار وغمغمتا ببضع كلمات. تحدّثت كلتاهما معي، أولًا كلارا الهزيلة ثمّ إميليا البدينة. طلبتا أن أؤجّل موعد الدفن، على الأقل بالقدر الكافي لشراء تذكرة الباص التالي من أوكامار إلى

كاراكاس. ثلاث ساعات من السفر على الطرق الوعرة المليئة بالمجرمين التي تفصلهما عن العاصمة. بالنظر إلى هذه الظروف، فضلًا عن سنّيهما ومرضيهما- إحداهما مصابة بالسكري والأخرى بالروماتيزم- فإن هذه الرحلة كفيلة بتحطيمهما. وجدتُ سببًا كافيًا كي أقنعهما بالعدول عن هذه الرحلة. وفي نهاية الاتصال وعدتهما بأنّني سأذهب لزيارتهما وبأنّنا سنحتفل بتاسوعية مريم العذراء معًا في كنيسة البلدة، ولقد كذبت في ذلك الشأن، ووافقت المرأتان على مضض. وضعت سماعة الهاتف وكان يغمرني شعورٌ أشبه باليقين: إن العالم الذي كنت أعرفه بدأ يتداعى وينهار. عند نهاية ذاك الصباح تقريبًا أتت اثنتان من الجارات لتقديم التعازي، ما استتبع بالضرورة تلقي كل العبارات المستهلكة للمواساة، إنّه شيء عديم النفع أشبه برمي الخبز إلى طائر الحمام. شرعت ماريا، التي تعمل ممرضة وتقطن في الدّور السادس، في الحديث عن الحياة الأبدية. أمّا جلوريا التي تقطن في الدور الأخير فبدت أكثر اهتمامًا بمعرفة ما سيؤول إليه حالي بعد أن أصبحت وحيدة. لماذا؟ بالطبع لأن الشقة كبيرة جدًا بالنسبة إلى امرأة من دون أطفال، وبحسب ما كانت عليه الأمور فيجب أن أكون فكّرت مسبقًا في تأجير إحدى الغرف على الأقل التي يُدفع إيجارها بالدولار، وهناك طبعًا حظّ يرافق الإلمام والمعرفة.

هناك أشخاص محترمون سيدفعون مبلغًا جيّدًا، وبسبب وجود المتسكّعين وقطّاع الطرق، كما قالت جلوريا، فإن الوحدة ليست أمرًا

مُحبّذًا، وأنا الآن وحيدة. من المريح أن يكون المرء مُحاطًا بالناس، على الأقل في حالات الطوارئ، أليس كذلك؟ "سوف يكون لديك معارف تقدمين لهم غرفًا للإيجار، وفي حال لم يكن لديك مستأجرون فابنة عمّي تقطن بعيدًا وهي تحاول منذ وقتٍ طويل أن تنتقل إلى المدينة. يا لها من فرصة جيّدة! أليس كذلك؟ سوف تنتقل إلى منزلك وستجنين مالًا إضافيًا. أليست فكرة عظيمة؟ وكما يبدو الأمر وبسبب المبالغ الجسيمة التي يجب أن تُدفع للأطباء والجنازة ومكان الدفن، فإنّ هذا سيكلّفك ثروة، صحيح؟ سيكلّفك كُل ما ادخرته. ولكن مع وجود خالتيك في مكان بعيد وهما عجوزان فإنك ستحتاجين إلى دخلٍ إضافي، لهذا سأجعل ابنة عمّي تتواصل معك من أجل أن تستعملَ هذه الغرفة".

لم تتوقف جلوريا عن الحديث عن المال لدقيقة واحدة. هناك شيء ما في عينيها اللتين تشبهان عيون القوارض يشير إلى أنّها مُصمّمة على الحصول على منفعة ما من وضعي الحالي، أو على الأقل أن تنتهز الفرصة لتُحسّن من وضعها من خلال ما أمرّ به. تلك هي الطريقة التي عشنا بها جميعًا في ذاك الزمن: أن ننظر إلى ما يوجد في الكيس الذي يحمله الشخص الآخر ونشمّ ما إذا كانت لدى جارنا إحدى المواد التي نفدت من السوق لنكتشف من أين حصل عليها. نصبح جميعًا شكّاكين وحذرين. غادرت النسوة في الساعة الثانية، وكنت متعبة من الإصغاء للأعمال الطائشة التي قام بها الآخرون، إضافة إلى أنّني أرهقت الآخرين لأنني لم أكن أعرف ما الذي

سيحدث لميراث أمّي. أصبح العيش عبارة عن رحلة صيد يجب أن تعود منها حيًّا، لقد تسلّل هذا المفهوم إلى معظم نشاطاتنا الأساسية والبدائية، حتّى عند دفن موتانا.

- "سيكلّفك إيجار الكنيسة خمسة آلاف بوليفار قوي".
- "تعني خمسة ملايين بوليفار من العملة القديمة".
- "إذا كان الأمر كذلك". تفاجأ موظّف دار الجنائز بالصوت الصغير. إذا استصدرت شهادة الوفاة بالفعل فستغدو التكلفة أرخص، وإلّا فسوف يكون الإيجار سبعة آلاف بوليفار قوي مع استصدار الوثيقة.
- "سبعة ملايين بوليفار من العملة القديمة، صحيح؟".
- "إذا كان الأمر كذلك".
- "حسنًا".
- "هل تريدين أن تدفعي لقاء هذه الخدمة؟".

قال هذا بقليلٍ من الحنق.

- "هل لديّ خيار؟".
- "ستعرفين ذلك".

كان دفع كلفة الجنازة أكثر تعقيدًا من دفع إيجار العيادة في أيّام أمّي الأخيرة. غدا النظام المصرفي في حالة غير معقولة. لم يكن لدى دار الجنائز خط اتصال بالبيانات للدفع عن طريق البطاقات المصرفية، ولم يقبلوا الحوالات المالية، ولم يكن لديّ المبلغ الكافي نقدًا لأكمل المبلغ الذي طلبوه مني وهو يفوق راتبي بألفي مرّة،

وحتّى إن توفر لديّ فلن يقبلوه أيضًا. لم يرغب أحد في تلك الأيام بتلك الأوراق النقدية التي لا قيمة لها. يجب أن تكون لديك مبالغ طائلة من المال لكي تدفع لقاء أيّ شيء من قارورة الصودا - إذا كانت موجودة - وحتّى علبة العلكة التي بلغ ثمنها آنذاك في بعض الأحيان عشرة أضعاف أو اثني عشر ضعف قيمتها الأصلية. أصبح المال مقياسًا حضريًا. إذا أردت أن تشتري عبوة زيت، عندما تكون متوفّرة، فعليك أن تدفع كدستين من الأوراق المالية من فئة المئة، وأحيانًا ثلاث أكوام لقاء ربع كيلو من الجبنة. ناطحات سحاب لا قيمة لها، هكذا كان حال العملة الوطنية: كما لو أنّها قصّة صينية.

بعد بضعة شهور حدث أمرٌ معاكس؛ اختفى المال، لذا لم يعد هناك شيء نعوّض أنفسنا به مقابل ما كنّا نفعله. فضّلت اختيار أبسط حلّ: أخذت حقيبة المال التي تساوي خمسين يورو، اشترتها أمّي منذ بضعة شهور من السوق السوداء، وقدّمتها إلى مدير دار الجنائز الذي انقضّ عليها بعينين مليئتين بالذهول. من الممكن أن أستبدلها مقابل عشرين ضعفًا أو ربّما ثلاثين ضعفًا من قيمتها الأصلية، بحسب الطريقة التي أدفع بها. خمسون يورو، كان هذا ربع قيمة ما تبقّى من مدّخراتي، التي واظبت على إخفائها في الملابس الداخلية الممزّقة التي استعملتها كي أضلّل أولئك الذين قد يأتون ليسرقونا. كنت أعمل بالقطعة لصالح هيئة تحرير مكسيكية مقرّها في إسبانيا وأتقاضى الأجر بالعملة الأجنبية، وقد أتاح تأخر التسوية مقابل المخطوطات المُصحّحة لي ولأمّي أن أضغط عليهم، إلّا أنّ الأسابيع الأخيرة

أصابتنا بالذهول. كلّفتنا العيادة بأن نأتي بكل لوازم العلاج التي لم يكن لدينا شيءٌ منها، لذا وجب أن نحصل عليها من السوق السوداء مقابل ثلاثة أضعاف أو أربعة أضعاف قيمتها الأصلية: من إبر الحقن وأكياس المصل والشاش والقطن، وقد حصلت عليها من ممرضة ذات مُحيّا شبيه بالقتلة المأجورين بعد أن طلبت مبلغًا باهظًا من المال يكون في غالب الأحيان أكبر ممّا اتّفقنا عليه.

اختفى كُلّ شيء بالسرعة نفسها تقريبًا التي فقدت أمي فيها حياتها وهي مستلقيةٌ على فراش الموت، كان عليّ أن أغسل ملاءات ذاك السرير كلّ يوم في المنزل وأعود بها إلى العيادة التي بدا أنّها تنسجم مع الحالة المزاجية السائدة في الغرفة التي تشاركها ثلاثة مرضى فضلًا عن أمّي. لم توجد في المدينة أيّة عيادة من دون قوائم انتظار للعلاج. أصيب الناس بالمرض وماتوا بالسرعة نفسها التي فقدوا فيها صوابهم. لم أفكر في أن أضع أمّي في مستشفى حكومي، كان الأمر شبيهًا بأن آخذها لكي تموت في الرواق بين المجرمين الذين تملأ أجسادهم ثقوب الرصاصات. لقد نفدت منّا الحياة، والمال، والقدرة على مواصلة الحياة. حتّى إنّ اليوم كان ينتهي سريعًا. أن تكون موجودًا في الشارع بعد السادسة عصرًا ليس إلّا طريقة غبية لكي تقامر بحياتك. يمكن أن تفقد حياتك لأي شيء: رصاصة، خطف، عملية سرقة. أمّا انقطاع التيار الكهربائي فامتدّ لساعات طويلة وكان يبدأ من غروب الشمس ليحلّ معه ظلامٌ أزلي.

أتى موظّفان في الساعة الثانية بعد الظهر إلى الكنيسة من دار

الجنائز، وقد ارتديا بذلتين سوداوين مصنوعتين من قماشٍ بالٍ. سحب الرّجلان النعش ورمياه دونما اكتراث داخل سيارة فورد زيفر تم تعديلها لتصبح سيارة لنقل التوابيت. أخذت إكليل الورد بنفسي ووضعته على النعش لكي أبيّن بوضوح أنّ هذا تابوت أمّي وليس طبقًا من النقانق. في المكان الذي تمّت مساواة الموت فيه مع ضحايا الطاعون، كان جثمان أمّي مجرّد لحم ميت، جسدًا لا حياة فيه، مكوّمًا بالقرب من الأجساد العديدة الأخرى. لقد عاملها هذان الرجلان مثلما عاملا البقية: من دون أدنى تعاطف. جلست بجوار السائق، وألقيت نظرة عليه. كانت بشرته مُتشقّقة أشبه ببشرة امرأة في الستين من عمرها.

"إلى أيّ مدفن سوف نذهب؟ لاجويريتا؟". أومأت برأسي. لم يقل أحدٌ منّا أي شيء بعد ذلك، وتركت نفسي أتمايل مع هواء المدينة الحار ذي الرائحة اللاذعة والحلوة، كما لو أنّها رائحة قشور برتقال تعفّنت داخل كيس قمامة تحت الشمس. استغرقنا ضعف الوقت اللازم لنعبر الطريق السريع، وهو نفس الطريق المستعمَل منذ خمسين عامًا لخدمة المدينة التي تضاعف عدد سكانها ثلاث مرات عن العدد الأصلي الذي تم تصميم هذا الجسر لأجله.

لم يكن هناك ممتص صدمات في السيارة وما زاد الطين بلّة أن الطريق كانت وعرة، استلقى نعش أمّي في الكابين من دون أيّة مرابط لتثبيته. عندما نظرت إلى النعش المعدني عبر مرآة الرؤية الخلفية – لم أستطع أن أدفع ثمن تابوت خشبي – جال في خاطري أنه لطالما وددتُ

أن أُقيم لأمّي جنازة موقّرة. منحتني أمّي على مر حياتها أفضل ما تستطيع، وتمنّت لو أنّها أعطتني أشياء أفضل: علبة غداء أكثر جمالًا، مثل العلبة الزهرية ذات الزخرفة الذهبية التي كانت تشتريها الفتيات في شهر تشرين الأول بدلًا من العلبة الزرقاء البلاستيكية الشبيهة بصندوق غداء العمّال الذي نظّفته كثيرًا لأجلي، ومنزلًا أكبر مع حديقة في الجانب الشرقي من المدينة، عوضًا عن الطابق الأرضي الشبيه بقفص الطيور في الجانب الغربي من المدينة.

لم أشكّك مطلقًا في أي شيء قدّمته أمي، لأنّني كنت أعلم كم بذلت في سبيل تقديمه لي، كم أعطت من الدروس الخصوصية لكي تدفع لقاء تعليمي في مدرسة خاصّة، أو لتقدّم البسكويت والجيلاتين والمشروبات الغازية في كؤوس زجاجية في عيد ميلادي. لم تأتِ على ذكر هذا مطلقًا. ولم يكن من الضروري أن تشرح من أين أتى المال الذي أنفقت به على المنزل، لأنّني رأيت كيف تجنيه يومًا إثر آخر. كانت أمّي تعطي الدروس الخصوصية في أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس أسبوعيًا، وتغدو هذه الدروس في أيام العطل جلسات يومية للطلاب الذين سيقدّمون الامتحان في شهر أيلول لكيلا يرسبوا بالطبع. في الساعة الرابعة إلا ربعًا، كانت أمّي ترفع غطاء المائدة المصنوع من القنب عن مائدة الطعام وتضع أقلام الرصاص ومبراة، وبضع صفحات بيضاء، مع صحن فيه بسكويت ماريا، وإبريق ماء، وكأسين زجاجيتين. لقد علّمت الكثير من الأولاد، وكانت للجميع نفس الإيماءة الفاقدة للحيوية التي تعوزها الحياة والاهتمام. الأولاد

والفتيات البدينون المصابون بسوء التغذية، بفعل تناول الكثير من الشوكولا، ومتابعة برامج التلفاز الذي شغلت برامجه فترات بعد الظهيرة، حين كانوا يذهبون إلى الحدائق لكي يلعبوا.

كبرت في مكانٍ فيه الكثير من الأراجيح والمنزلقات المصنوعة من المعدن الصّدئ، إلّا أنّه لم يأتِ أحد للعب بها بسبب الخوف من الجريمة. في ذلك الوقت لم أحلم حتّى بأن ألمس جوانب أدوات اللعب تلك التي أصابها الصدأ مع مرور الزمن. لخّصت أمّي الدرس الأساسي لطلّابها: الفاعل، والفعل، ونائب الفاعل، ثمّ الإضافات المباشرة وغير المباشرة والظرفية. لم يكن لديهم سبيل للنجاح إلّا بعد الكثير من الإصرار، وأحيانًا حتّى ذلك لم يكن يجدي نفعًا. أمضت أمّي أعوامًا كثيرة في تصحيح أوراق الامتحان المكتوبة بقلم الرصاص، وتحضير الدروس الصباحية والإشراف على واجبات طلّابها في فترات ما بعد الظهر حتّى كادت أن تفقد بصرها.

لم يكن بإمكانها في أيّامها الأخيرة أنّ تستغني عن النظارة السميكة الشبيهة بنظارة المرأة التي تظهر في إعلانات باستا ماذر إن بيرل ماونت. لم تستطع إنجاز أي شيء من دون نظّارتها. وبالرغم من ازدياد صعوبة قراءة الصحيفة اليومية واستغراقها الكثير من الوقت، إلّا أنّها لم تتوقف عن قراءتها، بدا الأمر كما لو أن قراءة الصحيفة رمز للتحضّر. كانت أديليدا فالكون؛ أمّي، امرأة مثقّفة. تأسّست مكتبة بيتنا من دائرة قرّاء الكتب، التي تضمّ مجموعة من الروايات الكلاسيكية والمعاصرة ذات الأغلفة السميكة الملّونة، والتي استعنت بها آلاف

المـرّات في أثنـاء دراسـتي في كلّيـة الآداب، لينتهـي بـي المطـاف وأنـا أعتبرهـا ملكًـا لـي. شـكّلت تلـك الكتـب مصـدرًا قويًـا لـي للافتتـان والتشويق، أكثر بكثير من علب الغذاء الزهرية التي كانت تستعرضـها صديقاتي بحلول شهر تشرين الثاني.

عندما وصلنا إلى المقبرة، كان هناك مكان لضريحين، أحدهما لأمّي والآخر لي. اشترت أمّي المكان منذ سنوات عدّة. عندما نظرت إلى الحفرة الطينّية تذكّرت عبارة لخوان غابرييل فاسكيز كنت قد قرأتها في أثناء تصحيح إحدى المسودّات منذ بضعة أسابيع: "ينتمي الإنسان إلى المكان الذي دُفِن فيه أحبّاؤه". عند النظر إلى العشب الذي تمّت إزالته من حول ضريحها، فهمت أن فقيدتي فقط هي من تربطني بالأرض، وهي نفس القوّة التي سيّرت أحبّاء أمّي وابتلعتها معهم. لم تكن تلك القوّة هي الرّابطة بين الجماعة البشرية، كانت أشبه ما تكون بسكّين التقطيع. أنزل موظّفو دار الجنائز تابوت أمّي من السيارة وثبّتوه بالأربطة القديمة ذات المسامير العديدة التي تدور على بكرة الضريح. على الأقل لم يحدث ذلك في عزاء جدّتي. كنت صغيرة جدًّا، لكنني ما زلت أتذكّره. كان يومًا حارًّا ورطبًا في أوكامار، احتسيت القهوة المحلاة بقصب السّكر للمرّة الأولى ومتّعت حليمات التذوق بقضمها رغم احتراقها في أثناء التحضير، أجبرتني خالتاي على شربها عند أداء طقوس صلاة مريم المباركة. كان حفّارو

القبور في القرية ينزلون نعش جدّتي بآليتين مهترئتين شبيهتين بالموجودة على ضريح أمّي، إلّا أنّها كانت أرقّ قوامًا، سقط التابوت بشكلٍ غير مستو وفُتِح بفعل الضربة مثل حبّة الفستق، ارتطمت الجدّة المُتخشّبة بالزجاج وعاد موكب الجنازة بسبب الصّراخ والعويل. حاول اثنان من الشّباب أن يجعلا التابوت سويًّا، ثم أغلقاه وتابعا العمل، ولكن أصبح كلّ شيء معقّدًا. بدأت خالتاي بالنواح حول الحفرة وهما تضعان أيديهما على رأسيهما وتقرأان مقاطع للكنيسة الكاثوليكية، والقدّيس بطرس، والقدّيس بول، والعذراء المباركة، ملكة الملائكة، ملكة الآباء، ملكة الرّسل، ملكة الحوّاريّين، ملكة الشهداء، ملكة المؤمنين، ملكة العذارى. صلّي لنا.

انتهى الحال بجدّتي التي لم تكن عطوفة في ضريح نُثِر على طرفه الفلفل الحار بمرح، ماتت في السرير وهي تنادي أخواتها الثمانية، رأت ثماني نساء مُتّشحات بالسواد عند طرف السرير بالقرب من الناموسية التي انخسفت تحتها وهي ترسل أوامرها الأخيرة، على الأقل هذا ما أخبرتني به أمّي.

من ناحية أخرى لم يكن لدى أمّي مجلس للأقرباء لكي ترسل لهم أوامرها من أريكتها، وهي ملفوفة بين الوسادات ومباصق التبغ، لم يكن لديها أحدٌ سواي. تلا الكاهن غيبًا مقاطع التوحيد من كتاب القدّاس لراحة نفس أديليدا فالكون. ردم العمّال الحفرة بمجارف الطين الممزوج بالحصى، ووضعوا فوق الحفرة المردومة لوحًا إسمنتيًا، ذاك الطابق السفلي الذي يفرّقنا عن بعضنا إلى أن نلتقي ثانيةً

تحت تراب المدينة حيث الأزهار تفترس بعضها.

التفتُّ إلى الخلف وأشرت بإيماءة للكاهن والعمّال. اقترح أحدهم وهو رجلٌ أسمر نحيل ذو عينين تتّسمان بالخبث أن نسرع: وقعت هذا الأسبوع حوادث سرقة مُسلّحة في ثلاثة مدافن ولا نرغب في خوض هذه التجربة التي تثير الرّعب. قال لي هذا وهو ينظر إلى قدميّ، لم أعلم ما إذا كانت هذه نصيحة أم تهديدًا. ركبت في سيّارة الفورد زيفر والتفتّ كثيرًا إلى الخلف. صَعُبَ عليّ أن أغادر المدفن، ولم أستطع أن أُخرج من رأسي فكرة أنّه من السهولة أن يفتح أحدهم قبر أمّي ليسرق نظّارتها، أو حذاءها، أو عظامها، كان يُحكى كثيرًا في تلك الأيام أن ممارسة السّحر والشعوذة في ازدياد شديد لدرجة أنّها أصبحت الدين الرسمي للبلاد. في تلك اللحظة ولأوّل مرّة منذ شهور، بكيت بكامل جسدي، مع تشنّجات ممزوجة بالألم والخوف. بكيت لأجلها، بكيت لأجلي، لأجل الحال الذي كنّا عليه، لأجل المكان حيث لا وجود للقانون، وفيه سوف تبقى أديليدا فالكون بحلول الليل تحت رحمة الأحياء.

بكيت وأنا أفكر في جسدها المدفون تحت الأرض التي لن تمنحنا السلام أبدًا. عندما جلست بالقرب من السائق، لم أرغب في الموت، كنت ميّتة بالفعل. كان المكان بعيدًا للغاية عن مخرج المقبرة، فوجب على السائق أن يسلك طريقًا مختصرًا بدا كما لو أنّه طريقٌ للماعز الجبلي لشدة وعورته، حيث المسالك المنحنية غير المُعبّدة والمفروشة بالحصى. جسورٌ من دون مصدّات للحماية من

السقوط. هبطت سيارة الفورد الآن بمحاذاة المسار الذي أتت منه عند الصعود. اضطرب السائق عند كلّ التفاف، أمّا أنا ففصلت نفسي عن كلّ شيء، لم أهتم بأيّ شيء. سواء قتلنا أنفسنا أم لا، في النهاية خفّف السائق السرعة وانحنى على المقود المسود والملوث بالزيت.

قال وفكّه يتدلى إلى الأسفل: "ما هذا بحق الجحيم؟". كان أمامنا حاجز أشبه ما يكون بالانهيار الثلجي: موكب من الدراجات النارية، كان هناك عشرون أو ثلاثون منها، رُكنت جميعًا في منتصف الطريق لتقطعه بذلك من الاتجاهين. ارتدى سائقو الدراجات قمصانًا حمراء وزّعتها الإدارة العامّة عليهم في السنوات الأولى للحكومة. لقد كان هذا الزيّ الموحّد لفرقة الدرّاجات المؤلّلة للوطن، وهم جنود المشاة للثورة التي سحقت أية مظاهرة ضد الرئيس القائد، الذي أطلقوا عليه قائد الثوريّين بعد فوزه الانتخابي الرابع، ومع مرور الوقت وسّع هؤلاء من مناطق نفوذهم وقدراتهم وأهدافهم. أي أحد يقع في أيديهم يصبح ضحية.. ضحية ماذا؟ ذاك يعتمد على اليوم الذي أمسكوا به والدورية التي ألقت القبض عليه.

عندما تعذر على الدولة تمويل هذه الفرقة، قرّرت الدولة أن تعوضهم بهبة؛ لن تدفع لهم الراتب الثوري كاملًا، ولكن لديهم الإذن والترخيص ليقوموا بالسلب والتخريب من دون أدنى تدخل من قبل الدولة، لن يمسّهم أحد، لن يُحاكم أحد، يمكن لأي أحد يريد أن يقتل ويتسبّب بالموت أن ينضمّ إلى قوائمهم، وبالرغم من أنّ الكثيرين مارسوا ما يحلو لهم باسم هذه الفرقة من دون أن يكون لهم

اتصال مع المنظمة الأساسية، إلّا أنّهم توصّلوا لإجراء تعاون محدود معهم فدفعوا لهم أتاوات في بعض مناطق المدينة.

جرت العادة أن ينصبوا خيمةً مع بضعة كراس ويجلسوا لقضاء وقت النهار، وهم مستلقون على الدراجات ومتربّصون بأهدافهم للسطو عليها. لم أتبادل والسائق النظرات. لم تنتبه المجموعة المؤلّلة لوجودنا. وقفوا حول محرابٍ أعدوه بشكلٍ ارتجالي من درّاجتين، وضعوا عليهما تابوتًا مغلقًا، وتجمّعوا مشكّلين حلقة حول الصندوق الذي رفعوا عليه فروع الأشجار التي بصقوا الكحول عليها. كانوا سكارى، شربوا الكحول وبصقوه. قال السائق: "إنّه مدفن للخارجين عن القانون، إذا كنتِ تصلّين، فتابعي الصلاة يا ابنتي". وسحب ذراع الارتداد بالقرب من عجلة القيادة. كان الوقت الذي استغرقه للرجوع كافيًا لأرى ما بدا أنّه لحظة الذروة لاجتماع السحرة. هناك امرأة ذات شعر معقوص، ترتدي صندلًا وبنطالًا قصيرًا وقميصًا أحمر، باعدت هذه المرأة ما بين ساقي فتاة على النعش. لا بدّ أنّها ابنتها، هذا ما بدا على الأقل بالنظر إلى الإيماءة الفخورة التي رافقت رفع تنّورتها عندما مالت وهي تضرب مؤخرة الفتاة بالسوط التي رقصت على أنغام موسيقا صاخبة.

مع كل صفعة، كانت الفتاة التي تبلغ الثانية عشرة من عمرها على الأكثر تهز جسدها أكثر، دائمًا عند لازمة الأغنية الصادرة من مكبرات الصوت لثلاث سيارات وحافلة متوقفة على الجانب الآخر من الطريق. "تومبالا هاوس يا أميّ، ولكن يا له من تومبا – لا – كاسا

– يا أمي، تومب – ذا – هاوس يا أمي، ولكن ذاك تو – تومبا – لا – كاسا – يا أميّ".

واستمرّت موسيقا الريجتون، شحنت الجو بالمزيد من البخار الكثيف. لم يسبق لضريح أن حصل على هذا القدر من دعوة الحرق. هزّت الفتاة حوضها من دون أدنى تعبير على وجهها، بدت ذاهلة وغير مدركة لضرب الأرض بقدميها أو لضربات السّوط التي وجّهتها لها أمّها وهي تبدو كما لو أنّها تبيعها في المزاد لأغنى البرابرة الذين أحاطوا بعذرائها. استثار كلّ انقضاض وهمي لذاك المخلوق شهوة الرجال والنساء وصراخهم، فبصقوا الكونياك مُجدّدًا في أثناء التصفيق.

تراجعت سيّارة الفورد زيفر لمسافة كافية، إلّا أنني كنت أستطيع رؤية كيف تسلّقت فتاة ثانية النعش وباعدت ما بين ساقيها، وهي تفرك أعضاءها التناسلية أمام نصلٍ من النحاس المحروق بفعل الشمس ولا بُدّ أنّ أحدهم ينتظر بعناد، على الأرجح رجل، لكي تهبط. وفي خضم الحرارة والبخار لتلك المدينة التي يفصلها أحد الجبال عن البحر، ستبدأ كلّ خلية في لحم ذاك الجسد الميت وأعضائه بالتورّم والتخمّر وستتشكّل الغازات والأحماض.

ستجذب البثور والانتفاخات الصغيرة ديدانَ اللحم؛ تلك الكائنات التي تتكاثر في الأجساد الميتة وتتحرّك في القذارة. رأيت فتاة تفرك نفسها أمام شيءٍ ما ميّت، شيء ما على وشك أن يكوّن الديدان. إنّها تعرض الجنس مقابل جرعة من الحياة. هذا ابتكار للتكاثر،

للولادة، ولكي يأتي إلى هذا العالم المزيد والمزيد من سلالتها: الكثير من الأشخاص ذوي دورة الحياة القصيرة، مثل الذباب واليرقانات؛ كائنات حيّة تعيش وتخلّد نفسها داخل موت الآخرين.

سيأتي يوم أكون فيه طعامًا لتلك الذبابات أيضًا. خطر ببالي "إن المرء ينتمي إلى المكان الذي دُفِن فيه أحبّاؤه". بفعل الحمّام الشمسي في الساعة الثالثة من بعد الظهر في ذاك اليوم، والسّراب المتشكّل على الإسفلت والذي بدّد المناظر الطبيعية في خضم الحرارة: بدا حشد الرجال والنساء مُشعًا كما لو كان شواءً للحياة والموت. ابتعدنا عن الطريق وشرعنا في طريقٍ مختصر جديد كان أسوأ حالًا من الطريق السابق.

كنت أفكّر فقط في تلك اللحظة عندما تغيب الشمس ويزول ضوء النهار عن التلّة حيث تركت أمّي وحيدة. عندها ماتت روحي مجددًا. لم أستطع أن أنهض من ذاك الموت الذي تراكم في سيرة حياتي عصر ذاك اليوم، أصبحت في ذلك اليوم الفرد الوحيد الذي تتشكل منه عائلتي، إنّه آخر جزء من الحياة قد يسلبونني إيّاه قريبًا، إمّا بالسواطير، وإما بالدم والنار، على غرار كلّ شيءٍ يحدث في هذه المدينة.

كنت أعتقد أن ثلاثة صناديق ستكون كافية للتخلّص من أشياء أمّي، إلّا أنّني كنت مخطئة، لقد كنت بحاجة إلى المزيد. تفقدّت أطباق لا كارتوجا المزخرفة أمام الخزانة، وهي مجموعة من القطع المتفرّقة التي تفي بالغرض بالنسبة إلى ثلاثة أشخاص يريدون تناول وجبة عشاء تتضمّن الحساء والأطعمة الجافّة والحلوى في المنازل المتواضعة. كانت عبارة عن كتل تعلوها حوافٌ خمرية ورسمة لنزهة في المنتصف، إنّها أدوات مائدة متواضعة وحميمية. لم أعلم أبدًا من أين أتت أو لماذا هي موجودة في المنزل. لم تكن هناك أيّة حفلات زفاف أو قوائم هدايا في تاريخ عائلتنا، لا من جدتي التي تتحدث بلكنة جزر الكناري ولا جدتي الأخرى؛ فقد قدمنا في تلك الأواني التوست الفرنسي المقلي في أيام عيد الفصح. كنّا نضع الخضار من دون أن نضيف الزيت، أمّا أمي فكانت تنزع جلد الدجاجة الحزينة بصمت.

لم نستخدم تلك الأواني لكي نكرّم أحدًا. لم يأتِ إلينا أي أحد ذي شأنٍ مهمّ. أخبرتني أمّي عندما كانت في المراحل الأخيرة من احتضارها، أنّ أدوات العشاء تلك التي يبلغ عددها ثماني عشرة قطعة

قدمت لجدّتي كونسويلو وفي ذاك اليوم تمكنّت أخيرًا من أن تجمع ثمن الشقة الصغيرة التي عشنا فيها مستأجرين لوقتٍ طويل. كان الأمر أشبه بجهاز العروس في المملكة التي دشّنّا حياتنا فيها من دون حدائق.

حصلت جدّتي كونسويلو على الصحون من شقيقتها بيرتا؛ وهي امرأة ذات عينين هنديتين وبشرة سوداء، تزوجت من رجلٍ يُدعى فرانشيسكو رودريغيز؛ وهو رجلٌ من استرمادورا في إسبانيا، طلب يدها للزواج بعد ستّة أشهر من قدومه إلى فنزويلا، وهو الذي بنى نُزل فالكون، حجرًا إثر حجر، بالقرب من شواطئ آراغوا. عندما توفّي فرانشيسكو، سمّى الجميع في البلدة الخالة بيرتا بأرملة الأجنبي الأشقر، وهو اللقب الذي كان يطلق على جميع الأوروبيين الذين استقرّوا في فنزويلا في أربعينيات القرن الماضي، تقابله في اللغة الفرنسية كلمة جنتلمان أو (مسيو).

أخبرتني أمّي أنّ هناك صورة واحدة فقط من صور زفافها مع بيرتا فالكون التي أصبح أسمها لاحقًا بيرتا رودريغيز، وأخبرتني أيضًا أنّه كانت لفرانشيسكو هيئة موقّرة، وكان يرتدي في أيّام الآحاد بذلة لونها بني غامق، وكان ذا حضورٍ قوي. وصفت أميّ لي هذه الصورة التي لم أرها أبدًا. تناولنا الطعام أنا وأميّ في أطباقٍ تعود لأشخاصٍ موتى. ما هو المقدار الذي طهت وفقه الخالة بيرتا لكي تقدّم الحصّة الغذائية في هذه الأطباق في ذاك النُزل الحريص على المواعيد؟ هل استعانت تلك المرأة الضخمة بكتاب للطهو؟ هل كانت تتحرّك في

المطبخ مثل السفينة وتنبعث منها رائحة القرنفل والقرفة؟ لم يكن ذلك مهمًّا، فهذه الأطباق تروي الحقيقة فقط: أنّنا أنا وأمي متشابهتان. إنّ الدم الذي يسري في أوردتي لن يساعدني أبدًا على الهرب. في تلك البلاد حيث كلّ شخص سليل نسبٍ من أحدٍ آخر، لم نكن نحن الاثنتان كذلك، لم يكن لدينا أحد.

إن تلك الأرض هي سيرة حياتنا الوحيدة. قبل أن ألفّها في ورق صحيفة ألقيت نظرة على وعاء السكر الذي لم نستخدمه أبدًا، كان شيئًا لا نفع له. لم يسبق لنا أن أضفنا السّكر إلى أيّ شيء تناولناه. تشابه هيئتنا النحيلة الشجرةَ المطلّة على أرض فناء الدار لنُزل فالكون، الشجرة التي أثمرت الفاكهة الحمضية والثمار الداكنة.

أطلقنا على هذه الفاكهة لقب "الخوخ النحيل" وذلك لضآلة مقدار الجزء الذي يؤكل فيها وضخامة البذرة. هذه الثمرة ميّزها لبّها عن بقيّة الفاكهة، كانت أشبه ما تكون بالحصاة، أشبه بالعظمة القاسية التي يعلوها لبّ الثمرة ذو النكهة اللاذعة فتعطي اسمها لتلك الأشجار الصغيرة والجافّة التي أثمرت بمعجزة عن فاكهتها. نما شجر الخوخ النحيل في الأراضي غير الخصبة على الساحل. تسلّق الأولاد فروع تلك الأشجار وبقوا جاثمين عليها مثل الغربان عندما أدركوا وجود ثمارها. تلك المخلوقات التي ارتشفت المقدار الضئيل الذي جادت به الأرض عليهم.

تزامنت رحلاتنا إلى أوكامار مع موسم هذه الثمار، وكنّا نعود بحقيبتين أو ثلاث حقائب مملوءة بالخوخ. تلخّصت مهمّتي في انتقاء

أفضل الثمار التي أعدّت خالتاي منها الحلوى الكثيفة. كانت تلك الثمار تُنقع لليلة كاملة ثم تُسلق في الماء. كانت النتيجة النهائية هي الدبس الغامق الذي أعطى النكهة للبانيلا والخوخ بعد بضع ساعات من الطبخ على نارٍ هادئة. لا تَصلح جميع ثمار الخوخ لهذه العملية فقد كان من الضروري اختيار الثمار التي تبدو على وشك السقوط من الفروع التي تحملها. يُفضّل ألّا تُقطَف الثمار الخضراء اللون وألا تُستعمل معها المواد التي تضفي عليها اللون المرغوب، لأنّ مرقتها ذات نكهة مُرّة. يجب أن تكون الثمار ناضجة، وممتلئة، وثقيلة، وأرجوانية اللون. تطلّب جني الثمار إجراء عملية دقيقة مصحوبة بالكثير من التعليمات:

"لا تضغطي عليها بهذه الطريقة، انظري عن قرب. إذا كانت طرية هكذا، فضعيها في الحقيبة"، "افصليها عن بقيّة الثمار ثمّ لفّيها بورقة جريدة، لكي تنضج". "إذا لم تشرحي بشكلٍ وافٍ يا إميليا، فكيف تريدين منّي أن أفهم. لا تأكلي الكثير منها، لكيلا تصابي بالإسهال".

"خذي هذه الحقيبة".

"ليس تلك الحقيبة يا إميليا، هذه الحقيبة!"

حصلت مشادة كلامية بين إيميليا وكلارا. أومأت برأسي ثمّ تركتاني أذهب بسلام. كنت أضيع في الردهة باتجاه فناء الدار. تسلّقت الشجرة وبدأت بجني الخوخ. تمكّنت من قطف بعض الثمار بسهولة، هناك ثمار أخرى قاومت حتّى بلغت قوّة السحب حدًّا

جعلتها تسقط جميعًا. عندما فرغت من جني الثمار، أعطيت خالتيّ الثمار الأكثر نضجًا، وهي الثمار المثالية لتحلية العصير المركّز الذي أعدّتاه في القدور الكبيرة المليئة بالفاكهة، ما زلت أذكر كيف كانت الأبخرة تحجب هيئتيهما، سحابة بدت لي ضخمة لدرجة أنّها غطّت جسدَي المرأتين السمراوين الصّلبتين في أثناء صبّ الماء المغلي بالسّكر وتقليبه بنشاط باستخدام الملاعق الخشبية.

"اخرجي من هنا أيّتها الفتاة الصغيرة، إذا ما سقطت إحدى قدور الطبخ الكبيرة على رأسك...". قالت إحداهما.

"... سوف يصل صوت بكائك إلى الوادي". أكملت الأخرى.

انتهزت فرصة التوبيخ لكي أتسلل بعيدًا لغاية وحيدة وهي إنقاذ الحصّة الصغيرة المخبّأة من الخوخ في الحديقة، كانت كلّها لي. جثمت على أعلى غصن في الشجرة، مصصتها جميعًا حتّى البذور، ارتشفت قدرًا ضئيلًا من اللّب وأكلته، وقد كان عالقًا عليه قدرٌ ضئيل من الثمر المُخضرّ. كان تناول الخوخ النحيل ضربًا من الصبر والمثابرة؛ عليك أن تقشّر القشرة السميكة، وأن تمزّقها بأسنانك حتى تكشط اللب الصّلب. حالما يصبح طريًا، ستمرّر البذرة من أحد جوانب فمك إلى الجانب الآخر، كما لو أنّه حلوى. وبالرغم من تهديد أمي بأنه إذا ما ابتلعت البذرة فسوف تنمو شجيرة خوخ في معدتي، إلّا أنّني استمتعت بالقدر الضئيل من لبّ الثمرة.

عندما كنت آكل كل ما في الثمرة وتصبح البذور جرداء تمامًا كنت أبصقها، أطلق تلك الحجارة المالحة لتسقط من دون هدف على

الأرض، وبالكاد تلمس الكلاب الجائعة التي كانت تنظر إليّ كما لو أنّها تنتظر أن أتشارك معها وجبتي الخفيفة. حاولت أن أُبعدها من مكاني في الأعلى، إلّا أنّها وبكل ما فيها من هزال وجرب وعيون شبيهة بعيون كلاب البودل، وقفت في مكانها بعناد مثل التماثيل، تراقبني وأنا آكل.

ظهرت شجرة الخوخ تلك في أحلامي أيضًا، كانت تنبت أحيانًا من مجارير المدينة، وفي أحيان أخرى من مغسلة الشقّة أو من غرفة الغسيل في نُزل فالكون. لم أكن أرغب أبدًا في أن أستيقظ من تلك الأحلام. كانت الأشجار التي ظهرت في أحلامي مزخرفة ومزيّنة مقارنةً بالأشجار في الواقع، وقد تجلت في أحلامي بكونها مليئة بثمار الخوخ اللؤلؤية التي استحالت إلى يرقات وشرانق متجمّدة أرى فيها جمالًا نادرًا وقميئًا. تحرّكت على نحوٍ يكاد لا يكون ملحوظًا، مثل عضلات الأحصنة التي تمرّ أحيانًا عبر الطريق، تلك البهائم ذات الأرجل المُتشقّقة التي تم استخدامها لنقل قصب السّكر والكاكاو اللذين طرحتهما متاجر بالبيريا للبيع في سّوق أوكامار.

هكذا كان يحدث كلّ شيء في تلك البلدة: كما لو أنّ الزمن توقف في القرن التاسع عشر، ولم يصل إليها التطوّر أبدًا. لولا الإنارة العامّة في الشوارع وشاحنات البيرة التي تسير في الطريق لما صدّق أحد أنّنا كنّا نعيش في فترة الثمانينيات. كي لا أنسى الانطباع الذي خلّفته تلك الأشجار غير المألوفة التي نمت في أحلامي، فإنني رسمتها في كرّاستي الكاريبية ذات الأوراق البيضاء بالاستعانة بأقلام

التلوين الشمعية. اخترت اللون البنفسجي والزهري اللذين وجدتهما في علبة ألوان فيها أربعة وعشرون قلمًا، مع المبراة التي أزالت البرادة الصمغية وفركتها بطرف إصبعي على الورقة، لكي أعطي الأثر الغازي لتوهجّ ديداني.

استغرقت كل رسمة عدّة ساعات. لقد مثّلت هذه الرسمات بشكلٍ مطابق تقريبًا لما ظهر في أحلامي، في الحياة الواقعية مصصت الثمارَ المرّة التي ما زالت تمرّ في ذكرياتي مثل النسيم إلى اليوم. كانت الشجرة في فناء الدار في نُزل فالكون في منطقتي. شعرت بالحرّية على فرعها المُقفر المهجور الذي تسلّقته مثل القردة، لم يشابه ذاك الجانب من طفولتي الوقت الذي أمضيته في مدينة بيدروسا حيث كبرت لتستحيل عبر السنين إلى كتلة من الأسلاك الشائكة والمسامير.

أحببت كاراكاس، إلّا أنّني فضّلت أيام قصب السّكر والبعوض في أوكامار على الأرصفة القذرة هنا المليئة بالبرتقال المتعفّن والماء الملطّخ بزيت المحرّكات. كان كلّ شيء مختلفًا في أوكامار؛ البحر هناك يهذّب ويحرّر، يغمر الأجساد ويلفظها على الشاطئ، يخلطها مع بعضها من دون أي تمييز مع كلّ شيء يمرّ في طريقك، مثل ذاك النهر في أوكامار دي لا كوستا الذي مازال يجري دافعًا ملوحة المحيط عبر مسار مائه العذب.

نمت أشجار الكرمة على الشاطئ بحبّات صغيرة اعتادت أمّي أن تصنع منها ربطات الرأس الملكية المزيّفة من المدينة عندما كنت أحلم سرًّا بتلك المنحدرات ذات اليرقات اللؤلؤية، ذاك التحوّل الذي

خضعت له ثمار الخوخ عندما عبرت غشاء الواقع. سمعت صوت عيارات نارية، الصوت نفسه الذي سمعته بالأمس، الذي بدوره كان الصوت الذي سمعت أول من أمس، وهو أيضًا مطابق لليوم الذي قبله. صنبور ماء مفتوح مع الرصاص هو ما كان يفصل يوم جنازة أمي عن الأيام التي تلت وفاتها. وبما أنّ المكتب بجانب نافذة غرفتي فقد لاحظت أنّ الشقق في الأبنية المجاورة مظلمة، كان أمرًا اعتياديًا لأنه لم يكن هناك كهرباء في المدينة، ولكن هذا ما فاجأني لأنه كان في منزلي تيار كهربائي على خلاف بقية المنازل.

فكّرت: "هناك شيء ما يحدث". أطفأت ضوء المكتب فورًا، ثمّ بدأت أصوات ضرب جافّة من الأعلى، حيث شقّة رامونا وكارميلو في الطابق الأعلى؛ إنّها أصوات ارتطام أثاث، كراسٍ وطاولات تُجر من جانب إلى آخر. اتّصلت بهما عبر الهاتف إلّا أن أحدًا منهما لم يجب، وفي الخارج فرض الليل والفوضى حالة حظر تجوال غير معلنة. مرّت البلاد بأيام عصيبة، رُبّما هي الأسوأ منذ الحرب الفيدرالية. ظننت أنّ هناك سرقة، ولكن كيف ذلك إذا لم يرفع أحدٌ صوته.

ألقيت نظرة من نافذة غرفة الجلوس. هناك حاوية تحترق في منتصف الشارع. ما زالت الرّيح تحمل الأوراق المالية التي أتى الجيران ليحرقوها معًا. أشخاصٌ هزيلون وسود أتوا ليحرّروا المدينة من فقرها. كنت على وشك أن أعاود الاتصال برقم رامونا عندما رأيت مجموعة من الرجال يرتدون زيّ الاستخبارات العسكرية يغادرون البوّابة؛ كانوا خمسة رجال، مع أذرع طويلة تتدلّى من أكتافهم يحملون في أيديهم مايكروويف ومعالج جهاز حاسوب مكتبي.

جرّ آخرون زوجًا من الحقائب. لم أدرِ ما إذا كنت أشاهد عملية اقتحام أو سرقة أو الاثنتين معًا. تم تحميل هذه المواد في سيارة فان سوداء وقادوها مبتعدين إلى المنعطف حيث اختفت عند التقاطع الذي يفضي إلى الطريق السريع. عندما اختفت السيارة، اشتعل ضوءٌ في المبنى المجاور، تلاه ضوءٌ آخر، وآخر. بدأ جدارٌ من العمى والصّمت بالاستيقاظ في حين كانت تدور دوّامة من الأوراق النقدية المحترقة، مدفوعة بتسارع الشاحنة العسكرية. قبل أن تختفي الأموال النقدية بشكلٍ كامل، أعلنت الوزارة الثورية، وبأمرٍ من الرفيق الرئيس، أنّها سوف تُزِيل الأوراق المالية. وعلى الرغم من أنّ النّية من المرسوم كانت القضاء على الإرهاب المالي، أو هكذا دعته السلسلة الهرمية، إلا أنه كان من المستحيل طباعة المزيد من الأوراق المالية لاستبدال الأوراق المالية القديمة. لم تعد للمال الذي يتم تداوله أيّة قيمة، حتى قبل أن يتم حرقه.

كان للمنديل الورقي قيمة أكثر من ورقة المئة دولار التي تحترق على الرّصيف كما لو أنّها تُنذِر بهاجس. توفر في المنزل طعامٌ كافٍ لمدّة شهرين، وهو مخزون قُمنا أنا وأمّي بتجميعه بعد أن اجتاحت السرقة البلاد منذ أعوام دون أن تعدّ أحداثًا استثنائية، فقد أصبحت أمرًا روتينيًا.

كنّا سنقاوم بالاستعانة بحجرة المؤن التي لدينا، لقد تعلّمت أن أتدبّر أمرها بالاستعانة بالحدس والغريزة، لم يعلّمني أحد، الزمن هو من أخبرني كيف عليّ أن أتصرّف. كانت الحرب مصيرنا، علمنا

بقدومها قبل أمدٍ طويل. أمّي هي أوّل من استشعر قدومها، وبدأت بالقيام بما يلزم فخزنت المواد التموينية على مدار أعوام. إذا كان بمقدورنا أن نشتري التونا، فمن الأفضل أن نبتاع علبتين بدلًا من علبة واحدة، فقط من باب الاحتياط.

ملأنا حجرة المؤن كما لو أنّنا نُطعِم حيوانًا سوف يطعمنا إلى الأبد. وقعت أوّل عملية سرقة أتذكّرها في اليوم الذي أكملت فيه عشرة أعوام. سكنّا بالفعل في الجانب الغربي من المدينة، وكنّا معزولين عن الجانب الذي تقع فيه أغلب أعمال العنف. كان من الممكن حدوث أيّ شيء. إنّه أمرٌ موغلٌ في الغموض والالتباس. شاهدنا أنا وأمّي سرايا عسكرية تشق طريقها إلى قصر ميرافلوريس؛ وهو مقرُّ الحكومة الذي يبعد عن المبنى حيث نقطن مسافةً قصيرة.

بعد عدة ساعات، شاهدنا على التلفاز حشودًا من الرجال والنساء وهم يقتحمون المحلّات التجارية. بدوا مثل النّمل. حشرات غاضبة حملت على أكتافها قطعًا من لحم العجل. أخذوها بصرف النظر عن الدماء الطازجة التي صبغت ثيابهم، وأخذ آخرون أجهزة تلفاز وأدوات كهربائية من صالات العرض المسروقة التي حطّموها بالحجارة. حتّى إنّني رأيت رجلًا يجر بيانو في منتصف شارع سوكري.

في ذاك اليوم، وفي أثناء البث الحي على التلفاز، ظهر وزير الداخلية ودعا إلى الهدوء والسلوك المُتحضّر. قال إن كلّ شيء تحت السيطرة. بعد ثوانٍ، ساد صمتٌ غريب، ظهرت تكشيرة على وجه

الوزير تنمُّ عن الرعب، نظر إلى جانبه، ثمّ إلى الجانب الآخر، بعدها غادر المنصّة التي جعلته وجهًا لوجه مع بقيّة الأمّة.

تغيّرت البلاد في غضون أقل من شهر. بدأنا نرى شاحنات تتجوّل بين تلك الرافعات المتنقّلة ذات الكبائن المربوطة بحبال، مع مرور الأيام بدأت تلك الشاحنات بلف الجثث المجهولة الهوية بأكياس بلاستيكية ورميها في لا بيستي؛ وهي مقبرة جماعية لمئات القتلى. كانت تلك المحاولة الأولى من مؤسّسي الثورة للاستيلاء على السلطة، وكانت أيضًا أول تعريف أبقيته في ذاكرتي للمخرّبين والانفجار الاجتماعي.

أعدّت أمي بالاستعانة بزيت دوّار الشمس كعكة دقيق الذرة على شكل قلب. اكتست تلك القطعة المصنوعة بحبّ ذات الشكل الشبيه بالكلية بلون ذهبي مع حواف ناعمة، حيث وضعت أمّي في وسطها شمعة زهرية صغيرة. غنّت أمّي: "يا لها من ليلة جميلة"، وهي النسخة المحلّية والطويلة والأكثر مرحًا من أغنية "عيد ميلاد سعيد".

قطّعت أمي القالب إلى أربع قطع ودهنتها بالزبدة وأكلنا بصمت، ونحن جالستان على أرض الغرفة والأنوار مُطفأة. قبل أن نذهب إلى النوم، تفجّرت شظية لتضيف الفراغ إلى الحفلة التي تفتقر إلى الأضواء أو الأجواء الاحتفالية. "عيد سعيد يا أديليدا".

في الصباح التالي، وفي مُستهلّ العقد الثاني من عمري، التقيت بحبّ حياتي، وقعت الفتيات في المدرسة في حبّ أوهامٍ أُخرى: الحيوانات القارضة التي تحوّلت إلى فرسان، أمراء ذوي وجوهٍ مُخنّثة

لاحقوهن على الشواطئ الأسطورية لقصّة حورية البحر، الحطّابون الذين قبّلوا النائمات ذوات الشعر الأشقر والشفاه الممتلئة كي يستيقظن. لم أقع في حبّ أيٍّ من هذه الخيالات الذكورية إنّما وقعت في حبِّ جُنديٍ ميت. أتذكّر صورته المطبوعة على الصفحة الأولى من جريدة إل ناسيونال؛ وهي الجريدة التي كانت تقرؤها أمي مليًّا على طاولة العشاء، على الأقل كان هناك ورق لتُنشر صورته على الملأ.

عندما كانت الصحف متوفّرة، كانت أمّي تذهب إلى الكشك لشرائها، في اليوم التالي لعيد ميلادي اشترت أمّي صحيفة مع علبة سجائر وثلاث موزات يانعات وقارورة مياه، حصلت عليها من التموين الذي كان مُقفلًا في جميع الأوقات قبل أن تسري شائعة أنّ هناك مجموعة جديدة من اللصوص تقترب من مكاننا. عادت أمّي بأنفاسٍ مُتسارعة وشعرٍ أشعث إلى المنزل والصحيفة تحت إبطها. تركتها على الطاولة وهرعت إلى الهاتف لتتّصل بأختيها، وفيما كانت تحاول أن تُقنعهما بأنّ كلّ شيءٍ على ما يرام، وهو ما كان غير صحيح، أخذتُ الصحيفة وافترشت الأرض الجرانيتية لشقّتنا.

مثّلت الصورة الرئيسة أعمال القمع العسكري والمذبحة الوطنية التي تم تحويلها إلى صورة تغطّي الغلاف بالكامل. ثمّ ظهر أمامي جنديٌ يافع يستلقي في بركةٍ من الدم. دقّقت في الصورة لأحدّد تفاصيل الوجه، اعتقدت أنّها مثالية، كائن جميل، مع الرأس المُلقى والمُتدلّي من حافّة الرصيف، فقير، ونحيل، ومراهق تقريبًا. كشفت

الخوذة المائلة عن الرأس المُحطّم برصاصة بندقية من طراز فال. وكان هناك، متناثرًا مثل الفواكه. الأمير ذو الزي الأزرق والعينين القرمزيتين.

كانت امرأة بالفعل، صاحبة الجمال النائم الذي قتلني حبًا وحزنًا في الوقت ذاته. حبيبي الأوّل ولعبة الطفولة الأخيرة، مُغطّى بقطع من دماغه الذي تفجّر بطلقة سلاحٍ حربي في جبينه، نعم عندما كنت في العاشرة أصبحت أرملة بالفعل، عندما كُنت في العاشرة أحببت أشباح الموتى.

أمكنني أن أرى دوائر ملوّنة على غلاف بعض الكتب التي كانت بالنسبة إليّ ولسنوات مُملّةً، خاصّة مع عدم اللعب في الحدائق. كنت أرسم عندما كانت أمّي تعطي دروس "الفاعل - الفعل - نائب الفاعل". حذّرتني من أن أغادر غرفتي، حيث كان لدي عدّة كتب. كنتُ في بعض الأحيان أقرؤها وفي أحيان أخرى ألعب بها. فتحت خزانة أمّي، وجدتُ أحذية مقاسها ستة وثلاثون مرتّبة في أزواج، كما لو أنّها زمرة من الجنود المتعبين. تفحّصتُ الأحزمة التي أشارت إلى مقاس أمّي بوصفها امرأة نحيلة، والحمّالات التي علّقت عليها ثيابها. لم تكن لديها أيّة ملابس جريئة أو باهظة الثمن. كانت أمّي زاهدة. امرأة رصينة حضنتني من دون دموع وأنشأت جنّة بين ذراعيها، أديليدا فالكون، أمّي، دخّنت واعتنت ببشرتها بنفس الإصرار.

في السكن الجامعي للشابات، أمضت خمس سنوات من حياتها وتعلّمت كيف تُصفّف شعرها وتضع المكياج وكيف تدخّن، ومنذ ذاك الحين لم تتوقّف عن القراءة، كانت تغسل وجنتيها بمستحضرات تجميلية مُميّزة أو تنظّف بالمكنسة الكهربائية لكي تتستّر على تدخينها للسجائر. كانت تلك أسعد أيّام حياتها، غالبًا ما قالت ذلك. في كلّ مرّة أقول تلك الكلمات، يحترق السؤال في داخلي بشأن السنوات التي عاشتها بالقرب مني وهي سنوات زوال جمال مرحلة الشباب لديها.

بحثت في أسفل الخزانة حتّى عثرت على بلوزة مرسوم عليها فراشة ملكية، كانت قطعة ثياب منسوجة بالقماش الأسود اللامع والذهبي. أحببت قطعة القماش تلك. تحولَ إخراجها من الخزانة ولمسها براحة اليد إلى أمرٍ استثنائي في الأمتار المُربّعة القليلة التي تشكّل العالم الذي عشنا فيه أنا وأمّي. كانت البلوزة نسخة عصرية من البراعم اللؤلؤية في أحلامي؛ ثيابا سحرية مصنوعة من ألوان ومواد مذهلة. وضعتها على السرير، وأنا أتساءل عن السبب الذي دفع أمي لشرائها، إذا لم تكن سترتديها أصلًا.

"كيف تريدين منّي أن أرتدي شيئًا كهذا في الساعة الثامنة صباحًا؟".

هكذا أجابتني عندما اقترحت عليها أن ترتديها في مجالس الآباء وممثّلي المدرسة، وبالرّغم من أنّي توسّلت إليها كثيرًا، إلّا أنّها لم تحضر تلك الاجتماعات مرتديةً تلك البلوزة. درست في معهد للراهبات؛ وهو مؤسّسة رديفة لمؤسّسة أخرى رفيعة المستوى. عند إجراء المقابلة، اكتشف المشرف المسؤول أنّ أمّي لم تكن أرملة لأنّها لم تكن متزوجة، وبالرغم من أنّها لم تخبرني شيئًا عن الواقعة، إلّا أنّني توصّلت إلى فهم أن ذلك كان بمثابة أعراض المرض الخلقي للطبقة الوسطى الفنزويلّية في ذاك الوقت: التطعيم بين بقيّة قومية الكريول البيضاء في القرن التاسع عشر والذوبان في المجتمع حيث للجميع نواديهم الخاصّة وسوادهم يسري في الدّم.

تلك البلاد حيث النساء دائمًا يلدن ويربّين الأولاد بمفردهن لرجالٍ يتكبّدون عناء الذهاب لشراء علبة سجائر كي لا يعودوا. عند إدراك ذلك، فإن هذا بالطبع هو جزء من كفّارة، حجر عثرة في السّلم الشديد الانحدار للارتقاء الاجتماعي. كبرت وأنا مُحاطة ببنات المهاجرين؛ فتيات ذوات بشرة بنّية وعيون صافية، نتاج قرون من الحياة الفارغة لبلادٍ مختلطة وغريبة، جميلة في اختلالاتها النفسية، كريمة في الجمال والعنف، وهما اثنتان من أكثر الخصائص الوطنية وفرةً.

كانت النتيجة النهائيّة دولة بنيت حول شرخ صراعاتها الخاصّة، عيب في القشرة الأرضية للأرض التي لطالما أوشكت على الانهيار على قاطنيها. وبالرغّم من أن الأمر كان أقل حصرية، إلّا أنّ مدرستي

كانت معروفة في إكساب الرزانة والصبر لمجتمع أبعد ما يكون عن امتلاكهما. بمرور الوقت أدركت أنّ هذا المكان كان مقياسًا لشرٍ أعمق بكثير، الاحتياطي الطبيعي لجمهورية مستحضرات التجميل، وهو العبث والإلهاء الأقلّ ألمًا لمرضها. لم يرغب أحد في أن يتقدّم بالسنّ أو أن يبدو فقيرًا. اختبئ وتصنّع. كانت تلك العملة الوطنية للبلاد: الظهور، ليس للأهمّية أو المال. لم يكن مهمًّا إذا كانت البلاد تنهار وتتهاوى: كان العمل هو تجميل الواقع، الطّموح لتاج ما، كوني ملكة لشيء ما، ملكة كرنفال، ملكة مدينة، ملكة البلاد، كوني الأطول، الأجمل، الأغبى.

حتّى في خضم البؤس الذي خيّم على المدينة ما زلت أميّز أنّك تستمرّ في تعقّب تلك البقية. لطالما كان نظامنا الملكي على هذا النحو: أحد أكثر الأشخاص وسامة، الجميل. المشكلة هي أنّه كان يسقط في طوفان الابتذال ثم يمكننا أن ندفع ثمن ذلك. دفعنا مبلغًا باهظًا لقاء النّفط، أو هكذا اعتقدنا.

خرجت إلى الشارع لأنّني كنت بحاجة إلى كمّادات. يمكنني أن أعيش من دون سكّر أو قهوة أو زيت، ولكن ليس من دون كمّادات. كانت أكثر قيمة من ورق المرحاض. لقد دفع سعر مهول لمجموعة من النسوة اللواتي استولين على الطّرود القليلة التي وصلت إلى السوبرماركت.

كُنّا ندعوهن "النملات العاملات" لأنّهن عملن بدقّة متناهية شبيهة بتلك الحشرات. كُنّ يعملن في مجموعة، وكنّ سريعات، ولم

يـتركن أي شـيء في طـريقهن. كـنّ أوّل مـن يصـل إلـى المحـلّات التجاريـة، وعـرفن كيـف يتجـاوزن الحـدود المفروضـة مـن قبـل الحكومة. كنّ يحصلن على ما لم نتمكّن من شـرائه، لـيقمن ببيعه لنـا لاحقًـا بسـعرٍ بـاهظ. إذا كنـت مُسـتعدّة لـدفع ثلاثـة أضـعاف المبلـغ، فسوف أحصل على ما أريد. وهكذا وجب علي أن أفعل. لففت ثلاث رزم من المال من فئة المئة دولار في كيس واحـد. حصـلت في المقابـل علـى علبـة تحـوي علـى عشـرين منـديلًا صـحّيًا. حتّـى النزيـف كـان يكلّفني مالًا.



بدأت أقنّن في كلّ شيء حتّى لا أمضي للعثور عليه في السّوق عندما ينفد ما لديّ. لم أكن بحاجة إلى أيّ شيء باستثناء الصّمت. لم أكد أفتح النوافذ حتّى دخل دخان الغاز المسيّل للدموع الذي أطلقته قوّات الشّرطة لقمع المتظاهرين الذين احتجوا ضدّ قرارات التقنين. استنشقت ذاك الغاز وبدأت أتقيّأ حتّى أصبح ما أخرجه عديم اللون. أحكمت إغلاق النوافذ بشريط لاصق أمريكي، باستثناء الحمّام والمطبخ اللذين لم يكونا في جهة الشارع. بذلت قُصارى جهدي كي لا أترك أيّ شيء في الخارج.

أجبتُ فقط على الاتصالات الواردة من الناشر الذي قرّر أن يوقف العمل لمدّة أسبوع احترامًا لما أمرّ به. إلّا أن ذلك أجبرني على أن أؤجّل تصحيح بعض المسودات ذات الأجر الجيد ولكن شعرت أنني غير قادرة على تدقيقها. كنت بحاجة إلى ذلك المال ولم تكن لدي طريقة للحصول عليه. لم يكن هناك اتّصال لطلب التحويلات. انقطع الإنترنت لفترات طويلة، وكان بطيئًا وتشوبه الكثير من الأعطال. استخدمت كلّ المال الذي أودعته بعملة

البوليفار لدفع نفقات علاج أمّي. لم أجنِ الكثير من المال بصفتي محرّرة، ومع تشديد العقوبة، بحسب أوامر أبناء الثّورة، فإن العملة الأجنبية أصبحت شيئًا غير مشروع، وترقى حيازتها إلى جريمة الخيانة.

عندما شغّلت هاتفي النقّال، وصلتني ثلاث رسائل نصّية، وجميعها من آنا. إحداها للاطمئنان عن حالي والرسالتان الباقيتان تم إرسالهما افتراضيًا لجهات الاتصال لديها في الهاتف. مرّ خمسة عشر يومًا من دون أيّ خبر عن أخيها سانتياغو، وطلبت في هاتين الرسالتين أن نوقّع على عريضة لإطلاق سراحه. لم أرد على أيّة رسالة. لم يكن بوسعي أن أقوم بأيّ شيء من أجلها، ولم يكن بإمكانها أن تفعل أيّ شيء لأجلي. نحن محكومٌ علينا بالهلاك وأن يتم تجاهلنا، مثل بقيّة البلاد، كانت تلك خطيئة الناجي، شيئًا شبيهًا بما يعانيه أولئك الذين غادروا البلاد، شعور بالعار، كان عدم المشاركة في المعاناة شكلًا آخر للخيانة.

تدبّر أبناء الثورة أسلوبهم للسّيطرة على البلاد. لقد فرّقونا على جانبي خطٍّ مرسوم. من يملك ومن لا يملك، من يغادر ومن يبقى، القانوني والمشتبه به. لقد أسّسوا للتعنيف ليكون بمثابة أحد أشكال التفرقة التي خلقوها في المجتمع والتي كانت موجودة فيه بالفعل. لم أكن أعيش بشكلٍ جيّد، ولكن إذا كنت واثقة من أمرٍ ما فهو أنّ الوضع دائمًا يمكن أن يكون أسوأ. كان عدم وجودي بين الأموات أمرًا مُدينًا لي ولهذا يجب أن أصمت من باب الأدب واللباقة.

افتقدت في منتصف الليل صوت الضجيج الذي أصدره خزّان الماء لدى أورورا بيرالتا؛ وهي جارتي. لم أرها منذ أن دخلت أمّي إلى وحدة الرعاية لتسكين الآلام. كنت متفاجئة لعدم سماع الضجّة المزعجة لسلسلة المرحاض، كانت تخترق جدران غرفتي ليلةً إثر ليلة، وتنحفر في أحلامي مع كل دفعة لماء المرحاض نحو المجاري.

كنت أعرف القليل عنها، كانت خجولة ولديها القليل من نِعَمِ الحياة. ناداها الجميع بلقب "ابنة المرأة الإسبانية". انحدرت أمّها، وتُدعى جوليا، من غاليسيا في إسبانيا، وكانت تُدير مطعمًا صغيرًا في لا كانديلاريا؛ وهي منطقة في كاراكاس حيث الكثير من الحانات التي امتلكها المهاجرون الإسبان، أتى إلى هنا الكثير من الإسبان من غاليسيا وجُزر الكناري، إضافة إلى بعض الإيطاليين.

شكّل الرجال النسبة الكُبرى من زبائن ذاك المطعم. تردّد عليها الزبائن لشرب البيرة في قوارير من دون رغبة، إذ إنّ الحرّ كان حارقًا، وتناولوا الوجبة المؤلفة من يخنة الحمّص مع السبانخ والعدس والسجق أو الذرة والتي أضافوا إليها الأرز. كان مطعم بيرالتا أفضل مكان في المدينة لتناول ثمار البحر. بالنظر إلى عدد الأشخاص الذين كانوا يتناولون عشاءهم هناك، فلا بُدّ أن ذاك كان صحيحًا. كانت جوليا إحدى النساء اللواتي عملن في مهنتهن قبل القدوم إلى البلاد: مثل الطبّاخات، والخيّاطات، والفلاحات، والممرضات. على أيّة حال فقد بدأ معظمهن العمل خادماتٍ منزلياتٍ لدى البرجوازيين المحلّيين في فترة الخمسينيات والستينيات، لم يكن لديهن سوى ما تُنجزه أيديهن مصدر رزق.

أتى أيضًا العاملون في الطباعة، وباعة الكتب، وبعض الأساتذة للعيش بيننا مع أولئك الذين انخرطوا في جماعة زيتاس التي ورد ذكرها في كلّ حوار حتّى انتهى بهم الأمر لأن يكونوا هم سببًا رئيسًا للحديث. كانت أورورا بيرالتا، على غرار أمّها، تكسب رزقها من

الطبخ للآخرين. أدارت مطعم العائلة لبعض الوقت بعد وفاة أمّها، ثم باعته لتبدأ عملًا آخر في تحضير المُعجّنات في المنزل. كان إيجار المحل مُكلفًا إضافة إلى انعدام الأمان، بإمكان أي أحد أن يجبر المدير تحت تهديد السلاح على إعطائه المال، كي لا يطلق النار على الشخص السيئ الحظ المكلّف بالعمل على درج النقود. كان عمرنا تسع سنوات فقط، إلّا أنّها بدت بالفعل مثل امرأة كبيرة في السن.

أتت إلى منزلنا عدّة مرّات، مع بعض الكيك الطازج الذي أُخرِج لتوّه من الفرن. كانت مثل أمّها عندما كانت على قيد الحياة، بدت لطيفة وكريمة. هناك شيء ما في حياتها يماثل حياتي. لم يكن لكلتينا أب، أو هكذا استنتجت عندما رأيت كيف تعيش النساء اللواتي كُنّ يشبهنني. بدأت حياة كل منا بالثّنائية التي تشكّلت من أم وابنة وانتهت بها. فوجئتُ من عدم قدوم أورورا بيرالتا إلى جنازة أمّي. أخبرتها بمدى سوء حالة أمّي عندما كانت مُهتمّة بحالتها الصحية. أعتقد أن نقص الدقيق والبيض والسكر قد وضع عملها على المحك، إمّا أنّها تمرّ بأيّام عسيرة وإما أنها عادت إلى إسبانيا، في حال بقاء أفراد من عائلتها على قيد الحياة هناك.

بعد ذلك نسيت أمر أورورا بيرالتا كما لو أنّها كانت ملحًا وذاب، لقد غذّاني وجود أمي عندما كانت على قيد الحياة، لم أكن أرغب في أي شيء أو أحتاج إلى أي شيء. لن يعتني بي أحد ولن أعتني بأحد، وفي حال أصبحت الأمور أسوأ، فسوف أدافع عن حقّي بالحياة بالتعدّي على حقوق الآخرين، إمّا هم وإما أنا. ليس لدى أحد في هذه

البلاد المروءة والكرم ليمنحني شيئًا من الرحمة. لن يعصبوا لي عينيّ، ولن يضعوا لي سيجارة في فمي أيضًا. لن يشعر أحد بالتعاطف معي عندما أصل في الميعاد المُحدّد.

كانت مُتعلّقات أمّي مُرتّبة بالفعل في صناديق بالقرب من المكتبة. بدت مثل الأمتعة، كما لو أنّ الوقت قد حان لحزم الحقائب. لم أرغب في التّبرع بكل تلك الأمتعة. إن تلك البلاد اللعينة التي تشتعل فيها النار لن تترك منها شروى نقير، ربما صفحة من كتاب أو قطعة من ملابسها.

كانت الأيام تمرّ على محنتنا مثل أخبار القتلى في العناوين الرئيسة. صعّد أبناء الثورة من أفعالهم. كان لديهم شك في أي يخرج الناس إلى الشارع واستمرّوا في قمع المعارضين بالاستعانة بأجهزة الدولة والخلايا المسلّحة التي تشكّلت من أفراد ملثّمين عملوا في مجموعات. لم يكن أحدٌ آمنًا تمامًا في منزله. وفي الغابات في الخارج، وصلت طرق تحييد الخصوم إلى درجةٍ لا تُضاهى من الكمال. كان الشيء الوحيد الذي يسير بشكلٍ جيد في تلك البلاد هو آلة القتل والسرقة، هندسة السلب والنهب.

رأيت كيف تشكّلت تلك المجموعات وكيف ازداد عددها وفرضت وجودها الذي أضحى أمرًا عاديًا: وجود الأفراد الذين يرتدون الزيّ المموّه وسط البلبلة والفوضى المحميّتين من قبل الثورة. ضمّت جميع الميليشيات تقريبًا أفرادًا مدنيين. كانوا يعملون تحت حماية الشرطة، بدؤوا في التجمّع عند أطراف ساحة القائد التي بقينا حتّى ذاك الحين ندعوها باسمها الأصلي، ساحة ميراندا، تكريمًا للبطل التحرّري الحقيقي لحرب الاستقلال الذي مات، مثل جميع

الرجال الجيدين والنزيهين، بعيدًا عن البلاد التي كرّس نفسه لها بالكامل. تم اختيار ذاك الموقع من قبل أبناء الثورة لتنصيب قائدٍ جديد... أبناء؟ لماذا ليسوا أبناء الزّنى؟ "أبناء الزّنى للثورة"، هكذا قلت لنفسي عندما رأيت مجموعة من النساء البدينات اللواتي ارتدين زيًّا ذا لونٍ أحمر بالكامل. كُنّ مثل عائلة، حوريات بلا ملامح: الآباء والأبناء، كُنّ بحق أمّهات وأخوات، مجموعات مُسلّحة بالدلاء والعصي: الأنوثة في أشدّ روعتها.

مرّ موكب من عشرة جنودٍ مُقنّعين – وضعوا أقنعة سوداء تعلوها جمجمة مبتسمة – والذين أقاموا معهم منذ اليوم الأول. وأتى آخرون مع مرور الأسابيع. أتى المزيد والمزيد من فرقة الدراجات الآلية للوطن. كان من المستحيل التعرّف إليهم. ارتدوا الأقنعة مثل التي يستعملها أفراد شرطة مكافحة الشغب. قطع قماش أخفت نصف وجوههم ومرسومٌ عليها عظم الفك لجمجمة، وارتدى آخرون أقمشة مطّاطية مُخرّمة غطّت وجوههم حتّى العينين. ما الذي يهم في عدم التعرّف إلى هويتك إذا كنت من تضع القانون؟

خلافًا لهم فقد عملت النسوة من دون أن يضعن أقنعة، وهنّ يلوحّن مهدّدات بأطقم الأسنان الاصطناعية التي تُستعمل للكلاب، مِمّا ساعدهن على القتال بقوّة أكبر. كُنّ يضربن بقبضة ثابتة، وحالما يُغمى على خصمهن كُنّ يجرجرنه على الأرض ويأخذن كل ما لديه. يمكن القول إنّ جميعهن أدّين عملهن بسعادة، بالرغم من أنّني لم أفهم ما هو مقدار ضخامة الراتب الذي كن يتقاضينه حتّى يتركن

غضبهن مشتعلًا طوال الوقت. ما الذي كن يتلقينه مقابل العمل بدوام كامل في تحطيم الرؤوس كما لو أنّها كانت رؤوس بطّيخ؟

سقط أمامي صندوق من أعلى رف في الخزانة كان مدموغًا من جهته الأمامية. قرأت ما كُتِب عليه "متجر ثيسيوس للأحذية"، كانت أمّي تحبُّ تلك الصناديق. كانت متينة وذات نوعية جيّدة، مثل كلّ شيء تقريبًا في ذاك المتجر الذي عمّده المالك باسمه، ثيسيوس؛ وهو رجلٌ إيطالي ذو وجهٍ كما لو أنّه محفور على الرخام. "ما أروعك عزيزتي الطفلة"، هذا ما كان يقوله لي صانع الأحذية في الحي بعد أن يقرص خدي ويتركني أغادر ووجهي أحمر مثل المانجا الناضجة.

كانت الخطبة الطويلة هي نفسها في كلّ مرّة تقريبًا، مزيج من الإيطالية والإسبانية التي لم يُصحّحها السيد ثيسيوس أبدًا، بالرغم من أنّه أمضى في فنزويلا عشرين عامًا. ناداه الناس "السيد ثيسيوس"، كما لو أنّ مظهره يعفيه من المناداة باسمه الأول فقط. كان طويلًا، وعيناه صافيتين وابتسامته مثالية، وأسنانه كبيرة ومربّعة. كان في الخمسينيات من عمره تقريبًا، إلّا أنّه حافظ على مظهره الفروسي: فك مرسوم، وأنف منحوت أشبه بأنف التمثال، وشعر مُثبّت ومُمشّط للخلف. لطالما انبعثت منه رائحة كولونيا عطرة ووضع في يده ساعة كبيرة بقدر يد نبتون تقريبًا.

لم أر أبدًا أيّة تجعيدة في قمصانه وسراويله. بدا أن ثيابه تناسب متجر الأحذية الذي امتلكه، شغل محلّه الطابق الأرضي في بناء بني في فترة الخمسينيات، وقد كساه بالغرانيت الأخّاذ والموزاييك اللذين مثّلا النظام في دولة تريد التخلّص من فرسانها العديدين، إن ذاك التمدّن كان محاولة لوضع سرج التقدّم على ظهر بلادٍ من دون قانون. كان متجره، محلًّا أنيقًا ومحترمًا، أمام البناء السكني الذي عشت فيه أنا وأمّي.

مُدت سجّادة ذات لون بيج على امتداد الطابق الأرضي بأكمله، وعرضَ في نوافذ متجره أحذية من دون كعب وكنادر ذات كعب عالٍ، إضافة إلى الأثاث المعدني اللامع الذي وضع عليه الأحذية والجوارب بحرص، أمّا درج النقود فهناك طابعة ذات لفافات ورقية تخرج منها فواتير الزبائن. ولّد ذاك المكان في نفسي انطباعًا بمنتهى الرّوعة. ولكن لم تكن تلك هي التحفة التي أحببتها كثيرًا في المتجر، هناك شيء آخر استحوذ على انتباهي بالكامل: صورة للبابا يوحنا بولس الثاني التي هيمنت على المكان بأسره. بدت الصورة كما لو أنّها سافرت عبر الزمن، كما لو أنّها حافظت على تلك اللحظة الثابتة التي يأخذ فيها الحبر الأعظم بيد رجل شاب يرتدي زيًّا كهنوتيًّا أسود.

عندما كانت أمّي تطلب متأخرة مقاسات لم تعد موجودة لديه كان ثيسيوس يذرع المكان ليجلب لها أفضل ما يناسبها، أمّا أنا فكنت أستغرق وقتي لفهم تلك اللوحة. بابا، بالأحرى البابا. فكّرت في نفسي "الحدبة المُقدّسة". ما هي العلاقة التي يمكن أن توجد خلف الإيمان، بين السيد ثيسيوس وذاك الكاهن الشاب والمستشار المفوّض بالمجد المقدّس للرب على الأرض – عبارة مقتبسة من خالتي – ذاك الرجل الذي يترأس جموع المصلّين يوم الأحد على التلفاز في المحطّة الرسمية؟ (كانت الدولة في تلك السنوات غافلة عن أبناء الثورة الذين لم يعلنوا في حينها الحرب على الكنيسة). فكّرت في قرارة نفسي كم هو بعيد الفاتيكان عن مكاني هنا.

سألته "هل تربطك صلة قرابة بالبابا؟".

بعد أن أطلق ضحكة عذبة، شرح لي ثيسيوس تاريخ هذه الصورة: إن الكاهن الشاب الذي رحّب به البابا يوحنا بولس الثاني هو باولو؛ وهو الأخ الأصغر لثيسيوس. تم تكبير الصورة وعرضها في إطارٍ ذهبي، وهي الصورة الموافقة ليوم الاحتفال بترسيم باولو كاهنًا.

لقد أضفت الصورة التي عرضها الرجل الإيطالي في محلّه لمسة الرصّانة والوقار على المكان، كما لو أنّ الثوب الكهنوتي لأخيه، والمنصب الذي شغله في الفاتيكان، سيرفعانه في السّلم الاجتماعي، ارتقاء غير مرئي ميّز متجر الأحذية ذاك، في مركز مدينةٍ تقع في العالم الثالث، عن العالم الذي يعيش فيه أخوه.

بدأ هناك أملٌ جديد أعطى معنىً لأساليبه الحذرة، التقدّم المتمثّل في عملك مما يميزك عن المهاجرين الآخرين مثل ثيسيوس، الرجال والنساء الذين أتوا إلى هذه المدينة من سانتياغو، مدريد، جزر الكناري، برشلونة، إشبيلية، نابولي، برلين... الناس الذين كانوا منسيين في بلادهم فأتوا واندمجوا بيننا الآن. السادة المحترمون والجميع، لم يكن هناك شيء يربط ثيسيوس مع الخبّازين من فونشال، أو البستانيين من ماديرا أو البنّائين من نابولي، الأشخاص ذوي الأيدي السميكة، الذين كانوا مفلسين وتم تصنيفهم في السّلم الإجتماعي وفقًا لعملهم المباشر مع الأرض.

الأشخاص الذين حطّموا الصخور وبنوا المكان الذي نحتفل فيه والأشخاص الذين أعدّوا أصابع الخبز مع الثوم. لقد أسرتني شخصيته بالفعل. الرجال الشبيهون بثيسيوس الذين استقرّوا في

فنزويلا عندما كان كلّ شيءٍ هنا بأفضل حال تقريبًا، وفي الوقت نفسه غادروا تاركين وراءهم حطام المكان حيث مسقط رأسهم.

أعادت شوارع كاراكاس إنتاج الأصوات واللهجات التي عبرت المحيط الأطلسي، وهو المحيط حيث يقول أحدٌ ما وداعًا. اندمجت كلماته والألقاب العذبة التي أطلقها مع ضجّة الشارع - ملكتي، حبّي، حياتي - التي كُنّا نستعملها وانتهى بنا الحال للتظاهر بها. لقد ابتكروا أجهزة الدولة: الأجهزة التي شُكِّلت لأجلهم ولأجلنا. وفهمنا معًا أنّ كُلّ ذلك هو لنا، مجموع الشواطئ التي تفصل عن البحر.

- "أديليدا، حبيبتي، لماذا تحبّين هذه الصورة؟"

مرّة سأل ثيسيوس بلهجته القشتالية المُبتكرة.

- "لأنّني أحبُّ روما".
- "ولماذا؟" (بالإيطالية).
- "لأنّها على الجانب الآخر من البحر الذي لم يسبق لي أن عبرته أبدًا".

كان ثيسيوس يحمل النعل المعدني الذي سقط أرضًا في الحال.

"على الجانب الآخر من البحر...". كرّر جملته.

"سيّد ثيسيوس، المعذرة"، قالت أمّي، وانتعلت حذاءً من دون كعب ذا لون أزرق نيلي: "أظنّ أنّني بحاجة إلى قياس أكبر، أشعر بقدمي اليُسرى مشدودة".

"إنّها مفقودة، سيّدة أديليدا، في الحال،... على الجانب الآخر من البحر، على الجانب الآخر من البحر!". (كرّرها بالإيطالية) سمعناه

يكّررها وهو يدخل إلى المخزن.

عاد إلينا بعد خمس دقائق بنفس الموديل، ولكن مع أكبر قياس لديه، جرّبت أمّي الفردة اليسرى أولًا، ثمّ اليمنى، وتمشّت قليلًا أمام المرآة، ثمّ خلعت الحذاء. وضعه بعيدًا ونظر إليّ وسألني:

"ما رأيك؟". قالها وهو يحدّق إلى عينيّ.

تفوّهت ببعض عبارات الإطراء السخيفة ورفعت إبهامي.

- "سوف أشتريه".

نقر الرجل الإيطالي بأصابعه وقال: "برافو!".

واتجه نحو درج النقود، أدخل رقمًا وضغط على زر وتجاهل درجًا مليئًا بالعملات المعدنية والأوراق المالية المكدّسة بحسب اللون والفئة. أعطت أمّي الرجل الإيطالي ورقتين نقديتين وأعاد إليها الباقي، ورقة مالية من فئة العشرين، من تلك الأوراق الخضراء المطبوع عليها وجه بايز؛ وهو الجنرال المُتمرّد في الحرب الفيدرالية، الرجل الذي علّم نفسه أن يستمع إلى واغنر.

- "إذا لم تشعري بالارتياح عند انتعال الحذاء فبإمكانك أن تعيديه في أي وقت تشائين أديليدا".
- "شكرًا لك ثيسيوس، قولي وداعًا يا بنتي".
- "وداعًا سيد ثيسيوس".
- "وداعًا يا فتاتي الصغيرة... وتذكّري: على الجانب الآخر من البحر (قالها بالإيطالية مع ابتسامة). كرّري معي: على الجانب الآخر من البحر".

- "على الجانب الآخر من البحر".

ثمّ ابتسم مرّةً ثانية وظهرت تلك الأسنان المربّعة.

خرجت وأمّي وهي تمسك بيدي. حملت بيدها كيسًا فيه الحذاء الذي انتعلته في المتجر، أمّا أنا فغمرني شعور أنّني ارتكبت عملًا طائشًا.

- "أديليدا، يا بنتي، ما الذي أخبرك به ثيسيوس؟".
- "على الجانب الآخر من البحر".
- "أعرف ذلك، ولكن لماذا قال لك ذلك؟"
- "لأنّه يعيش في مكانين في الوقت نفسه يا أمّي. إن عائلته تسكن بعيدًا وهو يسكن هنا. ألم تري صورة الكاهن؟"
- "أجل رأيتها، ما هي تلك الصورة؟"
- "إنّه شقيقه يا أمّي، إنّه يعمل مع البابا".

نظرت أمّي إليّ من دون أن تتمكّن من إيجاد منطق مُقنع في كلامي. تابعت كلامي: "حسنًا، السيد ثيسيوس لديه منزلان. أحدهما هنا والثاني على الجانب الآخر من البحر... هل توضّح لك الأمر الآن؟".

- "أجل يا ابنتي، أجل".

وُلِدت في بلادٍ أتى إليها الرجال والنساء من بلدانٍ أُخرى. خيّاطون، خبّازون، بنّاؤون، عاملون في التمديدات الصّحية، حانوتيّون، تُجّار، إسبان، إيطاليون، برتغاليون، وبعض الألمان الذين أتوا ليعثروا على مكانٍ لهم في الطّرف الآخر من العالم.

ابتكروا الثلج، إلّا أن المدينة بدأت تصبح فارغة. عاد أبناء أولئك المهاجرين إلى مسقط رأس آبائهم ليبحثوا عمّن بقي حيًا من السلالة التي أتوا منها، ومن ناحيةٍ أُخرى لم يملكوا شروى نقير في بلدانهم الأصلية، هم الأبناء الذين كانت ملامحهم تتشابه قليلًا مع كنياتهم. فتحت الصندوق الملوّن ذا البطانة اللامعة، وفي داخله وجدت زوجًا من الأحذية بكعب عالٍ لم تستعمله أمّي.

مرّ رجلٌ مُثخن ضربًا أمامي محمول على نقّالة من دون قماش، وقد حملته مُمرّضتان وهما تجريان بأقصى ما تستطيعان. "أعطه إياها، أعطه إياها، أعطه إياها، إنّها لا تأتي!". كانتا تصرخان في حين عبقت في أنفي رائحة حديدية، لم تكن عطرًا، كانت أشبه بالإعلان. مشيت عبر قاعات عيادة ساغراريو وقد دوّرت فمي حتّى اتّخذ شكل الطبنجة: ساخن ومُذخّر، باحثة عمّن أطلق النار عليه.

لم تأت كلارا بالتاسار إلى عملها في مكتب العمدة. هذا ما أخبرني به الحرّاس عندما ذهبت بحثًا عنها. كمنت لها ثلاث نساء على بعد مجمعين سكنيين من مبنى البلدية، سحبنها خلف زجاجٍ مُعتم، وضربنها بقسوة وتركنها راقدة في بركة دم عند باب بيتها، كما لو أنّها كانت رسالة "في المرّة القادمة سنقتلك". ذلك ما عنته تلك الإشارة. تلك هي الشفقة التي هي شكلٌ آخر من القسوة. لم يقتلنها حتّى يُطلن ألمها.

إن الأعمال الإجرامية للعصابات شائعة الآن، لم يشاهد أحد أيّ شيء، لم يسمع أحد أيّ شيء. هذا ما قاله عمدة المدينة، وهو رجل

ذو شارب مُميّز ويتحدّث بشفتين صغيرتين ومشدودتين مثل فتحة الشرج، وتلك التكشيرة التي تنمّ عن تحفّظ زائف يتظاهر به الناس. إنّه العار والخوف. كان من الصعب عليّ أن أجد كلارا بالتاسار. استقبلتني مُمرّضة بدا أنّها لم تنم منذ أسابيع وفي يدها كومة كبيرة من الأوراق المائلة للسواد.

- "عمّن تبحثين"؟
- "عن كلارا بالتاسار".
- "حسنًا". وتفقّدت الأوراق التي معها لبضع دقائق، ثمّ قالت: "إنّها في وحدة العناية المُركّزة، هل أنتِ قريبتها؟".
- "لا لست قريبتها".
- "إذن، لا يمكنك رؤيتها".
- "لكن، كيف حالها؟".
- "لا أستطيع أن أعطيك معلومات".
- "هل هذا ممنوع؟".
- "إنّها على قيد الحياة".

هذا ما قالته الممرضة قبل أن تختفي في القاعة المُبلّطة القذرة.

انتظرت طوابير طويلة من الناس على أدراج حرم العيادة. أناسٌ مُحطّمون وبلا تعابير على وجوههم. رجال ونساء وأطفال انتظروا دورهم. بدا الجميع هزيلين لأنهم عانوا من الجوع لأيام، وهم جالسون ويتملّكهم السخط والغيظ، أولئك الذين لم يعودوا يتذكرون متى عاشوا حياةً أفضل. كانت هناك ثلاث مجموعات؛ المجموعة

الأولى التي تسأل عن الوقت في قائمة الانتظار لإجراءات المريض الخارجي، والذين انتظروا ليطلبوا إجراء عملية جراحية رئيسة، وأولئك الذين قوبلوا في المستشفى إلّا أنّهم وقفوا في صمتٍ حتى يأتي أحدٌ ما ليصحبهم إلى مكان آخر غير الأروقة المكتظة التي خيّم الناسُ فيها لأسابيع.

فيما يخصّ المنظر العام، هناك شيء أسوأ من العيادة التي غيّب الموت فيها أمّي، كنت مشغولةً بالحالات المزاجية التي راودتني واللعاب، هناك رائحة كريهة للأشخاص المصابين بغيبوبة وكأنّهم يتعفّنون، وبين الحين والآخر تأتي ممرّضة مع ملف مُمتلئ بالأوراق وتقرأ بصوتٍ عال: "أمادور رودريغيز، كارمين بيريز، آمور بيرناليتي". رفع بعضهم أيديهم ورؤوسهم، وآخرون وقفوا مطالبين بتفسير سبب استدعاء هذه الأسماء من دون غيرها. أمّا المغلوب على أمرهم فكانوا أسوأ حالًا، كانوا خارج هذا الأمر برمّته، مثل الأجهزة المعطّلة. يوم واحد، يومان، ثلاثة أيام، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية أيام، تسعة أيام، عشرة أيام. "أحضر رقمك"، "تعال غدًا"، "ليس الآن، غدًا". أمرت الممرضات اللواتي ارتدين ثيابًا زرقاء رثّة مثل التي تُعطى للقرود أن يعود الناس إلى مكانهم وينتظروا. قالت امرأة لابنتها: "وعدونا أن الأمور سوف تسير على نحوٍ أسرع". أجل لقد وعدوا. وعدوا أنّ أحدًا لن يسرق بعد الآن، وأنّ كلّ شيء سيكون للشعب، وأن كل شخص سوف يمتلك منزل الأحلام، ولن يقع أيّ

مكروهٍ بعد الآن. وعدوا بأنّه سيكون لدى الجميع الغذاء الكافي. إلّا أن الصلوات غير المستجابة تحطّمت في غمرة السخط، لقد أرهق كلّ شيء كاهلَهم. لم تكن من مسؤولية أبناء الثورة أيُ شيء يحدث. إذا كانت المخابز فارغة فإنّ الخبّاز هو الجاني، إذا كانت الصيدليات فارغة، حتّى من أبسط وسائل منع الحمل، فإنّ المسؤول عن ذلك هو الصيدلاني، إذا وصلنا إلى المنزل مرهقين وجائعين، مع بيضتين في كيس التسوق، فإن الذنب يقع على الشخص الذي أتى بالبيض في ذاك اليوم. كنّا نضيع، ومع وجود قائمة طويلة من المخاوف والكراهية، وجدنا أنفسنا نتمنّى السوء للجلّاد والضحية على حدٍّ سواء، كُنّا عاجزين عن التمييز بينهما.

بدأت طاقة الفوضى الخطرة بالتأجّج داخلنا، ومعها الرغبة في إجراء الإعدامات من دون محاكمة لأي أحد يتورط أو يشي بالسوق السوداء العسكرية التي أعادت بيع الطعام المخصّص في السوق السوداء، أو لذاك الذي يحاول أن يأخذ ليترًا من الحليب في الطوابير الطويلة التي تنتظر على أبواب جميع المتاجر يوم الإثنين. لقد جعلونا نفرح بأشياء مشينة: الموت المفاجئ غرقًا لأحد القياديين من دون أي تفسير منطقي في أحد الأنهار الكُبرى في السهول الوسطى، أو القنبلة المخبّأة تحت مقعد السائق في سيارة دفع رباعي فخمة لتحيلَ أحد المُدّعين العامين الفاسدين إلى أشلاء عندما أدار مفتاح تشغيل السيارة. فقدنا القدرة على التعاطف، لأنّنا كُنّا توّاقين إلى جمع المكتسبات ممّا كان يحدث بشكلٍ خاطئ. اتّسمت وجوه الرجال

والنساء بعلامة بدأت أميّزها في وجهي عندما أنظر إلى المرآة: هناك شق في المكان ما بين العينين. سارت الأيّام كما لو أنّ الزمان يسير لخلق المعارك وليس بقصد الحياة: القطن، الشاش، الأدوية، الأسرّة القذرة، المباضع الطّبية من دون حواف، ورق المرحاض، تناول الطعام أو الشفاء، لا شيء أكثر من ذلك.

كان الشخص التالي في الصف دائمًا خصمًا مُحتملًا، شخصًا ما لديه شيء آخر. أولئك الأشخاص الذين خاضوا المعارك على البقايا. حاربنا في تلك المدينة من دون نتيجة على مكانٍ كي نموت فيه. صعدت حتّى الطابق السابع، وكما هو حال العيادة التي ماتت فيها أمّي، فلم تكن المصاعد تعمل هنا. في كلّ طابق من البناء وجدت المحتضرين والمصابين، أولاد بجباهٍ مجروحة ومسنّون مصابون بارتفاع الضغط. كانوا مكوّمين فوق بعضهم بعضًا وقد حطّمتهم المصائب والبلاء.

في غرفة الانتظار في وحدة العناية المُشدّدة وجدت فتاتين. كانتا في مثل عمري، إلّا أنّ هيئتيهما أوحتا بعمرٍ أكبر بفعل التعب. نامتا على صفٍّ من الكراسي الزرقاء البلاستيكية، ومعهما البطانيات والطعام الملفوف بورق الألمنيوم والأكياس والملاءات المثنية، مثلما كان حالي منذ بضعة أسابيع، أنشأت هاتان الفتاتان مستشفاهما الميداني، في خضمّ هذه الحرب الملعونة التي يأتي فيها الناس ليروا أحبّاءهم يموتون.

مشيت إلى الفتاة الأصغر عمرًا، إذ إن الفتاة الأخرى نامت واضعةً رأسها على كتفها. افترضت أنّهما شقيقتان.

- "هل أنتِ ابنة كلارا بالتاسار؟".
- "من أنتِ؟ ماذا تريدين؟".
- "أُدعى أديليدا فالكون".
- "حسنًا؟".
- "ساعدتني والدتك في جمع المال لأدفع لعلاج أمّي، أتيت بحثًا عنها لدى مكتب العمدة، وأخبروني أنّها هنا".
- "لا أعلم ما الذي تتحدثين عنه".
- "أتيت لكي أقول لها شكرًا".
- "ارحلي من هنا".

وقفت وأيقظت الفتاة الأخرى.

- "ما الخطب ليدا؟ من هذه؟".

سألت شقيقتها وهي تنظّف أنفها.

- "أدعى أديليدا فالكون.. والدتك، كلارا بالتاسار، ساعدتني في جمع المال لأدفع لعلاج...".كرّرت كلامي.
- "ارحلي رجاءً، لا نعرف تلك المرأة، لا نعرف عمّن تتحدّثين".
- "أنا أتيت فقط لأخبر كلارا أنّ أمّي ماتت، وأقدّم هاتين العلبتين من المضادات الحيوية".

تبادلتا النظرات من دون أن تقولا شيئًا. تركت المضادات الحيوية على الكرسي الوحيد الفارغ، وغادرت. كلارا بالتاسار؛ الموظّفة الاجتماعية التي ساعدت امرأة مُحتضرة حينما كنت أسعى لتأمين الطعام، كانت ميتة، أو على وشك الموت، لقد لقّنها خرق الأوامر الثورية درسًا نموذجيًا، أعطيتها الأدوية التي لم تستعملها أمّي. نزلت سبعة طوابق مشيًا، وعندما وصلت إلى الطوارئ، كانت

هناك امرأة تبكي بشدّة؛ إنّها ابنة الرجل المُثخن ضربًا الذي حملته الممرضتان على نقّالة من دون قماش. لقد مات الرجل قبل أن يصل إلى غرفة العمليات. لقد عرّونا، وقتلونا، أصبحنا نأكل بعضنا بعضًا.

كانت المرّة الخامسة التي أذهب فيها إلى المخبز في غضون ثلاثة أيام، ولكن الخبّاز تعامل معي وكأنّه لم يرني من قبل. لم يأتِ الطحين في هذا الأسبوع أيضًا. بالقرب مني هناك امرأتان حملتا أكياسًا تتجاوز سعتها بكثير الحصّة اليومية لسدّ الرمق. لماذا نقف في طوابير طويلة إذا كُنّا لن نحصل على شيء؟ خرجت المرأتان مع أرغفة الخبز التي انتظر لأجلها الآخرون أو نهضوا باكرًا للحصول عليها دون أن يستطيعوا أخذَها لبيوتهم.

سرت عبر شارع بارالت وأنا أفكّر في الضفادع البيضاء التي التصقت مثل الحصى على الناموسيات في نُزل فالكون في أوكامار دي لا كوستا. إنّها مخلوقات تمثّل بالنسبة إليّ ذكرى سيئة عادت إلى الحياة بقلبٍ خافق. بدونا متشابهين، الضفادع وأنا. إناث ذات بشرة قبيحة وضعت ذرّيتها في وسط النافذة. وصلت إلى باب منزلي بتثاقل، أدرت المفتاح في القفل، إلّا أنّ القفل قاوم. دفعت المفتاح جيئةً وذهابًا وهززت المغلاق، وسحبت المقبض، أصررت على فتح الباب. كانت هناك خدوش حول القفل، لقد بدّلوه. عندها بدأت أدرك ما يجري، الحصائر، وليالي التخييم، والدراجات النارية، والأكفان، والرضوض، والضرب بالدلاء والعصي. سَرَت رعدة عبر جسدي وأدركت أنّ الأوان قد فات. منزلي! كان هدفهم هو

الاستحواذ على كلّ شقّة في البناء. إن النساء اللواتي كنّ في ساحة ميراندا لأيّام كُنّ يُنفّذن في الواقع أمر غزو. "اللعنة!".

وضعت يدي بين فخذيّ، كنت مبلّلة. بذلت جهدي كي لا أتبوّل وأبقى هادئة. نزلت إلى الأسفل بحثًا عن آثار أو خطوات. كان من غير الممكن استشعار أيّ شيء تحت أدنى هالة نور. مازالت يداي بين ساقيّ. نزلت بسرعة إلى باب البناء ووقفت أراقب. سرعان ما أتت مجموعة من خمس نساء يحملن الحقائب، وعصي المسّاحات، وطرود الطعام المختومة بشعار وزارة التموين، وهو ابتكار وضعه أبناء الثورة لإعطاء الطعام بهدف تغيير الدعم السياسي. دخلت النساء إلى المبنى باستعمال مجموعة من المفاتيح التي كانت بحوزتهن. ارتدين الزيّ الموحّد لأفراد الميليشيا المدنيين: قمصانًا حمراء، بدون كما لو أنّهن اخترن أصغر قياس مما ارتدين، الجينز الضيق الذي أبرز سيقانهن المكتنزة، وانتعلن في أرجلهنّ الكبيرة كأرجل الفيل نعالًا بلاستيكية. كنّ سمراوات ولديهن شعر كثيف جمعنه في ما يشبه جذعًا صلبًا من الشعر.

تراجعت إلى الخلف، وتلصّصت عليهنّ من خلف الخيزران الصناعي وبعض السراخس الجافة -التي تم تدميرها على مرّ السّنين- في الطابق الأوسط من البناء. لم تكن تساعد كثيرًا في الإخفاء، إلّا أنّني تدبّرت أمري. شعرت بوجهي حارًّا وبثيابي الداخلية باردة. لم أتمكّن من أن أمنع نفسي، تبولّت في اللحظة نفسها التي ازداد فيها يأسي. لقد أربكني الخوف وجرّدني مِمّا لدي. لم يكن لدى

هؤلاء النسوة قائد، أو على الأقل لم تكن القائدة مرئية. يتطلّب الأمر ساعة كاملة لكي تحرّك وساداتك والصناديق حتّى مدخل البناء. كان الكثير منها مُوزّعًا حول صناديق الطعام التي تم استعمالها أحيانًا بمثابة كراسٍ وأحيانًا أُخرى أراجيح. بدت النسوة غير مستعجلات، بل كنّ يستمتعن بوقتهن. تفقّدت بعضهن الهواتف التي تعمل باللمس وقد صدحت منها موسيقا مزعجة، فيما تحادثت أخريات مع بعضهن عن أحقادهن وعداواتهن.

- "رونير، تعلمين ذاك الرجل الذي ينحدر من باريناس، ذهب إلى سان كريستوبال".
- "من أجل القوالب المصبوبة؟".
- "وما أدراني أيّتها الغبية؟ إن البنزين هناك أغلى ثمنًا. مع أسطوانتين ليشتري صندوقًا من البيرة، وبإمكانه أن يتعامل مع السوق السوداء بشكلٍ أفضل، لقد أخبرني أن المنافسة هناك أقل".
- "اللعنة، أليس كذلك؟ وماذا بشأننا؟".
- "اخرسي، كنت سأركلك بسبب كلامك السيئ".
- "وما الذي أعطوه للرجل الشبق الذي يرتدي الأسود أولًا؟".
- "لم تعد الجبهة فاعلة بعد الآن".
- "كيف هذا؟".
- "وكيف لي أن أعرف؟".

- "انظري، جوندي".
- "ويندي يا بنتي، ويندي... ليس جوندي".
- "حسنًا، هل ستتّصلين بزوجة المارشال؟".
- "انتظري يا فتاة، إنها هي من تقرّر متى سننقل هذا الزيت".
- "وما الذي أحبّه بشأن هذا الوقت، هل يمكنني أن أعرف؟".
- "كالعادة: الانتظار".

ارتفعت حولهن أكوام من العصي، والحصائر، وقرابة عشرين صندوقًا عليها شعار الحكومة. إنّ من يتلقّى هذه الطرود مقيّد بالتزامات مُحدّدة: أن يوافق دون أدنى تردّد على التظاهر دعمًا لصالح النظام السياسي، أو أن يقدّم خدمات بسيطة تتراوح بين تلفيق اتّهامات لأحد جيرانه وحتى تشكيل القيادات ودعم المجموعات التي تعمل لصالح القضية. الأمر الذي بدأ بوصفه ميزة للمسؤولين امتد ليصبح شكلًا من أشكال البروباغندا ومن ثمّ المراقبة. كل من يتعاون سيضمن الحصول على صندوق من الغذاء: لم يكن فيه الشّيء الكثير: ليتر من زيت النخيل، عبوة باستا ومثلها للقهوة. أحيانًا وعندما يحالفك الحظ قد يعطونك السردين ولحم خنزير معلّبًا، ولكنّه يبقى طعامًا وقد أحكم الجوع قبضته علينا.

بقيت النسوة هناك، كانت أحجامهن كبيرة مثل الكاتدرائية بسبب سمنتهن، إلى أن رن هاتف ويندي، وبعد كلمات قصيرة عن الطعام المُغبرّ قالت لرفيقاتها: "احملن معي هذه الأشياء الآن!". حملت النساء الصناديق دون إصدار ضجيج، حملت كلّ واحدة منهن صندوقين في كلّ يد، في تلك اللحظة لم يكن هناك ضوء في المبنى، ولهذا وجب عليهن أن يصعدن الدرج بدلًا من المصعد الكهربائي. اختبأتُ في إحدى الغرف المليئة بالقمامة، وانتظرت قليلًا لألحق بهن. لم أستطع الرؤية بوضوح من الأسفل، ولكنّني افترضت أنّهن أصبحن في الطابق الثالث. عدت إلى الطابق الأرضي لأرى ما إذا تركن وراءهن أيّ شيء لكي يعدن لأخذه. لقد أخذن كلّ شيء. تبعتهن وأنا مندهشة من رائحة خلّ التوفو التي خلّفنها.

كانت تلك المجموعة من النساء تتعرّق مثل سائقي الشاحنات. بدت رائحتهنّ لاذعة وكريهة؛ مزيجاص من الليمون والبصل والرماد. عندما وصلن إلى الطابق الخامس، وهو طابقنا، صلّيت لكي

يتابعن طريقهنّ إلى الأعلى. اختلستُ النظر قدر استطاعتي عبر الدرابزين وتأكّدت مخاوفي: كُنّ أمام باب بيتي. ذهبت آمالي أدراج الرياح عندما سمعتهن يفتحن الباب ويدخلن، لم يستغرق الأمر منهن أكثر من عشر دقائق لكي ينقلن الصناديق من الرّواق إلى الشّقة، كُنّ متعبات، فقد حملن وزنًا ثقيلًا. بالكاد كان لدي وقت لكي أفكّر. بدأ الظّمأ يحرق لثّتي وكانت مثانتي على وشك الانفجار. عندما انتهين من إدخال الصناديق أغلقن باب الشّقة، ضغطت على جفوني، وبدأت محاولة استرداد قوّتي، وصعدت الدرج. ضغطت على الجرس، مرّة ومرّتين وثلاثًا، استغرقن وقتًا طويلًا لفتح الباب. ضغطت على الجرس مرّة أخيرة، والآن أطرق الباب بمفاصل أصابعي. فُتِح الباب. استقبلتني امرأة في يدها سندويش، وتنتعل حذاء أبرزَ أظافر قدميها المدبّبة والمطليّة بالمينا، والأصابع المكتنزة التي ملأتها الالتهابات الجلدية. كانت ترتدي بلوزة أمّي ذات القماشة اللامعة والفراشة.

- "ما الذي تريدينه؟".

سألتني وهي تنظر إلى عيني.

- "أنا... أنا...".
- "أنت ماذا يا بنتي... ما خطبك؟".
- "أنا...".
- "أها، أنت ماذا؟".
- "أنا...".

لم أستطع أن أنهي جملتي، لقد أُغمِيَ عليّ.

- "ماذا فعلتِ اليوم؟".
- "ساعدت في تنظيف البحرة".
- "البحرة يا أديليدا؟ البحرة؟".

إنّها حوض إسمنتي فيه ماء أخضر في حديقة للأطفال في كاراكاس. كانت تلك البحرة بالنسبة إليّ أمرًا استثنائيًا. إنّها اسم مُبتكر، حتّى إنني ظننت أنها البحرة الوحيدة في العالم، وتم اختراع هذه الكلمة فقط لتسمية البحرة التي أشرفت على الفِناء الذي كنّا نلعب فيه عندما كُنّا طُلّابًا في الثانوية. في بعض الأحيان كانت تمتلئ باليرقات الصغيرة اللينة الفوسفورية. كنت أترك أصدقائي يلعبون، وأشاهد اليرقات وهي تتلوّى في الماء العكر.

- "أديليدا، تعالي! اتركي البحرة الآن".

إنّها فيرونيكا، مدرّستي، امرأة من تشيلي وصلت إلى كاراكاس من سانتاياغو مع زوجها وطفليها. لقد جعلتهم ديكتاتورية بينوشيه يتّخذون قرارهم بالرحيل حين تحدّثت مرةً في أثناء الإشراف على وجبة الإفطار في المدرسة. سألتها وساندويش المايونيز في يديّ: "من هو بينوشيه؟".

- "إنّه الرئيس".

وجدت هذا التفسير تافهًا. ما الذي فعله رئيس بلاد لكي يجعل الآخرين يحزمون حقائبهم ويغادرون البلاد إلى الأبد؟ لا بُدّ أن فيرونيكا كانت في نفس عمر أمّي، بدا وجهها مثل الورقة، مع تغضّنات

في البشرة، أمّا شعرها فكان قصيرًا وداكنًا للغاية. هناك لحظات حزن غفلت فيها فيرونيكا عن حذرها عندما لم تكن تتوقّع ذلك على الإطلاق: عندما رتّبت فراشي الأسنان للأطفال الذين أتوا في الدوام المسائي، وعندما غنّت أغاني مندثرة عن النساء اللواتي كُنّ على وشك الموت غرقًا في البحر، وبشكل خاص حين كان أحد الآباء أو الأمّهات يسألون عن "الظروف" في تشيلي، لتجيب: "أتعلم، إنّ كلّ شيء هناك يمكن أن يتغير للأسوأ فقط".

كانت والدة أليشيا أكثر من يتجاذب معها أطراف الحديث؛ وهي فتاة شبيهة بهايدي في المسلسل الكرتوني الشهير وكانت قلّما تتكلّم. في كلّ مرّة سخر أحد الأطفال فيها من لكنتها التي هي مزيج من الأرجنتينية والفنزويلية، كانت تأخذ الطفل الطائش من ذراعه، وتجبره على تنظيف أسنانه. بعد هذه الأحداث، أتت والدة أليشيا إلى المدرسة لتقابل فيرونيكا لتبرّر سلوك ابنتها. تحدّثتا لدقائق ثمّ خرجتا إلى باحة المدرسة. سارت والدة أليشيا بخطوات أنيقة زادت من جاذبيتها الملابسُ الرائعة التي اختارت ارتداءها؛ سروال رقص ضيّق تعلوه تنّورة قصيرة وحذاء ملائم. كان شعرها أسود لامعًا جمعته دائمًا في كعكة. كانت راقصة باليه، وكسبت رزقها من العمل في فرقة مارجوري فلوريز للباليه التي رفّهت عن أفراد الطبقة الوسطى في برنامج سابادو الحماسي؛ وهو برنامج مسائي كان يُعرِض في عطلة نهاية الأسبوع، ظهر فيه أطفال ذوو مواهب في الغناء أو تقديم أداء لنجم عالمي يؤدّي جولة فنّية في ذاك الأسبوع في البلاد، إذ إن البرنامج

كان ينتهي في الثامنة، قبل العشاء مباشرة. كانت دائمًا في جوقة الراقصين، إضافة إلى أنّها أدّت رقصة زاباتي جوربو المنفردة (الحذاء الأحدب) وهي تهزّ ثوبها المزيّن بالورود، أو رقصة التانغو التي تعلّمتها عندما كانت في بيونس آيريس، أو على الأقل هذا ما أخبرتني به أليشيا في أحد الأيام. التقى أبوها، وهو صحافي ومحرّر أرجنتيني، بأمّها عندما كانت في إحدى جولاتها في أمريكا الجنوبية. سرعان ما تزوّجا واستقرّا في العاصمة، ولكنني كنت أرغب فقط في أن أعرف بشأن تنّورات والدتها.

- "انظري يا أمّي! إنّها هي!".
- "من يا أديليدا؟".
- "والدة أليشيا، المرأة التي أخبرتك عنها، الراقصة في فرقة مارجوري فلوريز للباليه!".
- "أديليدا، يا له من اسم مُبتذل لفرقة رقص، يا إلهي!".
- "تعالي، تعالي سوف أريكِ!".
- "انتظريني حتّى أضع نظّارتي".

ثمّ انتظرناها كلتانا، جلسنا دونما حراك أمام شاشة التلفاز، حتّى ظهرت: سمراء وذات ملامح كريولية، أظهرت ابتسامتها أسنانَها البيضاء، ورقصت أروكا لانيرا.

"أجل، إنّها جيّدة". أقرّت أمّي، في أحد الأيام اشترت التذاكر لتشاهد رقصها في مسرح المدينة. لم تتمكّن أمّي من التعرّف إليها في فرقة البجع البيضاء الكبيرة

وهي تتحرّك من أحد جوانب منصّة المسرح إلى الجانب الآخر وسط الدخان الاصطناعي، أصرّت أمّي على أنّها لم تكن موجودة، أمّا أنا فاعتقدت أنّني ميزّتها بين أربع شابّات أدّين رقصة باس دي كواتر (رقصة تؤدّيها أربع راقصات باليه) على إيقاع المزمار. يوم الإثنين التالي، بعد المدرسة، تمرّدت أمّي على خجلها المعتاد، وقدّمت نفسها لوالدة أليشيا. ذهبنا سوية لنخبرها أنّنا حضرنا عرض بحيرة البجع.

قالت الراقصة: "أنتِ من أوكامار، أنا من ماراكاي، وهي قريبة للغاية!".

أجابت أمّي: "أجل بجوارنا تمامًا".

- "إنّها مُتاخمة! بعد أن عشت في الأرجنتين غادرتها ولم أعد بعد ذلك".
- "يا للجحيم، الأرجنتين؟!".
- "أجل، أترين! زوجي من بيونس آيريس، ولكن اضطررنا للمغادرة".

تحت شمس الظهيرة، رأيتُ وأمّي وأليشيا وأمّها معالمَ الدهشة التي ارتسمت على وجه فيرونيكا التي انضمت إلى الحديث.

قالت أمّ أليشيا: "أنتِ أيضًا غادرت تشيلي، أليس كذلك؟".

"أجل، وجب عليّ أن أغادر".

استذكرنا في حديقة الأطفال الأحواض المائية، وقالت فيرونيكا (هناك) بدلًا من أن تقول تشيلي أو سانتياغو، كما لو أنّ الاختيار

الوحيد لتلك الكلمة يؤكّد على البعد. هناك في الماضي، يبدو كما لو أنّه مكان خرجت منه بحالة لا تتطرّق إليها أبدًا. إنّها الكلمة التي تخدش مثل جذع يدٍ مقطوعة.

استيقظت عند باب المنزل مع ألمٍ حاد في الرأس. لم أسمع أيّ شيء حولي، ولا حتّى خطوة أو صوتًا قريبًا. كما لو أنّ العائلات العشرين التي تقطن البناء قد اختفت. كانت حقيبة يدي مفتوحة ومرمية بالقرب من قدميّ. أحدٌ ما قد سرق ما فيها: المفاتيح وهاتفي، وترك في المحفظة وثائقي، أمّا الأوراق المالية فلم يكن لها أيّ أثر. شعرت بمذاق معدني في فمي. صدحت من شقّتي موسيقا صاخبة ومألوفة. (تومب - ذا - هاوس - مامي، جريف - ذا - هاوس - مامي، وات - يور - جريف - ذا - هاوس - مامي). إنّها موسيقا الريجتون التي سمعتها في المقبرة، كانت تصدح من داخل شقّتي كما لو أنّ هناك حفلة راقصة.

نهضت بصعوبة، بسبب سقوطي في الممرّ وعدم وجود أيّ ضوء. انبعثت من كلّ شيء رائحة العرق والقمامة. قرعت الباب، كانت الموسيقا صاخبة لدرجة أنّني لم أكن قادرة على أن أسمع صوت قرع أصابعي. قرعت الباب ثانيةً، سمعت في الداخل صوتَ ضحك وقرع كؤوس وصوت أدوات مائدة. قرعت الباب مرّة أخرى بمزيد من القوة،

فتحت لي نفس المرأة، مازالت ترتدي بلوزة الفراشة الملكية التي كانت ممسوخة عند بطنها دون أدنى جمالية. بدا كلُّ شيءٍ فيها مبالغًا فيه: حجم جسدها، الرائحة الكريهة للعرق والعطر الرخيص، الانطباع الذي خلّفه منظر عضلاتها، أمّا إيماءاتها فكانت خليعة تقريبًا. كانت زوجة المارشال؛ أعلى رتبة في جيش البؤس والعنف الذي دمّر المدينة.

- "أنتِ مُجدّدًا يا بنتي؟ هل أُغمي عليكِ للتو يا حبيبتي؟".

نظرت إليّ من الأعلى إلى الأسفل، وهي تحمل في يدها عصا ممسحة.

- "أنا...".
- "أجل، إذن.. أنتِ ماذا؟".
- "أنا مالكة هذه الشّقة، هذا منزلي، اخرجن الآن وإلا سأتّصل بالشرطة".

"دعيني أرى يا حياتي، هل جعلتك هذه السقطة غبية، أم أنّك غبية بالأساس منذ الولادة؟ نحن هنا السّلطة المخوّلة، نحن السّلطة المخوّلة".

لم يكن في وسعي سوى أن أنظر إلى الفراغ عند الناب المفقود في صفّ أسنانها.

كرّرت: "اخرجن من هنا".

"لا، إن الشخص الوحيد الذي سيغادر هو أنتِ".

تجاهلت كلامها وحاولت النظر إلى الداخل، عندها أمسكتني زوجة المارشال من يدي.

"كوني حذرة يا بنت، أنتِ تعلمين جيّدًا ما الذي يمكن أن يحدث إذا تصرّفتِ بانفعال".

"أريد كتبي، أريد أطباقي وصحوني، أريد أشيائي".

عندها نظرت إليّ بعينين أشبه بعيني العجل، كانتا خاليتين من أيّ ذكاء. وفيما استمرت في الضغط على ذراعي بيدها، رفعت البلوزة التي تساقطت منها بعض الخيوط اللامعة، ورأيت مسدّسًا مُثبّتًا عند بطنها الذي انكشف مثل السجق، بفضل الخيط الشبكي الذي أحاط بخصرها.

"حياتي، أترين هذا المسدّس؟". قالت ذلك وهي تشير إلى فوهته. "إذا ما أردت، فيمكنني أن أضعه في مؤخرتك وأفجّرك برصاصة، حسنًا؟ ولكن اليوم، فقط اليوم، لن أفعل ذلك، إذا ذهبتِ بهدوء ولم تعودي، فعندها لن نزعجك".

"أريد كتبي، أريد أطباقي وصحوني، أريد منزلي، أعيدوها إليّ!"

"هل تريدين كلّ ذلك؟ ستحصلين عليها، انتظري فقط يا أميرتي، ويندي، تعالي إلى هنا".

قدِمت امرأة إلى الباب وهي تجرجر نعليها، وأبرزَ سروالها القصير ساقيها المليئتين بالوشوم.

- "ما الخطب؟".
- "السّيدة هنا تقول إنّها تريد بعض الأطباق وبعض الكتب التي هي ملكك، أحضريها إلى هنا!".

وقفت زوجة المارشال بتحدٍّ، وضعت عصا المسح جانبًا، وشبكت ذراعيها وانتظرت مرؤوستها لتُحضِر أشيائي. تركت المسدّس مكشوفًا، وضغطت بيدها عليه نحو بطنها.

عادت ويندي وفي يديها ستّة صحون.

"ما الذي سأفعله بهذه الصحون؟".

"أعطيني إيّاها، والآن اجلبي الكتب، أسرعي، ليس لدينا اليوم كلّه لكي نمضيه مع الآنسة التي ستغادر فورًا. لماذا ستمزّقين نفسك بعد هذا يا حبيبتي؟".

أعطتني زوجة المارشال الصحونَ وهي تمسكها بكلتا يديها، وعند أوّل نظرة استطعت أن أرى أنّها ناقصة.

- "هذه ليست كلّ الصحون، أين البقية؟".

"ماذا يا ابنتي؟ ما الذي تشتكين منه؟ خذي صحونك يا فتاة". ثمّ بدأت بإسقاطها واحدًا إثر آخر، تكسّر كلّ طبق إلى قطع صغيرة على الأرض الغرانيتية، مصدرة أصواتًا عالية.

"أكنتِ تريدين أطباقك؟ إليك إيّاها".

"سيّدتي، هناك الكثير من الكتب، لا أستطيع أن أحمل كلّ ذلك، سأجلب ما أستطيع حمله". قالت ويندي التي ظهرت عند الباب وفي يديها خمسة أو ستّة كتب.

"دعيها واذهبي إلى المطبخ أيّتها السّيدة الشابة، وتفقّدي ماذا يوجد هناك من أجلنا". توقّفت زوجة المارشال بطريقة استعراضية ونثرت الكتب من يديها. "دعيني أرى ماذا لدينا هنا: خريف ال... ال... بط... ري... بطري...".

- "البطريرك".
- "اخرسي، ماذا تظنّين؟ أنني لا أستطيع أن أقرأ؟".
- "بصراحة؟ لا أعتقد ذلك".
- "حسنًا، انظري يا فتاة، سوف أريكِ، سأقرأ لك قصيدة!".

أمسكت الكتاب من دفّتيه، وفتحته، وشدّته، تمزّق الكتاب بسهولة، وتساقطت الصفحات مثل أوراق الشجر. تراكم الأسى والحسرة في قلبي، ضحكت زوجة المارشال وشخرت: "انظري ماذا أفعل بأغراضك". قالت ذلك فيما كانت تدوس على قطع الصحون المتناثرة. "نحن نقوم بهذا يا حبيبتي، لأنّنا جائعون، جائعون". لقد فصلت مقاطع الكلمة مرّة ثانية، وأضافت إليها تأثير العبارة التي برّر فيها القائد لأولئك السّارقين كي يجذبهم إلى عباءته الانتخابية: "مع وجودي في السلطة لن يسرق أحدٌ أبدًا بسبب الجوع". لقد قال ذلك. "وأنتِ متأكّدة من أنّك لم تُحِسّي بذلك. لا تعرفين يا فتاة ما هو الجوع. إنّه الج-وع يا بنتي". وأطلقت ضحكة أخرى، وبدأت تمرّر يدها على المسدّس.

- "إن هذا المنزل مُلكٌ لنا الآن، لأنّه لطالما كان كذلك، ولكنّك أخذته منّا".

نظرتُ إلى الأطباق، والأوراق الممزّقة، والأصابع الكبيرة ذات الأظفار، والنّعلين البلاستيكيين، وبلوزة أمّي. نظرت إليها ورأيت البهجة على وجهها. مازال هناك مذاق معدني في فمي، بصقتُ عليها، مسحت وجهها من دون أن تتغيّر ملامحها، ثم أمسكت بمسدّسها. كان آخر ما أتذكّره هو صوت الصدمة أمام رأسي.

تناولنا الدجاج المشوي وقطع الذرة. استخدمنا الشوك البلاستيكية والمناديل الورقية القاسية، إنّه غداء مكوّن من الطعام السريع قبل العودة إلى كاراكاس. كان الطقس حارًّا وأصدرت الجنادب أصواتها بجنون، وهي تنادي المطر ليغمر أرجلها المشبعة برائحة غاز البوتان والبنزين وزيت المحرّك ولحم الخنزير المقلي.

- "ألا ترمين تلك البيضة أبدًا، أو حتّى تتناولينها؟".

شخرت أمّي، لن يحدث أيّ شيء لأنّني تركتها لدقيقة على الطاولة لكي آكل بشكلٍ ملائم، باستعمال أدوات المائدة والمنديل.

- "إذا ما تركتُها، فستنزل وتسقط، وسيموت الصّوص الذي في داخلها".
- "لكي يفقس هذا الصّوص، فإنه يحتاج إلى الدفء الذي تُقدّمه الدجاجة، مهما حملت هذه البيضة في يديكِ، فلن ينمو ما في داخلها".
- "أجل سينمو، وسيصبح لديّ صوصٌ أصفر، سترين".

تركت ما بقي من الدجاجة لصقرٍ صغير شرع في تناول قضماتٍ منها. جمعنا الأطباق الورقية ورميناها في حاوية ممتلئة ببقايا خنزير، وحلوى سوداء، وموز مطبوخ، حيث تهافتت الكلاب الضالة عليها من الجوع. مررنا بصفّ من محلّات الخردة ومحلات بيع الحيوانات المحشوة التي غطّاها الغبار والزيت، إضافة إلى أكشاك بيع بطاقات اليانصيب وأشرطة الموسيقا الشعبية. وقفت أمام كشك مليء بالحلوى، هامت الدبابير والذباب حول المارشميلو، وجوز الهند المُعلّب، وسندويتش الجوافة المحلّاة بالكراميل والمغطّاة بورق لفّ السندويش الأسمر.

- "خلال تناولك أيّ نوعٍ من هذه الحلوى، فإن أسنانك الدائمة على وشك البروز، فضلًا عن ذلك، فأنتِ لا تدرين مدى نظافة المكان الذي تمّ إعدادها فيه". قالت أمّي لي هذا فيما سال لعابي أمام قطعة حلوى مُغلّفة بالبلاستيك.
- "أنا لا أريد أن آكلها، أنا فقط أنظر إليها".
- "دعينا نعقد صفقة، إذا ما تركتِ هذه البيضة في مكان ما، فسأشتري لكِ قطعة حلوى، من أكثر نوع تفضّلينه".
- "لن أتخلّى عنها".
- "ليس حتّى لقاء المارشميلو؟ أو وجبة خفيفة من جوز الهند؟ لن تستطيعي أن تقاومي".
- "سأحتفظ بالصّوص يا أمّي".

- "إذا انكسرت البيضة في رحلة عودتنا، فسترين كم سيكون الوضع فوضويًا، سيكون الحال مثل الماعز الذي هرب وأفلت من الحبل المربوط به".

"لا أريد ماعزًا ولا حبلًا، أريد صوصًا".

أخرجت أمّي ورقة مالية من فئة العشرين بوليفار، تلك الأوراق المالية الخضراء القديمة والطويلة، في تلك الحقبة كانت ذات قيمة حقيقية: عشرون بوليفار، لا عشرون مليونًا، ولا حتّى عشرون بوليفار قوي، تلك التي أضافوا إليها الأصفار ثمّ أخذوها من الشعب لكي يتستّروا على مدى ضآلة قيمتها مقارنة بقيمة المال الموجود قبل ظهور أبناء الثورة، كانت تلك الورقة المالية التي أحببتها كثيرًا. كانت العشرون بوليفار تكفي لتناول ثلاث أو أربع وجبات فطور، أو تشتري عدّة كيلوات من أيّ شيء، كانت ثروة.

"أعطيني علبة جوز الهند". قالت أمّي للمرأة التي لا أسنان لها وقد انهمكت في تحميص فطيرة الذرة على الصاج وفي ذات الوقت كانت تدخن سيجارة. أخذت المرأة الورقة المالية ووضعتها جانبًا، ومرّرت يدها عبر جيبها، وشرعت في إنهاء العمل بالكعكة، ثمّ قدّمت الطعام المُعلّب في كيس ورقي بنّي مع المال الباقي، أخذته أمّي ولمست القوس التاجي الذي وضعته على رأسها، أخرجت المرأة السيجارة المبلّلة بلعابها من فمها ونفثت الدخان ووضعتها ثانية بين شفتيها. استدارت أمّي ونظرت إلى السقف، لقد اشترت الحلوى لكي أعدل عن رأيي.

- "إذا ما تركت البيضة قبل أن نستقلّ الحافلة، فسأسمح لكِ أن تأكلي القليل من هذه".
- "لن أتركها".
- "أديليدا، سوف أبادلك بالبيضة قطعة من هذه، أنتِ تحبّين جوز الهند!".
- "لا تحلمي بهذا".

وضعت أمّي الحلوى في حقيبتها، وأمسكت يدي، وشرعنا في السّير نحو الحافلة العائدة إلى كاراكاس. بعد أن انتظرنا دورنا لكي نستقلّ الحافلة، أخرجت أمّي الحلوى، وبدأت تصدر أصواتًا بنهمٍ مبالغ فيه.

"كم تبدو لذيذة، كم رائحتها شهية!".

تمسّكت بموقفي، لم أتذوق الحلوى أو أتخلّى عن البيضة التي وجدتها على الأرض في حظيرة الدجاج في نُزل فالكون. أردت أن أرى البيضة وهي تفقس.

بقينا طوال الرحلة صامتتَين. نامت أمّي المُنهكة وهي تمسك بحقيبتها، أمّا أنا، المالكة المُستبدّة والجالسة كملكة في المقعد بجوار النافذة، فقد أمضيت الوقت وأنا أنظر إلى اليافطات الصغيرة للباعة في الشارع على جانب الطريق: الموز، وثمار اليوسفي، والمنيهوت، وكعكات المنيهوت المجفّفة التي رُشّ عليها دبس السّكر، إضافة إلى الأزهار وصلبان الكنائس المُقامة بشكلٍ ارتجالي لأجل ذكرى أولئك الذين فقدوا حياتهم بسبب حوادث السّير الناتجة عن سوء الطقس. في

تلك البلاد كان الموت يقف مُهدّدًا في كلّ مكان. كلّ مكان يُرسم ويُمحى على طرقاته، على الطرقات المُتّجهة من المحيط إلى المركز. كُنّا ذاهبتين من البحر إلى الجبل، وقطعنا مرارًا وتكرارًا المسافات التي تفصل الناس عن بعضهم، عبرنا الوديان المزروعة بخيزران السّكر وشجر الأباميتس والأراغوني. بقيت ممسكةً ببيضتي الصغيرة والشاحبة، أمسكتها بين يديّ، رُبّما كنت أنتظر أن يتكفّل دفء جسدي وزمن الرحلة في ظهور كائنٍ حي إلى الوجود. استيقظت أمّي عندما توقفت الحافلة عند رصيف محطّة العاصمة، بدت كما لو أنّها شاخت في أثناء الرحلة، نهضت من مقعدها بحركات آلية، سألتني عما إذا كنت أشعر بالعطش أو أريد الذهاب إلى الحمام، أجبت بالنفي. أخذت حقيبتها، وتحقّقت من الأشياء التي حملتها، ثمّ قبّلتني. نزلنا ونحن نجرجر أقدامنا، ونسحب بالحبل أمتعتنا السّرية: الملابس القليلة التي أمكن وضعها في الحقيبة.

استقلينا سيّارة أجرة قديمة ومتداعية من طراز دودج، هناك شقوق في أضوائها الأمامية وانبعاجات في أبوابها، حتّى إنّنا لم نكن ندعوها سيّارات تاكسي إنما سيّارات مجانية. أوصلنا السائق إلى باب المبنى، وحملت أميّ كُلّ شيء بمفردها: الحقيبة الصغيرة والأكياس المليئة بالخوخ. قدّمت أميّ تذكرة مُجعّدة لقاء الأجرة. انتظرنا المصعد، صعد بنا المصعد بهدوء في قلب المبنى السّكني القديم.

حالما أصبحنا في المنزل، اتّصلت أمّي بخالتيّ لتخبرهما أنّنا وصلنا بسلام. من شدّة استحواذ البيضة على تفكيري نسيت أن أعقد

ربّاطات حذائي، لدقيقة، وهو الوقت الوحيد الذي تركت فيه البيضة، وضعتها على طاولة المطبخ، وجثوت على الأرض لأتولّى أمر أربطة الحذاء، وعندما كنت على وشك الانتهاء، سقطت البيضة بقوّة، وتحطّمت بالقرب من قدمي اليُسرى. استحالت إلى آلاف القطع من القشرة ذات اللون البيج. انتشر بياض البيضة على الأرض الجرانيتية، رأيت في المُحّ الأصفر نقطة حمراء صغيرة، تلك الحياة الصغيرة التي كنت سأرعاها بيديّ، لن تظهر إلى الوجود أبدًا.

عادت أمّي إلى المطبخ ورأت الدمار، تحطّم البيضة والانكسار الذي بدا على وجهي. أخذت أمّي جوز الهند المُعلّب من الكيس الورقي الملفوف به، ونظرت إليه باشمئزاز ثم رمته في سلّة القمامة. "سأشغّل سخّان الحمّام، عندما يصبح الماء ساخنًا استحمّي، وسأتولّى أنا أمر البيضة". نظّفت أمّي أرض المطبخ، وذهبتُ لأستحم. فركت جسدي بصابونة خضراء انبعثت منها رائحة الياسمين في حين أزال الماء آثار رحلة الحافلة عن بشرتي، والانتظار الذي لا جدوى منه في أثناء رحلة العودة إلى المنزل.

"حيّة، سوف أخيطك، سوف أخيطك وأنتِ على قيد الحياة".

فور ملامسة الإبرة لبشرتي، أتاني شعورٌ حارق ولاذع، وانهمرت من عيني دموع الألم.

"حيّة، سوف أخيطك، سوف أخيطك وأنتِ على قيد الحياة".

"ماري، إنّني أتألّم، هذا مؤلم، دعيني يا ماري، دعيني الآن!"

"صمتًا، كان عليك أن تُفكّري قبل أن تتصرّفي، لذا اصمتي ودعيني أعمل، سأخيطك وأنتِ على قيد الحياة، سوف أخيطك وأنتِ على قيد الحياة".

قبل أن تُصبح ممرّضة، كانت ماريا التي تقطن في الدور السادس تحلم بأن تصبح خيّاطة بدلات نسائية. كسبت أمها قُوتها من صنع ملابس الأخريات وإصلاحها. خاطت فساتين جميلة لقاء مبالغ قليلة، أخبرتني وهي تمرّر يدها على الخيط الجراحي في عين الإبرة المُعقّمة: "أتعرفين، أردت أن أكون خيّاطة مثل أمّي، أن أضع الحلقة التجميلية في ثوب الزفاف، تخيّلي، لم يكن في ذاك الوقت الكثير من محلّات الخياطة مثل الآن".

- "ماريا، رجاءً، هذا يؤلم!".
- "أتذكرين تلك الشوارع الضّيقة في لا باستورا؟ أتذكرينها أم لا؟".
- "إذا كنت أذكرها، ولكن يا ماريا، هذا يؤلم!".
- "حسنًا، هناك أقامت أمّي مشغلها، وكان لها زبونات دائمات، وخاصّة من العرائس، واللواتي كُنّ يجرّبن الفساتين في اليوم الذي يسبق الاحتفال".
- "ماريا رجاء... رجاء توقّفي الآن!".
- "صمتًا، هدوء يا فتاة، اصمتي وأصغي إلّي، عندما كنت أضع الغرز الأخيرة عند أقدام الزبونة التي كانت ترتدي ثوب الزفاف، كانت أمّي تردّد وتقول: لتعيشي طويلًا لكي

أخيطك، سوف أخيطك ما دمت على قيد الحياة، لماذا كانت تقول ذلك؟".

- "ماريا، دعيني".
- "صمتًا، هدوء يا فتاة، أصغي للقصة، إنّها قصّة جيدة".

كانت أمّي تقول إذا ما كنت تحيكين قطعة ثياب لأحد ما وهو يرتديها، فسيموت الناس، إنّها أشياء يؤمنون بها في قريتي، لذا عندما أتسبّب بألمٍ ما لأحدهم، أردّد دائمًا هذه العبارة: "فلتحيَ طويلًا لكي أخيطك، سأخيطك وأنت على قيد الحياة". وسيزول كربك، لأنّنا لن نمزّق رأسك لكي نخيطه مرّة ثانية، صحيح؟".

- "ماريا، هذا يؤلم..."
- "خذي هذه وعضيّ عليها بأسنانك، لأنّ ما سأفعله الآن سيتسبّب لكِ بألمٍ كبير". ثمّ غرزت الإبرة الجراحية في بشرتي. "سأخيطك وأنتِ على قيد الحياة، سأخيطك وأنتِ على قيد الحياة، ها قد انتهينا، لقد عاد رأسك وكأنّه جديد!".

إذا أردتُ أن أعيش فعليّ أن أبقى صاحية، ومتيقّظة. أمّا ماريا التي أصرّت على أن أبقى في منزلها وأتّصل بخالتيّ، اللتين رأفةً بهما لن أذهب إليهما بهذه الحالة، فقد جعلتني أشرب ماءً حلوًا بغضّ النظر عن الغلوكوز الذي روى دماغي، وقد كان عليّ أن أتمسّك بإطار الباب قبل أن أخرج.

- "إلى أين أنتِ ذاهبة يا فتاة؟ ما الذي ستفعلينه؟ ابقي هنا".

- "أنا بخير".
- "لا، أنتِ لستِ بخير، إلى أين ستذهبين؟".
- "إلى الشرطة".
- "إلى أيّة شرطة ستذهبين أيّتها السّيدة الشّابة؟! ستواجهين ما هو أسوأ، ابقي هنا الليلة، واتّصلي غدًا بخالتيكِ وغادري في الحال، لا تفكّري حتّى في قتال هؤلاء الناس، اذهبي إلى أوكامار، ارحلي، سيأتي المزيد غدًا، ولكن إذا اتصلتِ بالشرطة فسيأتون في غضون ثانية، ألم تفهمي أنّ هؤلاء الناس هم الذين يحكمون؟ ألم تدركي هذا بعد يا فتاة؟".
- "ماريا، لا أدري كيف أردّ لك صنيعك، سأجد طريقة".
- "أنتِ لا تدينين لي بشيء، ولن تردّي لي شيئًا، أنا فقط أقول لك أمرًا واحدًا، لا تبقي هنا".
- "سأحاول أن أجد حلًّا لكلّ هذا".

"ابقي الليلة، وبإمكانك الذهاب غدًا إلى أي مكان، رأسك مُصاب، انتظري على الأقلّ حتى يزول الألم، لديّ غرفة شاغرة، نامي عندي الليلة، واذهبي غدًا وافعلي ما تشائين، ولكنّني أخبرك، لن يتّخذ أيّ أحد أيّ إجراء ضدّهم وسينتهي بنا الحال بتلقّي اللوم دون ذنبٍ اقترفناه. إن هذه الحرب خاسرة سلفًا يا فتاة، سيأتي المزيد من الأوغاد والمجرمين أيّتها السّيدة الشابة. سوف نعيش مع مزيدٍ من الخوف مِمّا هو لدينا أصلًا".

- "وماذا أيضًا؟".
- "افهمي يا أديليدا، لن تكون هناك حدود، لن نعرف أبدًا ما هو الحد الذي ستصل إليه هذه المأساة، ابقي عندي".
- "ماريا، شكرًا على كلّ شيء، ولكنّك لم تُقنعيني".
- "لا تذهبي إلى الشّرطة، افعلي ما تشائين ولكن لا تُبلّغي عمّا حدث".
- "وداعًا يا ماريا".

نزلت الدرج إلى الطابق الخامس، وتوقّفت عند الباب المغلق لشقّة أورورا بيرالتا، تفقّدت وجود ضوءٍ في الداخل من تحت الباب، أو أية حركة أو ظلال، مُجدّدًا لم أرَ شيئًا. وقفت أمام الباب الخشبي المدهون بالأبيض، وتفقّدت القفل، لا يوجد أيّ آثار لفتح بالقوّة، وضعت يديّ على المقبض... وحدثت مُعجزة، لم يكن من الضروري أن أدفع الباب، فقط أدر المقبض وادفع الباب. دخلت بسرعة وأغلقت بهدوء، كانت نافذة الرّدهة لا تزال مفتوحة، وأتت عبرها ريحٌ كريهة مُحمّلة برائحة الرصاص والقتال. نظرت إلى غرفة الجلوس التي بدت شبيهة جدًّا بغرفتنا، ثم رأيتها؛ كانت أورورا بيرالتا مُمددة على الأرض، عيناها مفتوحتان وشفتاها أرجوانيتان. لم أدرِ ما هو الأسوأ، الألم الذي في رأسي، أم الخوف الذي اعتراني لرؤيتها هكذا، أم الخوف من أفقد زمام نفسي وأطلق صرخة هيستيرية؟

همست لها، وأنا أضع يدي على رقبتها لأتحقّق مما إذا كان هنالك نبض: "رويدًا! رويدًا! أنا جارتك!".

كانت مُتخشّبة وباردة، شعرت بالاشمئزاز والشّفقة في الوقت ذاته. أحسست بالقيء يصعد إلى حنجرتي مثل أفعى، هرعت إلى المغسلة بجوار المطبخ الذي كان مُماثلًا لمطبخنا، وتقيّأت العصارة الحامضة. عدتُ إلى غرفة الجلوس، وشعرت بساقيّ غير قادرتين على حملي، نظرت إليها من بعيد. كانت بيرالتا الميّتة جثّة باردة أخرى من الجثث التي قطنت في مدينة الأشباح تلك. وجدت على الطّاولة طبقًا وضعت فيه البيض المكسور حيث فاجأها الموت كأنّه عاصفة ثلجية.

أوحى أثاث الغرفة المُنجّد أنّه لا تزال هناك حياة هنا. لقد جعلتني هذه الصّورة أشعر بالرأفة والشّفقة اللتين لم أشعر بهما سابقًا في حياتي. رأيت أمام الجسد الميّت لأورورا بيرالتا الفاصل الرفيع الذي، ولقرابة ثلاثين عامًا، وضعنا جانبي الجدار نفسه. كان منزلها بجوار منزلي، واتّخذنا مسارين متعاكسين خلف الجدار نفسه. كانت أورورا بيرالتا جثّة هامدة وكنت أنا أديليدا فالكون ناجية. لقد ربطتنا معًا قصّة خفية، حبلٌ سرّي مُفاجئ بين الميّت والحيّ. هرعت لكي أبحث عن شيء ما أغطّيها به، أردت أن أغطّي هاتين العينين اللتين كانتا تنظران إليّ من العالم الآخر. فتحت الأدراج وبحثت عن ملاءة، أو منشفة، أو غطاء طاولة كبير بما يكفي لكيلا تظهر أطرافها من تحته. عثرت في الخزانة الرئيسة على شرشف أبيض. أغلقت عينيّ عندما غطّيتُها به كي لا تتلاقى نظراتنا. وقفت ودرت حول جثّتها لكي أتفحّصها، ثمّ ألقيت نظرة على المكان.

سوف يخبرني الأثاث بما غفلت عنه. هل قتلوها؟ هل ماتت جراء نوبة قلبية؟ كان كلّ شيء مربكًا وسريعًا. هناك أمرٌ وحيد أنا مُتيقّنة منه: كانت هي ميتة، وكنت أنا على قيد الحياة. من سيتساءل الآن عن موت أورورا بيرالتا؟ هل هناك أحد ما بانتظارها؟ هل سيفتقدها فردٌ من العائلة، أو صديق، أو حبيب؟ أم أنّها فعلت مثلي؛ سمحت للنسيان أن يسحبها إلى الحدّ الذي لن يلاحظ فيه أحد غيابها؟ هناك على الطاولة ثلاث بطاقات: اثنتان مفتوحتان وواحدة مختومة بالقرب من هاتفٍ خلوي فرغ شحنه ومجموعة من المفاتيح التي لم تستعملها لكي تُغلق الباب. لا بُدّ أنّها دفعتها في الباب بضربة واحدة من دون أن تُغلق المزلاج الرئيسي الذي سوف يستعمله أيّ شخصٍ ذي عقل يعيش في مدينة مثل هذه، مِمّا أتاح لي أن أدخل بمجرّد إنزال مقبض الباب.

ما هي الضرورة المُلحّة التي فاجأت هذه المرأة لكي تترك كل شيء وتشرع في كسر البيض؟ هل قتلتها زوجة المارشال وتابعاتها؟ هل حاولن الدخول وغادرن المكان عندما وجدنها ميّتة؟ لماذا احتللن شقّتي وتركن هذه الشّقة؟ عدت أدراجي لكي أتفقّد المكان، ولكن لم أجد أيّة آثار لحدوث عنف، أو حتّى الفوضى التي يخلّفها اللصوص عند بحثهم عن المال أو المجوهرات. بدا أنّ كلّ شيء موجود في مكانه، بالطبع مع إغفال وجود امرأة ميّتة على الأرض. بقي نور المطبخ مُضاءً طوال الوقت، شعرتُ بالذّعر، جعلني الخوف أشعر بالعطش والملوحة، إلحاح رغبات بغضّ النظر عمن كان

موجودًا هنا، أبقى وأرحل في ذات الوقت، ولكن إلى أين؟ لم يعد لي مكان لكي أعيش فيه. استبعدت خيار الذهاب إلى الشرطة وقرّرت أن أنتظر في ذاك الملجأ. فكّري يا أديليدا فالكون، فكّري.

انبعثت من المكان الذي كان منزلي حتّى وقتٍ قريب أصواتُ خطوات، حتّى إنها كانت أكثر حدّة مِمّا كنّا نصدره أنا وأمي عندما كانت أورورا بيرالتا على قيد الحياة. بإمكاني أن أميّز الهراء الذي تقوله ويندي، ضحكات زوجة المارشال، حركة أولئك اللواتي استولين على المكان، الضجّة الرتيبة والصاخبة لأغنية (تو-تومبا-لا-كاسا-مامي، جريف-لا-كاسا-مامي، تومب-ذا-هاوس-مامي). إنّها الموسيقا التصويرية للكابوس التي استمرّ حتّى وقتٍ متأخر من الليل، إلى أن رنّ هاتف منزلي بإصرار، حين ردّت عليه إحداهن وتحدثت لمدة عشرين دقيقة متواصلة. من سيبحث عنّي ولأجل ماذا؟ تبدو ساحة ميراندا بشكلٍ أفضل من هذا القسم من البرج السكني.

أتت دورية نساء جديدة لكي تحلّ محل الدورية المرابطة. كنّ أكثر قوّة حتّى من زوجة المارشال وعشيرتها. كانت ماريا على حقّ: لن يتطلّب منهن الأمر شيئًا لكي يستولين على الشقق الأخرى، سواء كانت مُلكًا لهن أم لا. أتت مجموعة دراجات نارية جديدة من المحاربين بصحبة دورية النساء. أصابهم إرباك لزمنٍ قصير، فقد قاتلوا ضدّ مجموعة من الفتية الذين أحرقوا الشعارات المثالية للقائد الأبدي. سرعان ما أتى موكب للشرطة العسكرية وثُلّة من الرجال

المسلّحين. رأيتهم يصلون، رجال صاخبون ومتعطّشون للدماء. أردت أن أصرخ، أن أحذّر الفتية لأنّهم كانوا كثيرين، إلّا أن صوتي خانني، تحرّك راكبو الدراجات المسلّحون واتّخذوا مجموعتين من المتاريس: سقط اثنان من الفتيان النحال على الأرض، إنّهما يستلقيان على الإسفلت وأحدهما يتشنّج ويبصق الدم من فمه، كما لو أنّه ثور أصيب بطعنات بالغة. عدت إلى الغرفة، وأخذت الرسالة المختومة التي بقيت على الطاولة؛ كانت رسالة من القنصلية الإسبانية في المدينة. حاولت قراءتها من الخلف إلّا أنّ ذلك كان مستحيلًا. تركتها وانتقلت إلى الرسالتين المفتوحتين: إحداهما كانت فاتورة كهرباء، أمّا الأخرى فكانت رسالة عليها ختم حمل ألوان العلم الإسباني، إنّها رسالة من الحكومة الإسبانية تطلب فيها تأمينًا على الحياة من جوليا بيرالتا؛ والدة أورورا، لكي تجمع راتبها التقاعدي. بحسب ما أعرف فقد ماتت تلك السّيدة منذ خمس سنوات. طويت رسالة القنصلية الإسبانية وطلب التأمين على الحياة ووضعتهما في سروالي، أخذت المفاتيح، وأغلقت الباب. كانت أورورا بيرالتا ميّتة، ولكنني لا أزال على قيد الحياة.

لم يسبق لي أبدًا أن شاهدت ولادة. لم أرَ ولادة أو ألِد أيّ طفل من قبل، لم يسبق لي أن هززت أيّ طفل بين ذراعيّ، لم أروّح عن أيّ أحدٍ يبكي باستثنائي أنا، لم يسبق أن وُلِد أطفالٌ في عائلتي، كانوا يموتون، أجل، أولئك النساء المهملات في فراش المسؤولية، كُنّ يحكمن على الرّغم من أنّهن عند طرف القبر، مثل شخصٍ ما يموت عند حافّة بركان. ولم أستطع أن أفهم أنّ الأمومة بصفتها موقفًا يمكن أن تكون مختلفة عمّا كان قائمًا بيني وبين أمّي: علاقة قائمة على الإدارة والحكم الجيّد، شكل من الحب الحريص الذي أبدى نفسه من خلال العالم المتوازن الذي شكّلناه معًا.

لم يكن لديّ أي وعي أو مقياس للولادة إلى أن جاء اليوم الذي أخذتني فيه أمّي لأرى لوحة أرتورو ميشيلينا؛ وهو الرّسام الوحيد الذي أعزو إليه المعارك، الذي وضع أمامي دليلًا لا يُدحَض عن النور الذي يُهذّب، ويثقّف، ويكشف المجهول، ويعطي سببًا للخوذة المظلمة التي في أسفل البطن. لقد جعلتني لوحته عن الأمّ الشّابة أتسأل للمرّة الأولى عمّا يعنيه الحمل بجنين.

كنت في الثّانية عشرة من عمري وتلك اللوحة تجاوز عمرها المئة عام، رسمها ميشيلينا في عام 1889، عاش عصره الذهبي في باريس، وفاز بعدّة جوائز في العديد من الصالونات الفنّية الرسمية، حتّى إنّه تلقّى ميدالية في المعرض العالمي، وهو نفس المعرض الذي بُنِي لأجله برج إيفل. كان ميشيلينا رسّامًا أكاديميًا، وأمميًّا معتدلًا، شخص أبعد ما يكون عن فهم صالون الرفض، ولكنه ألقى الضوء على وديان فالنسيا في فنزويلا، باعتبارها الوحيدة التي تم تدريسها ضمن المناطق المدارية السّاحرة. إنّه الضوء الذي يحرق كلّ شيء.

وقفت أمام اللوحة كما لو أنّني أكتشف حقيقة جليّة: إن الأمّهات يشتملن على الجمال والتجدّد معًا. لم أكن أعلم شيئًا عن إيما بوفاري أو آنا كارنينا، وتجاهلت حالات الانتحار غير المقنعة بالطريقة نفسها التي لم أعرف بها أولئك الشعراء التعساء الذين جعلوني قارئة. لم أقرأ ميو فيستريني وكتابه *أوامر للقلب*، ولم يكن لديّ أيّ علم بكتاب *دمار البيت أو الذئب* تأليف يولاندا بانتين، أو كتاب *الغلاف الجلدي للحفلة* تأليف إيلزا ليرنير. كان أحد الكتب القوية التي قرأتها تيريزا المنبوذة، ولكن من دون أن أعي الملل الذي دفع تلك السّيدة من كاراكاس لكي تقرأها. لم أعِ حتّى أولئك النسوة الكبيرات اللواتي وشمْنَ في حياتي كالتزامات وذمم، وحتّى أمام لوحة ميشيلينا فقد اكتشفت المرأة التي حملتني في بطنها. لم أكن شجاعة، ولكنّني أردت أن أكون كذلك.

لم تكن أمّي جميلة، ولكنّها ابتغت سلاسة الإبداع مثل اللوحة التي تعرض المرأة أمامي. لقد كان ميشيلينا هو من دفعني لأرى نفسي في المرآة، إنّه هو من أثار النبضات في جسدي من خلال لوحته عن الأم الشّابة التي استلقت في كرسيها الهزّاز، امرأة حوراء جميلة كأنّها مأخوذة من لوحة المغازل الدّوارة، حملت بين يديها طفلًا كبير الحجم، وأبيض البشرة، ومُعاق بالنسبة إلى تلك البلاد التي عوقبت بالجوع والحرب.

عند النظر إلى اختلاج الأوراق المنعكسة في اللّوحة، الكاشفة للظلال المُزيّفة التي خلقتها لوحة الألوان للرسّام، تفحّصت الصّورة الظّلية الريّانة لتلك المرأة والغروب البطيء الذي أنار اللّوحة. إذا كانت المعرفة هي تغيير جهل المرء، فقد أدركت في ذاك الصّباح أمرًا جديدًا: التأثير الغريب للجمال الذي ينبعث من الأمّهات، الكائنات العطرة الغامضة، النساء اللواتي يُشرِقن في ضوء الصّباح.

سرت وأمّي عبر حديقة لوس كاوبوس، ذات الطرقات المُشجّرة على الطراز الفرنسي، وهي الحديقة الأشهر في العاصمة من تصميم المهندس الكاتالوني مارجال في فترة الخمسينيات من القرن الماضي. أتينا في مهمّة لبيتر والذئب في خوسيه فيليكس ريباس تيريزا كارينو؛ وهو أكبر مسرح في فنزويلا. إن المكان عبارة عن جزيرة أرادت أن تكون مُتفرّدة بذاتها في هذه البلاد. توقّفنا عند أحد أشهر أعمال النحّات فرانشيسكو نارفيز لكي ننظر إلى منحوتاته التي صوّرت نساء رائعات الجمال، ومنها الأحجار المنحوتة محلّيًا التي شكّلت تمثال

الإلهـة ماريـا ليـونزا. وبشـكلٍ مخـالف لهـذه المنحوتـة، فقـد بـدت المنحوتات الأخرى أكثر صرامةً وحزمًا.

إنّه المكان الذي شكّل جزءًا من مـوطن النحّـات، النحّـات الـذي صوّر جزءًا من تراث فنزويلا، وقد أطلّت أعماله على مرآة مائية كبيـرة شكّلتها البحيرة الموجودة، التي عامت فيها أغلفـة الحلـوى، وأكيـاس الشـيبس الباهتـة، والأعشـاب المائيـة التـي بـدت كمـا لـو أنّهـا حسـاء الأعشاب المخفوق.

سألتني أمّي: "هل أحببتِ معرض الفن الوطني؟".

"أمممم...". أجبتها في حين أنني كنـت أمـصُّ قشّـة الشـرب بقـوّة من علبة عصير الخوخ الصغيرة مـن ماركـة تيـترا بريـك التـي أعطتنـي إيّاها من حقيبتها.

"ما هو أكثر ما أعجبك؟". لا يزال سـؤالها في ذهنـي، نظـرت إلـى التماثيل التي نحتها نافيز ذات الصدور المبالغ في حجمهـا، ثـمّ نظـرت إلى حذائي الأبيض الممتلئ بالشقوق.

- "أمي".
- "أيًّا من المنحوتات؟".
- "منحوتة ميتشيلينا..."
- "المعدنيـة؟ ظننـت أنّـك أحببـتِ تراكيـب سـوتو النفّـاذة أو منحوتات كروز-ديز".
- "إنّهـا جميلـة، أجـل، ولكنّنـي أحببـت تلـك ذات الـرداء والعريشة".

- "آه، بالطبّع". أجابت أمّي بتعال: "ذات الرداء الوردي، صحيح؟".

كنت صامتة، أسكب الكلمات في العصير القليل الموجود في العبوة، أحببتها لأنّها تهزّ ثوبها.

- "التي تهزّ ثوبها؟".

- "أجل". وأخذت رشفة أخرى من العصير "إنّها تتحرّك، تهتزّ، إنّها حقيقية وليست حقيقية، أتدركين ذلك؟ إنّها موجودة وغير موجودة، تتحرّك ذهابًا وإيابًا، إنّها لوحة، إنّها على قيد الحياة".

حدّقت أمّي إلى بحيرة حديقة لوس كاوبوس. بدأت الجنادب تتمرّن على إحداث جلبة الجفاف المعتادة، كما لو أنّها ستُخطئ غدًا، بصوتٍ سخيف، مثل ثمالة يوم الأحد. سرنا في الطّريق الرخامي الذي كان سليمًا من التخريب والعبث، كما لو كان مكانًا لتأخذ فيه قيلولة. فتّشت أمّي في حقيبتها، وأخرجت عبوة المناديل الورقية، وأعطتني إيّاها لكي أُنظّف فمي.

- "ولماذا أحببتها؟".

أجبت من دون أن أعطي تفسيرًا إضافيًّا: "عندما وُلِدت، هل كُنّا نبدو هكذا؟".

- "وماذا أيضًا؟".

- "كما في تلك اللوحة: كبيرة، زهرية، أتعرفين، مثل هذه، مع هيئة أشبه بالكعكة الإسفنجية".

- "أجل يا بنتي، كُنّا نبدو هكذا". أبدت أمّي إيماءة، وبدأت تهزّ تنّورتها، وأغلقت حقيبتها، وأمسكت يدي.

في داخل تلك الوحدة العميقة للحديقة المليئة بتماثيل نساءٍ فاتنات الجمال والأشجار، بدأ شيء ما في تلك البلاد يفترسنا أحياء.



فكّرت في جميع المخارج الموجودة في موقف السيارات، إضافة إلى مكبّات القمامة والمسارات إلى الشوارع الأقل ازدحامًا. كنت بحاجة إلى أن أتخلّص من جثّة أورورا بيرالتا من دون أن ألفت الانتباه. إذا كنت أريد أن أتّخذ من شقّتها ملجًأ لي، فلا يمكنني أن أرتكب الأخطاء. استبعدت خيار إخطار الشّرطة، من المحتمل جدًّا أن ينتهي بي الحال في السّجن على أن يصّدق أحدٌ روايتي. انتظرت حتّى العاشرة ليلًا. اكتسحت رشقات الرصاص الشارع، كانت الممرّات فارغة، بقي السّكان حبيسي منازلهم، وقد تملّكهم الذعر والخوف من المصير الذي قد يلاقونه. غادرت زوجة المارشال وقوّاتها حصنهن منذ ثلاث ساعات للانضمام إلى المشاجرة في شارع أوردانيتا.

قتل المسلّحون التابعون لأبناء الثورة مئة من المتظاهرين الملثّمين الذين خرجوا للتظاهر ضدّ الحكومة: أشخاصٌ خرجوا في مظاهرة لكي يموتوا، لأنّ الجوع والغضب معًا يشكّلان سببًا وجيهًا وكافيًا للموت. تلك هي اللحظة المناسبة، ليس بإمكاني أن أفوّت هذه

الفرصة التي وفّرتها لي الفوضى وحالة اليأس لدى الآخرين. كان جرّ جثّة أورورا بيرالتا عبر الممرّ أكثر تعقيدًا بكثير مِمّا هو متوقّع، كما لو أنّ وزنها البالغ ستين كيلوغرامًا أصبح طنًّا. لم أكن أدري ما هو أسوأ: وزنها أم تخشّب جسدها.

ضغطت على زر المصعد، استطعت أن أسمعه يتحرّك بصعوبة على العوارض المعدنية. شعرت أنّه يصعد بشكلٍ أبطأ مِمّا هو معتاد في مساره في أحشاء المبنى القديم. عندما فتحت الباب، أدركت أن المقصورة صغيرة للغاية. لم يكن بالإمكان إدخال جثّة أورورا بيرالتا وهي مستلقية على الأرض عند قدميّ. كانت أطرافها مُتخشّبة كما لو أنّها خطّافات ولم يكن بالإمكان ثنيها أو تغيير موضعها. شعرت بأن صدغي يختلج، وبدأت يداي بالارتجاف. كنت أضع قطعة قماش مُتشرّبِة بالكحول على وجهي وأتنفّس بصعوبة، أمّا القفّازات البلاستيكية التي وضعتها في يدي فقد جعلت أصابعي تغلي، أحيانًا يراودني ذاك الشعور أنّه لم أكن أنا من قام بكلّ ذلك. واقفة ومنهكة أمام باب المصعد المفتوح والجثّة مستلقية عند قدميّ، أريد أن ألتمس طريقًا للخروج. كان جرّها في الطابق الأرضي أسهل طريقة لكي يكتشف أحدٌ ما أمري، وليس باستطاعتي أن أبقى منتظرة في الرواق بصحبة الجثّة.

بدت الأعمال الخارقة الاثنتا عشرة لهرقل مجرّد هواية أمام ما أواجهه. جالت في بالي فكرة واحدة فقط وقد تمسّكت بها: إن الأمر الوحيد الذي يمكن أن يبقيني على قيد الحياة هو تلك المرأة الميّتة.

عليّ أن أقوم بالأمر على نحوٍ مُتقن إذا ما أردت أن أجد مأوى. دفعت جثّة أورورا بيرالتا إلى الشّقة مجدّدًا، وما زاد من صعوبة الأمر هو تغيير اتجاه جثّتها على نحو تكون فيه ساقاها باتجاه الباب. استغرقت محاولة التخلّص من جثّتها ساعة كاملة دون أن أبرح المكان الذي بدأت منه.

غرست أصوات الرصاص والانفجارات والمعارك الشجاعة في نفسي، ملأت رئتيّ بالهواء بقدرِ ما أستطيع. فكّري يا أديليدا فالكون، فكّري، اليأس يولّد العبقرية. حدّقت في ظلام الشّقة، هناك طاولة عليها آلة خياطة بالقرب من الشرفة، مِمّا كشف عن خيارٍ عمليّ أكثر. إذا كان الرجال والنساء يقتلون بعضهم بعضًا في الشوارع، فأين الغرابة في أن تسقط جثّة من الطابق الخامس؟ إنّها تُمطِرُ أشخاصًا موتى، بالطبع فإن هذا في حالتي ليس مُجرّد استعارة.

حرّكت الأثاث حتّى أصبح قريبًا للغاية من النافذة على الدرابزين، استغرق منّي رفع جثّة أورورا بيرالتا عن الأرض أكثر من نصف ساعة، رفعت جسدي على الكرسي لكي أكتسب عزمًا لأضعها على الطاولة، أدّى السطح الأملس للطاولة وظيفة وعاء تحريك الجثّة، وضعت وجهها للأسفل، أمّا قدماها فكانتا مُتخشبتين كما لو أنّهما كلّابتان. أضفى عليها تيبّس الجثّة مظهرًا أشبه بالبهلوان الحزين. دفعتها، وأنا أضغط كليتيّ، كما لو أنّني بدلًا من رمي جثّة ألِد طفلًا. كانت تغنّي أمّي: "آمنت الأم أن ابنتها كانت المرأة التي ولدت طفلًا عند نافذة صغيرة". في واقع الأمر فإن ذاك هو جوهر الأمر:

الولادة. عندما اجتاز خصر أورورا بيرالتا إطار النافذة، انثنى جسدها بفعل وزنها الذاتي. رأيت ساقيها وهما تختفيان في الهواء: كتلة عارية من الحياة والكرامة. لم أكن مذنبة، لستِ مذنبة يا أديليدا. كرّرت ذلك وأنا أجلس القرفصاء على أرض الشرفة.

ثقب صوت الدراجات النارية لأبناء الثورة أذنيّ، ودوت أصوات التهديدات والصراخ مثل الخردق. "اقتله، اقتله! اقتل ذاك الكلب! صوّر ذلكّ! صوّر ذلك! إنّهم يبعدونه! اقتله!". لم أسمع صوت ارتطام جثّة أورورا على الرصيف بفضل ذاك الدويّ. أردت أن ألقي نظرة، ولكنّني بقيت مختبئة، ويملؤني العرق والعار. مازالت تؤلمني القطب التي وضعتها ماريا في رأسي. شعرت بالحرارة في وجهي، أحسست بتيّارٍ من شيءٍ كريه يصعد عبر عنقي: شيء ما مُتراصّ وذو قوامٍ صلب. لقد بلغت الأمور حدًّا جعل كلّ محاولة لتصحيح ما حدث فعلًا حلولًا وسط لما سوف يحدث بعد ذلك. لم أقتلها، ولكنّ ذلك لم يعنِ أنّني لن آكل من القمامة.

أردت فقط منزلًا، مكانًا لأنام فيه، ومساحة لأعيد تنظيم مسار حياتي وأنظف قذارة جسدي بحمامٍ من الماء النظيف لكي يقوم الماء بمهمّته، ليغسل طبقة الأوساخ التي تشكّلت ويزيلها، كما لو أنّها بشرة ثانية لي. إذا ما أردت ذلك فعليّ أن أسرع. لم يكن بإمكاني أن أترك جثّة أورورا بيرالتا عند بوّابة المبنى، بإمكان أيّ أحد أن يتعرّف إليها. رأيت حاوية شبّت فيها النار على بُعد عشرين مترًا من الباب. إذا تمكّنت من جرّها إليها، فلن يكون هناك أي أثر لقصّتها، مجرّد جثّة

أخرى في المدينة، جثّة إضافية. ألا يظهر أشخاصٌ مقطّعو الأوصال في الحقائب ومكبّات القمامة؟ كم من الجثث الملفوفة التي لم يتعرّف إليها أحد، أو يطالب بها أحد، وقد انتشرت في أرجاء المدينة؟ الناس يموتون وذلك كلّ ما في الأمر.

لم أدرِ ما إذا كنت سأترك القميص المبلّل بالكحول على وجهي، لأنّني كنت بحاجة إليه لأواجه الغاز المُسيّل للدموع. إذا نزلت إلى الشارع ووجهي مُغطّى، فستشير هيئتي إلى أنّني قد اتّخذت طرفًا في ما يجري: الطرف الخاسر بالطبع. وضع أغلبية المتظاهرين قطعًا من الثياب على وجوههم، لكي يقاوموا الوقوف لساعاتٍ وساعات بين دخان الغاز اللاذع. كان الأمر كما لو أنّه الزي الموحّد للذين يتلقّون العقوبة: إنّه بمثابة مغناطيس للرجال المسلّحين الطلقاء في الشارع.

أزلت قطعة القماش في الدقيقة الأخيرة قبل أن أخرج إلى الشارع بأقصى سرعة. حالما وصلت إلى باب المبنى، أحرقت نفحة من الغاز اللاذع حنجرتي. هناك وجدت أورورا على الإسفلت وقد تهشّم رأسها، كان من الصعب التعرّف إليها، شكّل دخان الإطارات المشتعلة وغاز الفلفل طبقة دخانية سميكة، غشاوة مثالية للتحرّك بسرعة. جرجرت الجثة إلى الإطار المشتعل بالقرب من النار. كان وبطريقة ما على مسافة أبعد مِمّا قدّرت، عثرت في طريقي على زجاجة مليئة بالبنزين، قنبلة مصنوعة منزليًا لم يملك أحد عاثري الحظ الوقت الكافي لرميها. سكبت البنزين على جثّة أورورا، وسحبتها بقوّة

من كاحليها وتابعت حتّى وصلت إلى المتراس، التقطت ثيابها النار. شعلة سان خوان في شهر نيسان، عاد إلى ذاكرتي ذاك المقطع الشعري من أغنية كانوا ينشدونها في أوكامار وتشوروني في الثالث والعشرين من شهر حزيران من كلّ عام. الرسالة النموذجية التي كنت أسمعها في قاعة نُزُل فالكون: "حتّى تلك الرصاصة لم تُصدِر صوتًا، لن أغادر من هنا أيّها المتراس...". كرّر الزنوج في القرية تلك الأغنية فيما كانوا يقرعون الطبول، وهزّ حشدٌ من الرجال والنساء أردافهم المتعرّقة بين أبخرة الكونياك.

كانت خالتاي كلارا وإيميليا تردّدان كلمات الأغنية بملل فيما يرقص الجميع معًا على الشاطئ في فوضى عارمة وهم سُكارى، جنبًا إلى جنب، مُتشنجّين مثل اليرقات، ويهزّون تمثالًا خشبيًا لقديسٍ على الشاطئ. على بُعد بضعة أمتار، اسُتنفِد جسد أورورا بين النار والرصاص، ركض الناس من جهةٍ إلى أخرى كما لو أنّهم زنوج في مستوطنة للأفارقة على حدود البرازيل هربًا من البارود وجنون الموت. نحن هنا نرقص ونمرّر أيدينا على الموتى، نحن نتعرّقهم ونلفظهم مثل الشياطين والبراز. سوف يوقفون ملء الخزّانات القذرة تلك، طالما أن القمامة تحترق بسهولة، كما لو أنّنا مصنوعون من مواد رخيصة. "إلى أن أسمع صوت الرصاص، لن أغادر من هنا أيّها المتراس". تركت أورورا بيرالتا تحترق بمفردها وهربت، عندما أوشكت على الوصول إلى باب البناء أسقطني شيء ما وارتطم خدّي بالأرض، حتّى إنّني شعرت كيف احتكّت بشرة جلدي بالإسفلت.

ظننت أنّني انزلقت بسبب الزيت الذي رشّوه على الرصيف للإيقاع بأولئك الهاربين، لكن أدركت أن أحدًا ما هو من أسقطني ويضغط بوزنه على وركيّ، مانعًا إيّاي من التحرّك. "اثبتي في مكانك يا فتاة! اثبتي في مكانك! ما الذي تفعلينه؟ إلى أين أنتِ ذاهبة؟".

حاولت أن ألتفت، لكن ذاك الشخص لم يدعني أبتعد وبقيت مكاني على الأرض، لم أستطع أن أرى وجهه أو أن أخمّن لأي طرف ينتمي، سواء كان يتظاهر ضدّ الحكومة أم الحقبة التي تسود فيها. بدأت أتحرّك تحته في محاولةٍ للتخلّص منه.

- "ما الذي تفعلينه يا فتاة؟".

أيًّا كان ذاك الشخص فيبدو أنّه لا يريد أن يضربني، على الأقل ليس في البداية.

- "ما الذي أفعله إذن؟ أنا أدافع وأقاتل مثلك".

تمكّنت من الالتفات ومواجهته.

- "تقاتلين؟ أنتِ؟ ضدّ من؟ ضدّ ماذا؟".

كان وجه مهاجمي مغطّى بأحد تلك الأقنعة التي يضعها أبناء الثورة، نظرت عيناه إليّ من خلف قناع التخفّي الأسود المرسوم عليه عظم فك من جمجمة. بدأت رائحة اللحم المحروق تنتشر في الهواء. كان يعتصرني بين قدميه ويثبّتني بيديه، مثل الصّياد. حاولت أن أبقى هادئة. ثمّ ضاعفت جهودي للتخلّص منه، هززته وضربته، وحاولت إبعاده عنّي إلى أن تدبّرت أن أفلت أحد ذراعيّ، وضربت كيفما اتّفق، وفي النهاية أمسكت قناعه بأظافري. سحبتُ القناع بقوّة إلى أن

انكشف وجهه. لم يمانع، وحتّى لم يقاوم. تركني لدقيقة، من دون أن يُحرّك عضلة من وجهه. إذا كان هنالك إلهٌ للأنذال فيبدو أنّه كان إلى صفّي. عرفته على الفور؛ كان سانتياغو شقيق آنّا.

- "سانتياغو، أهذا أنت؟".

لم يجبني.

- "أختك تبحث عنك مثل المجانين".
- "صمتًا! اختبئي وافعلي مثلما أخبرك! استمرّي في توجيه الضربات والمقاومة، حسنًا؟".

غطّى وجهه مجدّدًا بالقناع واقترب من أذني وقال:

- "أين يمكنني أن آخذك لكي أُخرجك من هذا المكان؟".
- "إلى المبنى السّكني خلفك، أقل من عشرين مترًا".

دفعني سانتياغو إلى الأرض، ولوّح بصورة مبالغ بها بقنبلة مُسيّلة للدموع ستنفجر قريبًا جدًّا منّا. في غضون بضع ثوانٍ لن يستطيع أحد أن يرانا. هرعنا إلى البوّابة فيما عبر موكبٌ من الدراجات النارية الشارع بأقصى سرعة وهم يفرغون مخازن أسلحتهم النارية في المباني السكنية.

"وداعًا". قالها لي عندما وصلنا إلى الباب، ثمّ عاد وبدأ يمشي باتجاه الشارع. عدت إليه وحاولت أن أسحبه من عنقه بذراعي إلّا أن سانتياغو دفعني بعيدًا بالشّال الذي يضعه.

"عودي إلى منزلك، إذا ما أردتِ أن تُصابي بالرصاص فابقي هنا، ولكنّني لا أريد أن أموت، كيف لا تدركين أنّه إذا لم أحطّم رأسك، فهناك من سيطلق النار عليّ".

أجبرنا انفجار رشقة نارية جديدة على أن نستلقي على الأرض.

- "رجاءً أصغ إليّ، أختك تبحث عنك، عليك أن تتّصل بها، إذا لم تتّصل بها فسوف أخبرها بنفسي!".
- "لا يهمّ إذا كنت ستتّصلين بها، سيسحقوننا جميعًا، هي، أنا، وحتّى أنتِ، لذا...".

لم يستطع أن ينهي جملته. سقط صبي بالقرب من أقدامنا، بدا أنّه لم يتجاوز السابعة عشرة من العمر، وقد سقط بفعل قوة انفجار قنبلة مُسيّلة للدموع عند صدره، وخلفنا ظهر مُخرّب مع بندقية في يده. ضربني سانتياغو في معدتي وجذبني من شعري وهزّني كما لو أنّني دمية.

- "خذها إلى الشاحنة! اضربها! اضربها! خذها إلى القائد البوليفاري!". هكذا وجّه الرجل أوامره إلى سانتياغو، كنت مكوّمة على الأرض وبالكاد أستطيع التنفس وأشعر بمعدتي مُنقبضة، ما زلت أستطيع أن أرى الرجل الذي ارتدى الأسود يمرّ بنا ويتّجه مباشرة إلى فريسته التعيسة. جلس القرفصاء وبدأ يتفحّص جيوب الصّبي المستلقي على الإسفلت. يسرق الميّت بدلًا من أن يدفنه. ولكن في النهاية من أنا حتّى أطلق الأحكام على ذاك الجندي. أبناء القذارة، ردّدت خالتاي الأغنية التالية المكرّسة للقدّيس يوحنا: "حتّى يُدوّي صوت الرصاص، لن أغادر هذا المكان أيّها السّاتر!".

كنت مكوّمة على الأرض، وبالكاد أستطيع التنفس وأشعر بمعدتي مُنقبضة، أستطيع رؤية الرجل الذي ارتدى الأسود يمرّ بنا ويتّجه مباشرة إلى فريسته التعيسة. جلس القرفصاء وبدأ يتفحّص جيوب الصّبي المستلقي على الإسفلت. يسرق الموتى بدلًا من أن يدفنهم، ولكن في النهاية من أنا حتّى أطلق الأحكام على ذاك الجندي. أبناء القذارة، ردّدت خالتاي الأغنية التالية المكرّسة للقدّيس يوحنا "حتّى يدوّي صوت الرصاص، لن أغادر هذا المكان أيّها السّاتر!".

لم أكن أعرف أين أنا حتّى وصلت إلى بوّابة المبنى، بالكاد استطعت أن أضع المفتاح في القفل. كان سانتياغو يضع القناع الذي يغطّي به أبناء الثّورة وجوههم، لذا لم يكن من السّهولة معرفة ما إذا قبضنا على أحد ما أم لذنا بالفرار. إنّ التهديد الذي غرسته قطعة القماش تلك في الأذهان جعلتنا غير مرئيين بالنسبة إلى بعض الأشخاص، ولكنّها جعلتنا هدفًا واضحًا بالنسبة إلى مجموعةٍ أخرى. قبل بضعة أشهر، كانت الثياب التي تدلّ على التبعيّة للحكومة تمثّل

تحـذيرًا كافيًـا لكـي نعـبر طريقنـا مـع اليقـين بـأنّ أحـدًا لـن يتجـرّأ على الاقتراب. ولكن تغيّرت الأحوال، لم يعد من المخيف التربّص لفـردٍ مـن النظـام وإعدامـه مـن دون محاكمـة بمسـاعدة الآخـرين الـذين يتمنّـون الانضـمام إلـى هـذا الـدرس. سـانتياغو، جـلّاد مـن دون أسـلحة، كـان ضـحيّة رخيصـة لأولئـك الـذين أرادوا أن يعيـدوا حصّـة الكراهيـة التـي أورثنـا إيّاهـا القائـد. خلـع سـانتياغو قناعـه، ونظر بصمت إلى الأثاث والجدران. عندما رأيته على هذا النحو، بوجهه الملثّم وعينيه اللتين حدّقتا بغضب، ولّد هذا المشهد في نفسي الشفقة أكثر مِمّا ولّد الخوف. كان يدور حول نفسه بحيرة، تجوّل في الغرفة المقزّزة، ثـمّ انفلـت من عقالـه كمـا لـو أنّـه يقـود سيّارة بسـرعة عندما بدأ في الحديث. لو دهسني فإن ذلك سيكون بقصد أن ينقذنا. قـال إنّـه كـان حيـث كـان، وفعـل مـا فعـل بسـبب أمرٍ أصـعب مـن أن يشرحه.

واجـه سـانتياغو أفكـاره المحظـورة، وعـاد ليبـدأ في سـرد سلسـلة الأحداث. لو أنّه دهسني فإن ذلك سيكون بقصد أن ينقذنا. قـال وهـو يلوّح بالقناع، إن ذاك الكابوس استمرّ لثلاثة أشهر، مع الشّرطة وكلّ الأوامر التي تلقّاها.

- "أخبرتك أن تغادري وأن تدخلي إلى المبنى، لماذا لحقـت بي أيّتها الجبانة؟ لقد تجاوزت الحدود إلى حدٍّ بعيدٍ جدًّا! أتسـمعين؟" قـال ذلـك كمـا لـو أنّـه يحلّـق فـوق مملكتـه بالاستعانة بأصابعه.

كان سانتياغو مُخطئًا، لقد طفحت القذارة إلى مستوى أعلى من رؤوسنا، لقد دفنتنا القذارة، هو وأنا والبقيّة. لم تعد هذه بلادًا، كُنّا في قاع القذارة.

- "أخفض صوتك، حسنًا؟ بعد كلّ الضربات التي وجّهتها لي فإنّ الشخص الذي يجب أن يصرخ بشكلٍ هيستيري هو أنا".

"ولكنّك لا...".

"أجل، أعلم، أعلم، لقد سمعتك، لو لم تفعل ما فعلته لأخصيتك. ولكن الآن أنا من سيطلب إليك أن تتّبع قواعدي:

إنّ الشّقة المجاورة مُحتلّة من قبل بضع خنزيرات وهنّ، كما تعلم، لن يمانعن طردنا منها باستخدام المدفع الموجود في جانب الحيّ. فيما أنت هنا، تحدّث بصوتٍ خفيض قدر ما تستطيع، وعندما تريد أن تتحدّث، فليكن في هذه الجهة من المنزل. لا تُشغّل أيّة أضواء، ولا تفتح الباب أو تنظر إلى الخارج في حال قرع أحدهم الباب".

- "ولكن هذا...؟".

- "لا سانتياغو، هذا ليس منزلي، وأجل، لديّ الكثير لكي أشرحه. ولكن أنت أيضًا، لقد تركتك أختك لكي تلقى حتفك. إنّها لا تعلم شيئًا عنك. اترك الأمر على هذا النّحو كي لا يقتلوك ولا تفكّر حتّى في الاتصال بها. ما الذي سيكون بوسعك أن تفعله مع أولئك المجرمين؟ كُنّا نظنّ

أنّك في السجن، شاهدك الجميع عندما أخرجوك من الكلّية".

وقف في منتصف الغرفة، وهو يمسك ذاك القناع بيده.

أخفضت صوتي ومشيت حتى بلغت الجدار، ووضعت أذني، لم أسمع أيّ صوت لزوجة المارشال أو لأفراد قوّاتها. لم نخسر كُلّ شيء: على الأقل لم يسمعن أيّ شيء وبإمكاننا الاختباء لبضعة أيام حتى نجد حلًّا ما. عندما التفتّ صوب سانتياغو، شعرت بصدمة من الإعياء، اجتاحتني موجة من الكآبة أكثر مِمّا شعرت به عندما رميت أورورا بيرالتا من الشّرفة. نظر سانتياغو إليّ، بدا عليه نفس الجنون الذي أصابني، بعينين مفتوحتين وخاملتين. نظر إليّ كما لو كنتُ شخصًا مفقودًا منذ زمنٍ طويل في مكان بعيد. وللمرة الأولى منذ أن رأيته، استشعرت في سانتياغو شيئًا يشبه الخيبة والكسرة. الخبير الاقتصادي الصغير الذي كان يعرف كلّ شيء وبإمكانه القيام بكلّ شيء، لم يبقَ شيءٌ من هذا، كان يبدو مثل رجلٍ عجوز، بوجهه المُتجعّد، وبشرته المليئة بالندبات من جروحٍ قديمة. كان نحيلًا للغاية لدرجة أنّني استطعت أن أرى أوردته على العضلات القليلة التي غطّت عظامه. ارتدى سانتياغو جينزًا رثًّا وقميصًا أحمر مطبوع عليه عينا القائد في أعلى الصّدر.

"سانتياغو، هل تريد أن تقول شيئًا؟".

وضع يديه على جبينه وجذب شعره المُتّسخ بالزّيت والتراب: "أديليدا، أنا جائع".

ذهبت إلى المطبخ، وأحضرت بعض الخبز، قطعتين أو ثلاثًا مِمّا بقي في كيسٍ فارغ، وكان هناك أيضًا بعض المياه الغازية وجدتها أسفل خزانة المطبخ وثلاث عبوات تونة وضعتها أورورا بيرالتا على المايكروايف. قضم سانتياغو الخبز بصعوبة، وفتح عبوة المياه الغازية بأضراسه، أمّا أنا فرشفت زيت دوّار الشمس من عبوة التّونة، وفتحت عبوة بيرة كانت في البراد.

"هناك بعض الموز، إذا كنت ترغب في تناوله". لم يُجبني سانتياغو سوى بصوت قضم الخبز الذي كان يبتلعه بصعوبة عبر بلعومه.

بعد أن أزال الغلاف، ابتلع شريحتي الخبز وشرب ما تبقّى من البيرة، وأخرج من جيبه علبة سجائر مُجعّدة.

- "هل تمانعين؟". سألني بلهجة يغلب عليها التخوّف.
- "ما الذي يهمّ، إذا كانت رائحة القمامة في داخل المنزل وخارجه، لا أبالي برائحة الدخان".
- "ألا تدخّنين؟".
- "أقلعت عن التدخين، ولكن اترك لي آخر مجّتين من السيجارة".

دخّن سانتياغو وهو يضغط على فلتر السيجارة بإبهامه وسبّابته، ولم يقدّم لي ما تبقّى من السيجارة إلّا بعد مضي بُرهة. مدّ يده لي وهو ينفث عمودين من الدخان من منخريه.

- "عندما أخذوني إلى لا تومبا (القبر)، وضعوني لمدة شهر في زنزانة من دون أيّة نوافذ أو تهوية. في البداية كنت وحيدًا، ثمّ

أحضروا طالبين آخرين من الكلّية. وكلّ ساعتين كان يأتي عنصر من دائرة الاستخبارات الوطنية البوليفية، من أولئك الذين يندسّون في المظاهرات لكي يلقوا القبض على الناس. وقع اختيار الرجل على واحدٍ مِنّا ودفعه دفعًا عبر البهو. عندما عاد به، كان الفتى مُحطّمًا بفعل الضرب وخصيتاه مُرتخيتين كما لو أنّهما مصنوعتان من الهلام".

بدأت أتلمّس يديّ، اعتراني شعورٌ بالعجز عند النظر إلى وجهه.

- "لم يريدوا أن يعرفوا ما إذا كُنّا نعرف بعضنا أو إذا كنّا في تنظيم ما. كانوا يضربوننا فقط. أخبرونا أنّنا مجموعة من المخنّثين وأنّهم سيقتلوننا ويغتصبوننا ويقتلون عائلاتنا، اللعنة، من أخبرك أن تنخرط في هذا؟ اغتصبوا أصغرنا بأنبوبٍ وضعوه في مؤخرته، أمّا أنا، فوضعوا سبطانة بندقية في مؤخرتي، ثمّ أزالوها باستمتاع. أعتذر لأنّني لم أوفّر لنفسي هذه التفاصيل".

لم أقل شيئًا، ولم تصدر منيّ أيّة إيماءة. حاولت ألّا أنظر إليه. هل كنت أنا أوّل شخص يخبرني بهذه التفاصيل؟

"في غضون أربعة أيّام قسمونا إلى أربع مجموعات لكلٍّ منّا. ثمّ جعلونا نجلس باستقامة وصوّرونا باستخدام الهاتف المحمول وأغلقوا الباب مُجدّدًا. كانوا دائمًا يحرصون على ضربنا على أجسامنا ويتجنّبون وجوهنا كي لا تتشوّه بالكدمات والرضوض، وذلك

للإيهام بأنّ حالتنا جيّدة. أظنّ أن تلك الصور هي التي شاهدتها آنًا".

أومأت برأسي.

"هل دفعت أختي مقابل ذلك؟".

أومأت برأسي ثانيةً.

"ما هي الضّمانات التي قدّموها لها؟".

- "ما الذي تناولته هناك؟".
- "فقط ذلك؟".
- "والدليل على أنّك على قيد الحياة".

ثمّ لذت بالصّمت ثانيةً.

- "لقد قالوا أشياء فظيعة عن القبر".
- "وجميعها صحيحة. جعلونا نخلع ثيابنا ووضعونا في إحدى الغرف النظيفة، هي الغرف الوحيدة التي توجد فيها شبكة كهربائية. كان ذلك أفضل أسلوب تعذيب لديهم: التكييف الهوائي. خفّضوا الثرموستات إلى الحدّ الأدنى، مِمّا أصابنا بالحمّى. فقدنا الشّعور بكلّ شيء: الزمن، الجوع، درجة الحرارة. في البداية صرخنا كثيرًا. بدأنا نطالب بمحامٍ ذي صفة رسمية وانتهى بنا الحال نتوسّل لكي يعطونا ماءً للشّرب. جلبوا لنا الماء في مبولة صغيرة، لم أستطع أن أشربه. زال أثر الضربات، أمّا فمي فأصبح جافًا، وأصبت بالشحوب ومال لوني إلى الاصفرار. كانوا يضربوننا لكي ينهكونا ويحطّمونا. إنه الخوف الذي يمنحك الوضوح

والضرب الذي يفقدك الإدراك. في الأسبوع الأوّل كانوا يضربوننا كُلًّا على حدة، في الأسبوع التالي وضعونا نحن الثلاثة معًا في الغرفة نفسها، جعلونا نخلع سراويلنا وأجبرونا على الرقص، ثمّ تلمّس الأعضاء الحميمية لبعضنا بعضًا. في تلك المرحلة لم يعد لدينا الإدراك الكافي لما كنّا نفعله ولا أعلم ما هو أسوأ ما تمّ إخبار أختي به".

- "ماذا كانوا يخبرونك؟".
- "أنّهم يعلمون أين تعيش، وسيغتصبونها ويقتلونها هي وخوليو. لقد عرفوا اسميهما وأجبرونا على التوسّل والاعتذار، ولكن ذلك لم يكن يهمّ لأنّهم عاودوا ضربنا. اعتقلوا النساء أيضًا، هناك العديد من زميلاتي في كلّية الاقتصاد اللواتي تم اعتقالهنّ في اليوم نفسه الذي اعتُقلت فيه. لم يسبق لبعضهنّ أن تظاهرن أبدًا، إلّا أنّهم لم يبالوا بذلك".
- "ضربوا النساء أيضًا؟".
- "لقد اغتصبوهنّ جميعًا، عندما أخذونا إلى (الثّلاجة) سمعنا صوت صراخهن. وفي الزنزانات الأخرى كان من المستحيل معرفة أيّ شيء، كُنّا معزولين ومن دون أيّة إنارة. بدأنا نفقد صوابنا، لأنّ ذلك ما كان عليه الأمر، لقد نسينا مع مرور الأيّام أنّنا بشر. بعد مرور شهر أخرجونا من القبر إلى مركز ما ونحن معصوبي الأعين. وضعوا أمامنا وثيقة

مختومة تمّ اتهامنا فيها بنصف دزّينة من الجرائم: التمرّد، التحريض، التآمر لارتكاب جرائم، إشعال النيران والإضرار بالممتلكات، الإرهاب، إن أغلب من أُلقي القبض عليهم في ذاك اليوم لم يسبق لهم أن اشتركوا في أيٍّ من أعمال العنف. إن أغلب المقبوض عليهم في مجموعتنا لم يكونوا حتّى في الكتلة الرئيسة للتظاهر. لقد بدؤوا في الاعتقال عندما تركوا المسيرة وهم عائدون إلى منازلهم. انتظرونا حتّى تفرّقنا وبذلك يصبح من الأسهل القبض علينا".

- "سانيتاغو، من الذي وجّه لكم الاتهام؟".
- "لا أدري، طلبنا مُدّعيًا عامًّا، محاميًا، قاضيًا، أيّ أحد يكون حاضرًا لكي يأخذ إفادتنا. ولكن لم تكن هناك أيّة استجابة ولم يظهر أحد، كان ذلك الإجراء أشبه بمحاكمة عسكرية، وقد شرحوا ذلك لنا. (إن ما سيحدث، هو أنّكم سوف تنخرطون في المشاكل)، قال لنا ذلك رجل يرتدي بذلة موحّدة خضراء. في اليوم التالي فصلونا عن بعضنا وأخذوا كلّ واحدٍ منّا إلى مكان مختلف، تم نقلي أنا إلى السّجن الذهبي في الجنوب.

بقيت في ذاك السّجن لمدّة شهر. لم أظنّ مُطلقًا أنّني سأتمكّن من الفرار من عملاء دائرة الاستخبارات الوطنية البوليفية. لم يعد أحد يلتقط أيّة صور باستعمال الهواتف المحمولة، أظنّ أنّ السبب هو كثرة المعتقلين لديهم إضافة إلى أنّ المال الذي يبتزّونه من عائلاتهم

أصبح أكثر من كاف بالنسبة إليهم. ولم نبقَ في خدمتهم من أجل ذلك حتّى. هل تعلمين ما إذا كانت آنّا لا تزال تدفع لهم؟".

- "لا أعلم يا سانتياغو، عندما تدهورت صحّة أمّي فقدت الاتصال مع الجميع. كنت أبقى في العيادة وأعتني بها".

ظهرت معالم الدهشة على وجهه. "أجل، لقد توفّيت أمّي".

- "لم أكن أعلم، لم أكن أعلم. حسنًا، لو أنّني عرفت شيئًا من هذا...". أخرجَ علبة السجائر المهترئة، وأخرج آخر سيجارة ووضعها على الطّاولة.

- "لقد توفّيت منذ بضعة أسابيع".

- "من يعيش اليوم يا أديليدا؟ بما أنّ كلّ شيء يذهب باتجاه الأسوأ، فمن لم يمت؟". ونهض سانتياغو عن كرسيه.

- "إلى أين ستذهب؟".

- "إلى الحمام، لم أتبوّل منذ عصور".

حدّقت إلى السّقف وأنا أتضرّع للعثور على إجابات. يجب عليّ أن أتّصل بآنّا لكي أخبرها أنّني عثرت على شقيقها. هل يجب عليّ ذلك؟ هل أستطيع؟ مرّرت يديّ على الطّاولة التي لم يسبق لي أن تناولت عليها الطّعام، كانت حياتي تمضي بفعل الصدمات مثل فيلمٍ من دون تعديلات أو مونتاج. كانت حالة سانتياغو أفضل بكثير من حال آنّا. لم أعرف أيّ شيء عمّا حدث، ولن يجدي هذا نفعًا. لقد أصابها الجنون بفعل اليأس، إن الجهل أحد الطّرق للبقاء بأمان، كرّرت هذه الفكرة بيني وبين نفسي حتّى أتحلّى بالشجاعة وأحافظ على برودة أعصابي. إنّها صديقتي الوحيدة، لا أستطيع أن أخفي عنها أنّني أعرف وأنّني عثرت على سانتياغو.

نهضت عن الكرسي وأنا مستعدّة لالتقاط سماعة الهاتف، إلّا إنني سمعت صوت السيفون عندما جذبه سانتياغو، عندها عاودت الجلوس.

أصبحنا أنا وآنّا صديقتين في أثناء المسابقة في السنة الأولى في كلّية الآداب. دخلنا إلى المصعد معًا بعد أن اتّفقنا على عدّة مواضيع عامّة. اغتنمت الفرصة لتقدّم نفسها وحرّرتني من ذلك على سبيل

المصادفة، إذ إنّها كانت تعرف كم كنت أضجر من أنشطتي الصفَية. استعنتُ بالعديد من العبارات الظرفية وتحدّثت كما لو أنّني مسؤولة حكومية. لقد أطاعت آنّا، على غرار أخيها، صاحب العمل الصّارم؛ وهو شخصٌ من النّوع اللعين الذي ينتهي بك الحال بأن تتودّد إليه. في الحقيقة، وبفضل تأثيرها، عدلت عن هوسي باستعمال الأدوات الظرفية في كلّ ما أقوله، إلّا أنّ ذلك لم يعفها من أن تتصرّف كشخصٍ متفوّق. لقد أفضت الدائرة المشتركة بأن تجمعنا معًا: الجداول الزمنية للجامعة، المواد التي سجّلنا فيها معًا، ولكن إذا سألني أحدهم لماذا بقيتما صديقتين كلّ تلك السّنين، فلن أستطيع أن أشرح السّبب بشكلٍ جيّد. إنّه نفس الأمر الذي يحدث مع العشّاق والمتزوجين. ليس هناك الكثير من الخيارات لكي يتم الانتقاء بينها، وفي حال وجودها بمحض المصادفة، فإنّ الرفقة لا تمانع الترحيب بذلك. كُنّا حاصدتين صارمتين وجافّتين مثل جذوع الأشجار. لم نشعر أنّنا معنيّتان بتجديد الأدب الوطني، مثل معظم طلّاب الآداب. لقد كرّسنا أنفسنا للتحرير المهني. الوضوح والدّقة، لا شيء أكثر من ذلك.

- "وأنتِ؟". سألتني في أحد الأيّام في كافتيريا الجامعة.
- "أنا ماذا؟".
- "هل ترسلين الروايات إلى المسابقات وما شابه؟".
- "لست مُهتمّة".
- "وأنا كذلك". قالت ذلك وهي تمدّ لسانها السّليط، وانفجرنا ضاحكتين. عملنا في البداية معًا مُدقّقتين للأسلوب في

جريدة توقّفت عن الصدور لاحقًا. رأينا كيف كانت تتغيّر الأحوال، كيف انخفضت قيمة العملة، وبدأت المظاهرات وفشلت أساليب الإدارة، وكيف بدأت الفوضى الثورية، ثُمّ تحوّلت إلى عنفٍ مُنظّم. عاصرت كلتانا أفضل سنوات حكم القائد، ثمّ الصّعود البطيء لخلفائه، شهدنا على بدايات تنظيم أبناء الثورة والأفواج المؤلّلة لسائقي الدراجات النارية للدفاع عن الوطن. شهدنا على تحوّل البلاد إلى مكانٍ مُروِّع، لقد ارتبطت حياتي بآنّا بفعل العمل والحياة الشخصية اللذين خضعا لنفس الظروف، إلى أن مضت على صداقتنا عشر سنوات أو اثنتا عشرة سنة.

أعرف آنّا بشكلٍ جيد إلى الحد الكافي الذي يتيح لي الإقرار ببعض الأمور. هناك أمران أطاحا بأحلام آنّا وآمالها: والدتها التي بدأت تظهر عليها علامات الزهايمر بعد أن أصبحت أرملة، وسانتياغو أخوها الوحيد الذي يصغرها بعشر سنوات. أكثر مرّة أتذكر فيها سانتياغو بوضوح كانت في زفاف آنّا وخوليو، كان يبلغ حينها الخامسة عشرة من عمره. رأيته وهو يتجوّل حول الكنيسة، بدا عليه الغنى والإحجام والتردّد في الوقت ذاته. كان سانتياغو أحد أفضل تلاميذ مدرسته، وهي أكثر المؤسّسات التعليمية تكلفةً في المدينة. دفعت آنّا مبلغًا شهريًا فاحشًا عندما كان أخوها يدرس في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية، استحوذ عليّ حينها إحساسٌ غريب بالرّهان، كما لو أنّ مصدر المال كان حصّالة نقود غير مرئية. غالبًا ما

كانت تقول إنّ أخاها ذكي للغاية. أجل كان ذكيًا للغاية، إضافة إلى المساندة العظيمة التي قدّمتها له، كان هذا أكثر من كافٍ ليكون سانتياغو من الطّلاب العشرة الأوائل في امتحان القبول في الجامعة. درس الاقتصاد والمحاسبة في الوقت ذاته. لو أنّ هذه البلاد لم تُقدِم على الانتحار، لانتهى المطاف بهذا الفتى على الأغلب في إدارة البنك المركزي، كما كانت تقول أخته.

إلّا أنّهم لم يمنحوه الوقت الكافي، لقد اعتقلوه قبل أن يتخرّج.

عاد سانتياغو من الحمّام وهو يمسح يداه ببنطال الجينز. جلس أمامي وأخرج سيجارة من العلبة، وبدأ في تقويم اعوجاجها.

- "في أحد الأيّام ظهر أحد قادة القيادة المشتركة للورثة الذهبيين للنضال المُسلّح. جمعونا نحن الطّلاب المعتقلين في الباحة. كدنا حينها أن نصاب بالتّجفاف وأشعة الشمس كانت تلفحنا، عندما وصل ثمانية أشخاص يضعون الأقنعة مع حقيبة كبيرة مليئة بالقمصان والأقنعة مثل هذه التي أرتديها." وأشار إلى القناع ذي وجه الهيكل العظمي على الطّاولة. "قالوا لنا إذا أردتم الخروج من هنا فعلينا أن نرتدي هذه الثياب. لم نسأل إلى أين سنذهب، فأيّ مكان أفضل من السّجن الذي كُنّا فيه".
- "لم أعتقد أنّك كنت بين الطّلاب المعتقلين".
- "لقد فعلوا هذا مع الجميع، كان إرسال الناس إلى السّجن الذهبي هو وسيلة لتقديم بدلاء لأولئك الأشخاص الذين

توقفوا عن دفع المال لهم. لقد أرسلونا لكي نموت، هل أدركتِ هذا الآن؟ إذا ما أردتِ البقاء على قيد الحياة، فلا يمكنك أن تغفلي عن شيءٍ أبدًا: من لا يريد أن يقتلك يريد أن يغتصبك. لقد استعملوا قطعًا معدنية صدئة تم بيعها بسعر الذهب بين القادمين الجّدد. كان الهجوم والدفاع عن النفس أمرين يجب أن نكون مُستعدّين للقيام بهما على الدوام".

حاولت مقاطعته لكي أجعله يتوقف عن الكلام، إلّا إنّني لم أُفلِح في ذلك.

- "أديليدا، دعيني أتكلّم". وأخذ الولّاعة وأشعل السيجارة. "إنّ الإنسان الذي لم يولد هناك، الذي لم يشبّ على تعلّم وسائل الذّبح لكي يبقى على قيد الحياة، لن يتبقّى له شيء، كانت تلك حالتنا جميعًا في ذاك الفناء"، قال هذا وهو ينفث عمودًا سميكًا من الدخان. "لم أفكّر مرّتين، وطلبت أن أذهب مع المجموعة التي ستغادر في ذاك اليوم. لم يعيدوا لنا وثائقنا الرّسمية أبدًا، تمّ تسليمها إلى المسؤولين عن القيادة. نادونا واحدًا تلو الآخر، بحسب ترتيب ظهور بطاقات تعريفنا وتمّ تعيين أرقام لنا، كان رقمي 25، لقد أحببته، ففي السنة القادمة سيكون هذا الرقم هو ما يشير إلى عمري".

بقيت صامتة، فضّلت ألّا أفكّر في المستقبل.

- "ما الخطب؟ هل تظنّين أنّني لن أبلغ هذا العمر؟".
- "لا تنسب إليّ أشياء لم أقلها".

حلّ بيننا صمتٌ غريب استمرّ لبضع ثوانٍ، إلى أن تابع سانتياغو قصّته.

- "جعلونا نستقلّ حافلةً من جوار مقر البلدية، وسافرنا طوال الليل ونحن معصوبو الأعين ومُقيّدون بالأسلاك. استلقينا على المقاعد، وبالرغم من كلّ هذا، حظيت بنومٍ لم أحظَ به منذ أسابيع".
- "إلى أين أخذوكم؟".
- "عندما أنزلونا من الحافلة، وأزالوا العصابات عن أعيننا، كان أوّل ما رأيته هو مشهد غابة جبلية. اعتقدتُ في البداية أنّنا في الجنوب، بالقرب من ولاية بوليفار أو ولاية أمازوناس. من خلال الحوارات بين القادة، فهمت أنّنا كُنّا في وسط المنطقة الجبلية المركزية، ما بين كاراكاس وجارنياس. أبقونا هناك لمدّة خمسة عشر يومًا. كان كلّ شيء مشكوكًا فيه ومحفوفًا بالمخاطر لذا لم نتحدّث مع أحد. علّمونا هناك الأشياء الأساسية، كيف نضرب وكيف نطلق النار. شرحوا لنا بشكلٍ موسّع القواعد الجماعية، بما فيها هيكلية القيادة، وبذلك لا نطيع الأوامر التي لا تأتي من القيادات الجانبية. تعلّمنا الأمور الأساسية، موضوع الخطاب الإجرامي، الذي تكرّر كثيرًا عندما كانوا يجمعوننا مجدّدًا حين يزلّ لسان أحدهم، أو عند

حدوث حالة فرار ليكون عبرةً لنا جميعًا. في إحدى المرّات أتوا بفتى فرّ من العمل العسكري الأخير، ناداه القائد وهو يطقطق بأصابعه، تقدّم الفتى بتعثّر، أمسكه القائد من شعره وجعله يركع وسط الباحة أمامنا، بكى الرّجل التعيس، وتوسّل للإبقاء على حياته ووجهه باتجاه الأرض، أمسك القائد بسكين وجذبه من شعره وأجبره على الوقوف، استعرض القائد السكين أمام نظراتنا، مشى أمامنا ثمّ ذبح الرجل وقال لنا: "هذا ما سيحدث لأي أحد يفكّر في الهروب أو خيانة العمل المسلّح".

- "هل العمل المسلّح هو ما تقومون به كلّ ليلة؟".
- "إنّهم يطلقون هذه التّسمية على أيّ شيء يقومون به: السّرقة، تفريق مظاهرة، شنّ الهجمات المُنسّقة. إنّهم بحاجة إلى أشخاص للقيام بهذه المهمّات، لذلك قاموا بتجنيدنا. نحن لا نعمل لصالح الحكومة، إلّا أنّها تحمينا. هذا ما يحدث لنا عندما نتعرّض للتوقيف على يد القادة، وهم مجموعة من العسكريين والمجرمين ورجال العصابات. إن هؤلاء الناس على مستوى مؤكّد إذا ما قارنتهم بأولئك الموجودين في سجن القبر".

بدأ حديث سانتياغو بالتباطؤ شيئًا فشيئًا.

- "يمكنك أن تفهمي الآن ما الذي كنت أفعله اليوم بهذا القناع، صحيح؟".

لاحظ أن السيجارة انتهت ونظر إليّ: "لم أترك لك أيّ شيء هذه المرّة، أنا مُتأسّف"، قال ذلك وابتسم بحزن. ثمّ مرّر يده على شعره ونظر إلى الأعلى.

- "بالطبع لم يتبقَّ لديك المزيد من البيرة؟".

هززت رأسي بالنفي، وآلمتني الجروح مُجدّدًا.

- "إذن أنا أعلم ما الذي سأفعله الآن".
- "ماذا ستفعل؟".
- "سأنام".

أورورا بيرالتا تيلجيرو. تاريخ الميلاد: 15 أيار 1972. الوقت: الثالثة والنصف ظهرًا. المكان: مستشفى الأميرة، ناحية سالامانكا، محافظة مدريد، الأب: فابيان بيرالتا

فيلغا، مواطن من مقاطعة لوغو، غاليسيا. الأم: جوليا بيرالتا تيلجيرو، من مقاطعة لوغو، غاليسيا. الجنسية: الإسبانية. سبب تقديم الاستمارة: إجراءات الحصول على جواز السفر ووثيقة الهوية الوطنية للمملكة الإسبانية. مرفق مع النسخة طبق الأصل للسجل رسالة موقّعة من المكتب القنصلي للمدينة، ولائحة بالمصنفات، ونشرة مؤرخة بالتاريخ المُقرّر للإجراءات، ورقم هاتف للاستشارة. كان هناك أسبوعان على الموعد. يصادف التاريخ المدوّن في النشرة مرور شهر على وفاة أمّي، في الخامس من أيّار.

أخذت منشفة وبطانية نظيفتين، ووضعتهما أسفل الطاولة في غرفة تناول الطعام، وعدت إلى غرفة المعيشة، وأغلقت الباب بالترباس، عثرت في الدرج الأول من الخزانة على مُصنّف دائري أحمر، وفي داخله شهادة ميلاد أخرى لجوليا، والدة أورورا. لقد

وُلدت في تموز من عام 1954 في فيفيرو؛ وهي بلدة على ساحل مقاطعة لوغو.

هناك الوثيقة الأصلية ونسخة عنها إضافة إلى شهادة الوفاة التي تم استصدارها في كاراكاس. توفّيت جوليا بيرالتا قبل أن أسافر للمرّة الأولى مع فرانشيسكو إلى الحدود. لم أقم بالعديد من الرحلات إلى هناك، ولكن الرحلة الأولى كانت في مهمة كلفتني بها الصحيفة التي كان يعمل لصالحها في ذاك الحين، وتم توظيفي بمهنة مدقّقة لغوية. ومع مرور الوقت انتهى بي المطاف بالقيام بالكثير من الأشياء؛ مثل القيام بالطباعة الضوئية لتصحيح تعليق، أو إعادة القيام بالطباعة عن بعد، إضافة إلى إجراء الاتصالات الهاتفية لمقارنة البيانات التي لم يتسنَّ للمحرّرين أن يتحقّقوا منها.

لم يكن هناك أحد مستعد للقيام بكل هذه الأعمال مقابل مبلغ قليل من المال. قمت بتنقيح تقارير فرانشيسكو وتحريرها كلها تقريبًا؛ وهو صحافي سياسي تركّزت موضوعاته حول نشاطات رجال العصابات الكولومبية. بدا لأرباب العمل أنّني الشّخص المثالي لمرافقته في تلك الرحلة، ومن غيري! وجب عليّ أن أبقى في المنطقة المُتاخمة للحدود خلال الفترة الزمنية التي تحدث فيها العملية التي تولّى فرانشيسكو تغطيتها، وبالرّغم من أنّني سألت، إلّا أن رؤسائي في العمل لم يعطوني المزيد من التفاصيل، لقد اكتفوا فقط بالإلحاح عليّ لكي أبلغهم بقبولي للمهمّة أو رفضي في أسرع وقت، وقد وافقت. عندما عدت إلى المنزل لأوضّب حقيبتي، وجدت أمّي تستعد

للذهاب إلى جنازة جوليا بيرالتا. "كيف ستذهبين إلى الحدود؟ هل أصُبت بالجنون؟ إن تلك المنطقة خطرة للغاية. ألن تذهبي معي لكي تقدّمي العزاء بموت والدة أورورا؟".

- "لا أستطيع يا أمّي، رجاءً قدّمي العزاء بالنيابة عنّي".

ارتدت أمّي ثيابًا سوداء، لم يسبق لي أن ارتديت ثيابًا سوداء، لقد جعلها هذا اللون تبدو وكأنّها عادت إلى قريتها. إنّ السّبب بالطبع هو أنّ الحداد عاد لتذكيرها مُجدّدًا. إنّه أمرٌ ملتصقٌ بجلدها، كما لو أنّه موجودٌ في جيناتها وسيظهر بشكل كامل على الفور. قلت لها قبل أن أغادر: "اخلعي تلك الثياب يا أُمّي عندما تعودين". وقفت أمّي في غرفة الجلوس وهي تنظر إلى الفستان، كما لو أنّها تثبت صحّة كلامي. كان وجهها كالحًا ومن دون أيّة إيماءات، بدت لي وكأنّها جزيرة من الحزن. ندمت على قول تلك العبارة، وقبّلتها على خدّها قبل أن أغادر المنزل. وصلت إلى كافتيريا بورتو وأنا أشعر بقلقٍ كبير. انتظر فرانشيسكو هناك وهو مكان بالقرب من الصحيفة حيث يتجمّع كافّة الصحفيين، أدار الكافتيريا رجلٌ ذو شارب أسود تعود أصوله إلى مدينة فونشال. وباستثناء الرؤساء في العمل، يمكن للمرء أن يجد أي صحافي يخطر بباله.

وصل فرانشيسكو باكرًا. شرب القهوة وحيدًا ومن دون رغبة. تحدّثنا قليلًا. لم يبدُ أنّ لديه فكرة وافية عمّا خطّط له لتلك الرحلة، لذا استحوذ عليّ شعورٌ بالهلع إزاء ذاك الصّحفي الذهبي المُتكلّف، لقد أفزعني ذلك. لكن كُنّا كلانا نمضي وقتنا وتجنّبنا العُرف الذي

يتّبعه الغرباء في تبادل أطراف الحديث عندما يكون ما يريدونه هو أن يبقوا بمفردهم. كان التقرير الصحفي الذي جعلنا ننطلق إلى ذاك الجانب البعيد المُتطرّف من البلاد يستوجب الحذر: اختطاف رجل أعمال مرموق من النخبة الوطنية على يد رجال العصابات.

سيجري تحرير رجل الأعمال في منطقة نهر ميتا؛ وهي منطقة تبعد مئة كيلو متر عن الحدود. أخذت عائلة رجل الأعمال على عاتقها إجراء المفاوضات، مع حدّ أدنى من تدخّل نظام الرئيس القائد الذي كان قد قوّى سابقًا العلاقات مع قوّات التحرير الكولومبية، فقد أمّن لهم الحماية مقابل الولاء والتعاون العسكري، إضافة إلى الأتاوات على شحنات المخدّرات التي أتاح النظام مرورها عبر قناة نهر أورينوكو باتجاه أوروبا. حصل فرانشيسكو على ضمان بعدم التعرّض وهذا ما أتاح له مرافقة القوات العسكرية التي شاركت في عملية التحرير. كانت مهمّتي أن أبقى في الجانب الآخر من الحدود وأن أكون مستعدّة لاتخاذ القرار في الحالات الطارئة: من الحصول على المال وقسائم الوقود واستردادها في مراكز الحرس الوطني إلى تولّي مهمة العمل على الماسح الضوئي واللابتوب البديل لإرسال الصور والوقائع حالما تصبح جاهزة.

– "هل سبق لك أن ذهبتِ إلى الحدود؟".

– "لا".

– "من الآن فصاعدًا...".

– "ماذا؟".

- "حاولي ألّا تجعليهم يلاحظون ذلك، لا تتبادلي الحديث كثيرًا مع الناس هناك، والأمر الأكثر أهمية، لا تفكّري حتّى في سبب قدومك أو من أجل ماذا".
- "شكرًا لك لأنك نبهتني حول عدم جواز التحدّث مع الغرباء، قبل أن أخوض هذه الرحلة لم آخذ هذا بعين الاعتبار".
- "سوف تشكرينني".

قال ذلك وهو يرفع حاجبه.

- "سأضمن ذلك".

طلبت قهوة سادة: "أريدها للسفر لن أشربها هنا، أريدها في كوب".

أعدّ أنتونيو البرتغالي القهوة وفقًا لما طلبت.

- "لا تسأل عنّي أو تقلق بشأني، سوف أقدّر لك ذلك".
- "كما ترغبين، ولكن أسرعي، علينا أن نغادر قبل الساعة الحادية عشرة، سأنتظرك في الخارج".

سافرنا برًّا لمدّة ثماني ساعات حتّى وصلنا إلى أقرب بلدة إلى الحدود الكولومبية. نادرًا ما تحدّث فرانشيسكو، سألني في البداية عن الصحيفة التي عملت فيها سابقًا، ثم أخبرني أنّه وعلى غرار حالتي لم يدرس الصحافة، بعد ذلك شرح لي لماذا لم يدرس ألمع الصّحافيين الصحافة في الكلّية أبدًا. كنت مخطئة في هذا الشأن: كنت أعبد المال. أمضيت أسبوعين في تلك البلدة، وفي تلك الأثناء اكتشفت أن الواقع

دائمًا يحطّم الثوابت. تحقّقتُ من أمرين: بسبب أنّ الحكومة أبدت قدرة أقوى على التخريب ممّا توقّعناه، ولأن فرانشيسكو لم يكن غبيًا بشكل مُطلق، من الممكن التنبؤ بأفعاله، ولكنّه ليس غبيًا. بالتأكيد من الممكن أن يكون أكثر هدوءًا وسيطرة على أعصابه. كان من بين أفضل من التقطوا الصّور، ولكن حتّى تلك الأثناء لم يكن قد انتهى بي الحال لأن أكون مثل فرانشيسكو. لقد قام بكل شيء: التقاط الصّور وتدوين الوقائع. دائمًا ما كنت أقوم بما هو مطلوب إلي: قدّرت الأشياء بدقّة قبل أن يقوم الآخرون بذلك. عندما ودّعنا بعضنا في تلك البلدة التي تبعد ثلاثين كيلومترًا عن الحدود مع كولومبيا، حيث وجب عليّ أن أنسّق بقية الرحلة، استعار منّي فرانشيسكو كتابًا كنت أقرؤه في أثناء رحلتنا على الطريق. قلت له: "لا يُقرأ الشّعر على عجل، لذا خذه".

شكرني ورحل.

تحدّثنا على الهاتف يوميًا، كان يُملي الوقائع عليّ وأنا أنقلها. أعدت تسمية كافّة عناوين الفقرات الأربع عشرة التي أملاها عليّ، مِمّا زاد من المكالمات الهاتفية التي كان بعضها للإيضاح والأُخرى لتنسيق جلسة اليوم التالي.

- "سأتّصل بك حوالي السّاعة الخامسة، رجاءً أخبريني قبل أن تُجري تغييرات على العنوان الرئيسي. في حال كانت العناوين الرئيسة طويلة للغاية، رجاءً اطلبي المشورة".
- "إنّها مُلائمة بشكلٍ مثالي".

- "حسنًا لماذا تريدين إعادة صياغتها؟".
- "لأنّها لا تتّسم بالوضوح، إذا قرأت ديوان جيل دي بيدما، الكتاب الذي أعرتك إيّاه، فستُدرك أهمية الدّقة".

بعد أن أمضيت عشرة أيّام وأنا مُختبئة في مُخيّم في فيلافيسينسيو، مازال فرانشيسكو لا يملك فكرة واضحة عن نوايا الرئيس القائد في عملية الإنقاذ. لقد أخذنا النّية الحسنة للحكومة على أنها أمر مُسلّم به، ولكن هناك شيئا ما لم يسر على ما يرام. تأخرّ موعد إطلاق سراح رجل الأعمال خمسة عشر يومًا، ثمّ يومين إضافيين، وبقينا على هذا الحال حتّى مضى شهر من دون أيةّ أخبار عن موعد تحرير الرّهينة.

كانت البلاد في حالة من الشّلل، والجميع ينتظر عودة وريث الثّروة الطائلة لرجل الأعمال الذي يُعد إحدى أهم الشخصيات لدى القومية الكريبولية. افترضنا أنّ كُلّ شيءٍ سيكون جاهزًا حالما يحصل رجل الأعمال على حرّيته، مما يمكّن قادة الثّورة من أن يحصلوا على مكاسب من عملية التّوسّط، ولكن نهاية الأمر لم تكن متوقعة. بالنسبة إلى فرانشيسكو الذي كان عليه أن يكتب ويوصّف خلفية مشاركته الحصرية بشكل صارم ومُجرّد من العواطف، كان كلّ ما حصل عليه هو صورة الجثّة المنتفخة لرجل الأعمال المخطوف التي تركها رجال العصابات على بعد كيلومترين من المركز الحدودي. كانت الجثّة ملفوفة بكيسٍ من الخيش المُلطّخ بالدّماء الجّافة. مضى على موت الرّجل عدّة أيام، أمّا عائلته فسافرت إلى الحدود لتأخذ جثّته بعد أن دفعت مبلغ أربعة ملايين دولار لقوات التحرير الوطنية الماركسية.

بعد يوم من عودتنا إلى كاراكاس ذهبت إلى قسم التصوير الفوتوغرافي في الجريدة مع كتاب فيه مختارات من يوميات جيل دي بيدما.

قلت له: "اعتبر هذا اعتذارًا عن تغيير العناوين الرئيسة".

- "ليس عليك أن تقومي بذلك، لقد جعلتها تبدو أفضل، أفضل بكثير، لم أخبرك وقتها، ولكن أستطيع أن أقول لك ذلك الآن".

بعد مرور أسبوعين، أتى فرانشيسكو إلى مكتبي: "سأسافر إلى نهر ميتا الأسبوع القادم وأريدك أن تأتي معي".

- "هل ستستغرق هذه الرحلة وقتًا طويلًا مثل الرّحلة السابقة؟".
- "لا، خمسة أيّام فقط، ليست هناك حاجة إلى أن تحملي أجهزة المسح الضوئي أو إلى الإذاعة اليومية، ولكن سوف أشعر بارتياحٍ أكثر إذا أتيتِ معي".
- "هل أنت مُتأكد؟".
- "أنا واثق من أنّني لن أرسل مالكي الأسهم الموتى، أخبرني المدير الإقليمي أنّه لن تكون هناك مُشكلة، بالرّغم من أنّه أوضح أنّني آخذ أفضل مُحرّر لديه".
- "بالفعل...".
- "حسنًا، لا تُحمّلي نفسك ما لا طاقة لك به، إذا لم تكن لديك رغبة في القدوم فلن تكون هذه مشكلة، سنبحث عن شخصٍ آخر".

- "متى ستسافر؟".
- "الثلاثاء القادم، وسنعود يوم السّبت".
- "حسنًا، سآتي معك".
- "هل سيكون كثيرًا إن طلبت...؟".
- "ما الأمر؟".
- "أن تأتي بالمزيد من الكتب لكي نقرأها في الرّحلة".
- "أحضر معي دائمًا كُتبًا إضافية، سأجلب لك بعض الكتب التي تحتوي على رسومات".

ابتسم فرانشيسكو، كانت المرة الأولى التي أراه فيها يبتسم. كان في السّادسة والأربعين من عمره، وأنا على مشارف الثلاثين. بقينا معًا ثلاث سنوات، وهي المدّة التي تبقّت من حياته بعد أن عرفته.

تفحّصت شهادة وفاة جوليا بيرالتا، بدت كأنّها صورة جماعية أُعدت قسرًا على نحو تلائمنا جميعًا، متوتّرين ومن دون ابتسامة مع التّركيز على الحقيقة فقط: يرتاح الناس، إمّا بالمرض وإما بالقتل. ضع قدمك في المكان الخاطئ، إمّا أن تطير في الهواء وإما أن تسقط إلى أسفل الدرج. يموت النّاس إمّا بسبب ما فعلوه وإما على أيدي أُناسٍ آخرين. ولكن الإنسان يموت وهذا ما يُهمّ.

في العام نفسه الذي رحلت فيه جوليا بيرالتا عن عالمنا، اكتشفت من هو الشّخص الوحيد الذي مرّ في حياتي كما لو أنّه سيبقى فيها إلى الأبد. أنا، من أصبحت أرملة بالفعل في سن العاشرة، عدتُ لأصبح

أرملة مُجدّدًا في عمر التاسعة والعشرين، قبل أسبوع واحد من زواجي بفرانشيسكو سالازار سولانو، المراسل الصّحفي الذي وجده رجال العصابات مُذنبًا بالتقاط الصّورة التي فاز بسببها بجائزة حرّية الصّحافة الإيبيرو-أميركية، الصّورة التي تُظهِر كيف ترك رجال العصابات المخبرَ التّابع لهم بعد اكتشافهم أنّه قد سرّب بيانات تفضحُ تورطّ حكومة القائد الرئيس في توجيه أوامر لقتل رجل الأعمال الذي كان من المفترض تحريره، والتي كانت تحاول القضاء عليه منذ شهور مضت مثل ذاك الرّجل السّيئ الحظ، كانت لفرانشيسكو علاقة أيضًا، طريقة القتل التي يستعملها رجال العصابات ضد الخونة: لقد شقّوا حنجرته وأخرجوا لسانه من رقبته.

عندما التقت أميّ بفرانشيسكو، تفحّصته من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه، وقد أنقذته في ذاك الموقف. قالت لي أمي إنّه طويل، وقد كان طويلًا فعلًا، يناهز طوله المترين تقريبًا، وله جسد مُمتلئ ورياضي. في المرة الأولى التي مارسنا فيها الحب، ظننت أن أحد أضلاعي قد تحطّم، لم يحدث ذلك إلّا أنّه كان على وشك الحدوث. لم تُحبّذ أمّي هذه العلاقة وانتقدته في كلّ شيء: ابتداءً من ذقنه المحلوقة بشكلٍ سيئ، إلى فارق السنّ الذي يزيد على خمسة عشر عامًا، وليس انتهاءً بطفليه اللذين رُزِق بهما من زواجٍ سابق.

"أنت راشدة وأنتِ تعرفين ما تفعلين"، هكذا قالت لي عندما أخبرتها أنّني سأعيش معه. قالت لي أيضًا إذا كُنّا سنعيش في بيتٍ واحد فلماذا في بيته وليس في بيتك، إنّ الطفلين هما طفلاه وليسا طفليكِ، لا

تكوني بينهم دخيلة كأنّك صرصار، من سيرتَي الطفلين إذا لم يكونا طفليك.

لم أخبر أمّي ولم تسألني هي بدورها، ولكنّها كانت تعرف سلفًا أنّني مستعدّة للذهاب حتّى نهاية العالم مع فرانشيسكو، كما يذهب الجنود إلى الخنادق معًا وهم مسحورون بتأثير اليانسون، هكذا يُعرف مقدار الصّدمة عندما تكون بليغة. إذا ما كان عليّ أن أختار أحد الحدود التي عبرناها، فسوف تكون بشرتك. لقد صوّرني فرانشيسكو براحة يديه وبرؤوس أصابعه. أحببنا بعضنا بصمت، ولم يمنحني أيّ شيء، ولم يقل لي وداعًا حتّى. تلقّيت خبر إعدامه بعد يومين من موته، عندما انشغلت وكالات الأنباء بخبر وقوعه ضحية لجريمة قتل. "الحائز على جائزة حرية الصّحافة الإيبيرو-أمريكية فرانشيسكو سالازار سولانو، ذُبح عند ضفّة نهر ميتا، على بعد بضعة كيلومترات من بويرتو كارينو، على مقربة من نهر الأمازون".

أصبح ذاك النّهر بمثابة مستنقعٍ للعار الذي يبعث على الغثيان. لقد خانه أحد الأشخاص الذين كانوا من مصادره، ليس المُخبر الذي اكتشف رجال العصابات أمره، إنّما الفتى الآخر الذي لم يكن موضع شكّ أبدًا؛ كان ذاك الفتى قد أخذه سابقًا إلى أحد الحقول حيث التقط أفضل الصّور في حياته المهنية، وهي صور أحد المُخبِرين الذي قتله رجال العصابات وتركوه مُلقى في أحد الحقول: كان رأسه مقطوعًا وموضوعًا بين يديه، ووضعوا في فمه خصيتيه وعضوه الذكري. أجل لقد قتلوا الخونة قرب الحدود. تناقش أولئك النّاس حينها في شأن

هوية الشّخص الذي سيكون مادّة أفضل للأخبار في اليوم التالي في كشك بيع الصّحف، هل سيكون الأمر الحادي عشر هو القتل بشظية حجر أم بكسر عظام الرّقبة: لن يتكلّم بعد الآن. لذا أتى فرانشيسكو إلى المقبرة وهو يرتدي ربطة عنق مختلفة عن التي كان سيرتديها في زفافنا ولم تُتِح لي فرصة أن أعطيه إيّاها. رافقتني أمّي إلى المقبرة ولم تقل شيئًا، وكذلك الأمر عدنا للمنزل بصمت، لقد أحببنا الأشخاص الموتى. بعد مرور بضعة أيّام أتى شاهد عيان وأخبرنا عمّا حدث على ضفّة نهر ميتا، وهو فتىً آخر.

لقد استخدموا الصّبية الصغار رسلا لإيصال رسائلهم. أتى الفتى إلى مركز الحرس الوطني وطلب أن يرى الضابط المسؤول، وهناك أمام المُدّعين العامّين العسكريين ربط ما بين الحلقات المفقودة للمجزرة التي أخبروه أن يرويها على مسامعهم. لقد أرسلوا شخصًا لا يستطيع أن يفهم شيئًا مِمّا رآه لكي يصف اللطخة الدّاكنة للموت بصوته البريء.

عثرت في ذاك الظرف الأحمر على ثلاثة حسابات بنكية ملفوفة بغلاف شفّاف ومفصولة عن باقي الأوراق بورقٍ مقوّى، اثنان من هذه الحسابات في البلاد والثالث في إسبانيا. أعطت حركة الإيداع والسّحب فكرة واضحة للغاية عن الميراث الذي تركته الأم لأورورا بيرالتا. كان المال الموجود في الحسابين المحلّين يكفي للعيش لمدّة شهر. أمّا الحساب الإسباني فكان أبعد ما يكون عن توصيفه بالحساب المتواضع: بلغ المال فيه أربعين ألف يورو بشكلٍ إجمالي. بحثت بشكلٍ دقيق، تتبّعت الدلائل والسحوبات ودفاتر الشّيكات، وعثرت عليها في ظرفٍ مختوم لونه قشدي. طبعت أورورا بيرالتا التغييرات التي كانت تطرأ على حسابها، وهي صفحات من دفتر الإنترنت حصلت عليها من الإنترنت واستخدمت قلم التمييز الفوسفوري ورتّبتها في تسلسلٍ تاريخي.

أودعت الدّولة الإسبانية في الحساب ثمانمئة يورو شهريًا وهو الراتب التقاعدي، إضافة إلى أربعمئة يورو تعويضًا عن الإعاقة، وكِلا الإيداعين باسم جوليا بيرالتا. كانت معاقة؟ ما هي إعاقتها؟ وما هو

السّبب؟ لم ألاحظ أيّ تشوّه واضح عليها. تفحّصت كلّ درج بحثًا عن أمرٍ آخر. كنت مُتيقّنة من أنّ أورورا بيرالتا احتفظت بمبلغ نقدي من عملة اليورو. لم يعد هناك أي شيء يمكن أن أدفع لقاءه بعملة البوليفار، حتّى العصابات العادية طالبت بفديات بالعملة الأجنبية مقابل الإفراج عن المختطفين. لا بُدّ أن المال موجود في هذا المنزل، ولكن أين؟ عثرتُ على صندوق خشبي في الرفّ الأعلى من الخزانة، خلف صندوقٍ آخر يحتوي زينة الميلاد. كان يوجد داخل الصّندوق الخشبي ألبوم صور ذو غلاف من الورنيش الثقيل إضافة إلى صندوق آخر احتوى على قصاصات ورقية: أخبار عن هجوم وقع قبل سنواتٍ عديدة مع العديد من أوراق النّعي لفابيان بيرالتا فييغا ووالده، وقد كانت شهادة ميلاده موجودة أيضًا.

تم إصدار شهادة الميلاد في القيد المدني في فيفيرو في آذار من عام 1948. وجدت علبة بلاستيكية أُخرى في داخلها دفتر عائلة. تزوّج فابيان وجوليا في لوغو في حزيران من عام 1971 في فيفيرو، وهي المدينة التي وُلدا فيها. بالكاد استمرّ زواجهما لسنتين: شهادة وفاة فابيان بيرالتا مُؤرخة في العشرين من كانون الأول عام 1973. تناولت جميع القصاصات الورقية من الصّحف نفس الخبر، وهي صحف منشورة في الحادي والعشرين من كانون الأوّل عام 1973: انفجار سيّارة طراز دودج 3700 جي تي تزن 1800 كيلوغرام تقريبًا كان يستقلّها لويس كاريرو بلانكو؛ رئيس الحكومة الذي كان مسافرًا من إسبانيا. انفجرت القنبلة به غداة سفره جوًّا من مدريد. كانت الورشة

التي عمل فيها فابيان بيرالتا مجاورة لكنيسة سان خورخي حيث تجمّع العسكريون ليستمعوا إلى إحدى الخُطَب العلنية. تلقّت الورشة موجة الصّدمة بفعل الانفجار مِمّا تسبّب بمقتل فابيان بيرالتا، أمّا الجهة المسؤولة عن التفجير فكانت منظمة إيتّا الانفصالية التي اغتالت السّياسي الذي تم تعيينه من قبل فرانكو ليشغل منصب رئيس مجلس الوزراء.

نُشر دليل وفاته بشكلٍ جانبي ضمن ملاحظة في أعلى صفحة في الصحيفة وتلاها نعي لثلاثة أشخاص. لهذا السّبب بدت على جوليا الملامح الكئيبة للأرملة الحزينة طوال الوقت، وهو أمر ورثته ابنتها أورورا بيرالتا بسهولة. جعلهما موت فابيان بيرالتا عجوزين على الفور. لطالما ارتدت جوليا تلك الفساتين التي يصل طولها حتّى الرّكبة، وهي أثواب مُتزمّتة جعلتها تبدو أكبر سنًّا مبرزةً ساقيها المكتنزتين. اكتسبت ابنتها تلك السّمة الجمالية؛ بدت تلك الفتاة كما لو أنّها مخلوق غامض ومشوّش، وعندما أصبحت ناضجة لم تكتسب صفات وخصائص أفضل. كانت من ذاك النّوع من الأشخاص الذي يعطي انطباعًا أنّه مُستقر في حدود أبدية: ليست كريولية ولا إسبانية، ليست جميلة ولا قبيحة، ليست عجوزًا ولا شابّة. كان قدرهما مُحتّمًا بأن تستقرّا في تلك النقطة التي لا تنتمي لأي مكان.

لقد كابدت أورورا بيرالتا من اللعنة الّتي ترافق أولئك الذين وُلدوا في مكان ما ويصلون متأخرين جدًّا إلى المكان التالي. وجدت

العديد من الصّور في ذاك الألبوم الأسود. تعود الصّورة الأولى لزفاف فابيان وجوليا؛ احتفال بسيط حيث تصوّرا على مذبح كنيسة فيها الكثير من النّوافذ، ثُمّ عند طاولة رفع فيها المدعوّون كؤوسهم مبتسمين. وظهر في صورة أُخرى فستان زفاف جوليا بيرالتا، كان فستانًا متواضعًا: قلادة وثوب بكُمّين يصلان حتّى المرفقين وفستان طويل أشبه ما يكون بغطاء المائدة، أمّا فابيان فارتدى بذلة موظف مكتبي مع ربطة عنق سوداء معقودة بشدّة على رقبة نحيلة كرقبة دجاجة. لم ينظرا إلى الكاميرا ولم يضحكا. تلت ذلك صور أخرى، وجميعها مُذيّلة بملاحظات مكتوبة بخط اليد. "رحلة الزفاف، البرتغال، 1971"، "عيد ميلاد فابيان، مدريد، آب عام 1971". في إحدى الصّور وقف الثنائي أمام قاعة طعام كبيرة، ارتدت جوليا ثوبًا جعلني أتنبّأ بالملاحظة المكتوبة أسفل الصّورة، "عيد الميلاد، 1971". هناك صورة أُخرى تُظهِر مجموعة من النّاس على طاولة ممتلئة بالصّحون. "عشاء رأس السّنة مع فابيان، باكيتا، جوليا، الجد والجدّة، عيد الميلاد لعام 1971".

بالنّظر إلى الصّور، يبدو أن بيرالتا كانت قلّما تسافر إلى لوغو. هناك بضع صور في فيفيرو، وواحدة مؤرخة في شباط من عام 1972، يظهر فيها فابيان مبتسمًا بهدوء أمام وعاء خزفي.

هناك صورتان أُخريان من تلك السنوات، فابيان وجوليا بيرالتا يبدوان أكثر أناقة من المعتاد. يقف فابيان باستقامة واضعًا إحدى ذراعيه على كتف زوجته، فيما يحمل بالذراع الأخرى طفلة رضيعة.

يوضّح شرحٌ مقتضب مناسبة التقاط الصّورة: "أورورا تكمل الشّهر الأول من عمرها، حزيران عام 1972". أسفل هذه الصّورة تمامًا، صورة أخرى يظهرون فيها ثلاثتهم خارج كنيسة سان خورخي. "تعميد أورورا، مدريد، حزيران 1972".

هناك صورة أُخرى أمام رواق الكنيسة نفسها؛ امرأة شقراء تحمل بين ذراعيها الطفلة الصغيرة. إنّها شخصية إلى جمالٍ مُحدّد مفقود في بقية الصّور. "أورورا وباكيتا"، هكذا يفيد عنوان الصّورة المكتوب بحرص وبخطٍّ مائل. التُقطت ثلاث صور أخرى في صيف ذاك العام في فيفيرو؛ واحدة لأورورا ووالدها على الشّاطئ، والأخرى يحمل فيها فابيان زهرة فيربينا أمام حوض لأسماك السّردين، وصورة أخرى تظهر فيها المرأة الشّقراء مُجدّدًا، باكيتا.

بإمكاني أن أرى هنا العروس تبتسم ويد رجل من دون الكثير من التفاصيل. "اقتران باكيتا وخوسيه، صيف عام 1972". هناك بضع صور أخرى من قبيل: "الخطوات الأولى لأورورا"، وأخرى لوالدها وهو يستلقي على العشب في حديقة: "فابيان وباكيتا في جاداراما". هناك شيء ما يتغيّر بشكلٍ مُفاجئ. تُظهر الصّور لعام 1973 المجموعة نفسها ولكن من دون فابيان: جوليا بيرالتا ترتدي الأسود دائمًا وأورورا بين ذراعيها. هناك المزيد من هذه الصّور. مجموعة من الأشخاص مُتجمّعين حول ما يبدو أنّه عيّنات للاختبار وقد ابتسم فيها الجميع باستثناء جوليا. "مدريد، 1974".

يتكرّر حضور باكيتا في معظم الصّور الجماعية. افترضت أنّها شقيقة فابيان أو جوليا. ظهرت باكيتا في إحدى الصّور وهي ترتدي زيًّا محلّيًا وفتاة صغيرة بين ذراعيها. "باكيتا وماريا خوسيه، 1978". هناك صورة أيضًا لجوليا بيرالتا تختلف اختلافًا جذريًا عن بقية الصّور. إنّها بمثابة شيء خارج عن النمط المألوف لبقية الصور. ارتدت في هذه الصورة زي مضيفة، تألّف لباسها من تنّورة رمادية ومريول أبيض مُنشّى، وربطت شعرها بشكل كعكة مع قلنسوة. كانت تقف مع مجموعة مكوّنة من سبع نساء ارتدين نفس اللباس. "الترحيب بالموظفات الجدد في بالاس أوتيل، مدريد، 1974".

ثم بطاقة من الورق المقوّى لبقية الصّور التي تم التقاطها في فنزويلا. بدت جوليا بيرالتا في هذه الصور أكثر امتلاءً، وأيضًا زالت عنها علامات الحداد، حيث وقفت في حديقة الأكاسيا القديمة. هناك ثلاث صور أخرى في حديقة لوس كاوبوس، وواحدة أمام خريطة منحوتة لجمهورية الهند في بارادايس، وصورة في معرض المنحوتات المعدنية المعاصرة للنحّات أليخاندرو أوتيرو من بلازا فنزويلا، لم يبقَ من هذه المنحوتات أيّ شيء، لقد سُرِقت جميعها. تظهر جوليا بيرالتا في صورة أخرى وهي تقف أمام طبق البابيلا بأبعاد كبيرة للغاية. تبدو والدة أورورا مبتسمة، هذه أوّل إيماءة حقيقية من بين جميع الصّور التي رأيتها. تمسك بيدها اليُمنى ملعقة خشبية كبيرة، ويقف إلى جوارها بيتانكور الذي تولّى منصب رئيس الجمهورية ما بين

عامي 1960 و1964، وهو أحد الآباء المؤسّسين للديموقراطية. يوجد أسفل هذه الصورة شرح مكتوب بخط اليد: "في عيد ميلاد السّيد رومولو، كاراكاس، 1980".

هناك العديد من الصّور الأخرى موجودة في ذلك الألبوم. في إحدى تلك الصّور، تقف جوليا وابنتها أمام أبواب كنيسة لا فلوريدا في عام 1980. في نهاية الألبوم هناك صورة ذات زوايا مؤطّرة بالورق المقوّى، وبعض البطاقات البريدية الموقّعة من قبل باكيتا التي لم تتوقف عن مراسلتهما حتّى العام الذي توفيت فيه جوليا. لقد بحثت في الأدراج عن المال وانتهى بي المطاف باكتشاف السّيرة الذاتية المجهولة لهاتين المرأتين اللتين عاشتا لسنوات بجواري، لا تفصل بيننا إلّا الجدران المتلاصقة.

عثرت في داخل الصندوق الخشبي الذي لم أكن قد تفقّدته بعد على ظرفٍ فيه رسائل، كُتِبت جميعها تقريبًا على ورقٍ مُصفَر، وتراوحت تواريخها ما بين عامي 1974 و1976، وجميعها موقعة من جوليا وموجهة إلى باكيتا. تحدّثت في الرسالة الأولى عن الرحلة من مدريد إلى كاراكاس في خريف عام 1974، وعن الوصول إلى بلدٍ يبدو غير معقول وغير قابل للتصديق أمام عينيها. "تزن الصراصير هنا نصف كيلو، نحن نعيش في منطقة فيها الكثير من الأشجار. هناك طيور الماكّاو والببغاء، تأتي كلّ صباح لتأكل على شرفة المنزل التي قُمنا بتركيبها بسعرٍ معقول". إضافة إلى الملاحظات الصغيرة المتعلّقة جميعها بالشؤون اليومية، كرّست جوليا جزءًا كبيرًا من ملاحظاتها

لتصف كيف تشرق الشمس على مدار العام، وكيف أن النّاس يعملون هنا. كان المهاجرون الأوروبيون يحصلون على عمل في فنزويلا منذ خمسين عامًا مضى.

كتبت جوليا بإسهاب عن التفاصيل المُتعلّقة بلون الفاكهة ورائحتها، اتّساع الشوارع والطّرق السريعة. "إن المنازل هنا أكبر من المنازل في إسبانيا ومن أي مكان آخر في العالم، وهي تحتوي أيضًا على معدّات كهربائية، اشتريت خلّاطًا كهربائيًا، مِمّا سيتيح لي إعداد الكثير من حساء الغازباتشو وتخزينه في الثلاجة إلى أن أستعمله لإعداد الغداء، وهو ما يتناولونه عند إعداد الطّعام هنا". إنّها أحد الأشياء التي كرّرتها جوليا بيرالتا كثيرًا: مدى كثرة الأدوات والأشياء التي من الممكن شراؤها، بالطريقة نفسها التي كانت تتفقّد فيها أمي المنتجات المعروضة في الكاتالوج الخاص بسلسلة متاجر سيزر للأدوات المنزلية، تلك المعارض الضخمة التي اعتدنا الذهاب إليها في أيام السّبت عند حلول العصر، بعد تناول المثلجات في مطعم كريما بارايسو دي بيلو مونت.

في الرسالة التالية وبعد وصولها إلى المدينة بشهر، في كانون الأول من عام 1974، أعلمت جوليا باكيتا أنّها تواصلت مع الراهبات في السكن الجامعي "للسيدات الشابات" في إسكان إلبارايسو وأنّهن قبلن رسالة التوصية التي أرسلها رئيس الطّهاة في بالاس أوتيل. "إنّ الأم الراهبة كما وصفتِها لي بالضبط؛ لطيفة للغاية وورِعة، لم تفقد لكنتها الجاليسية على الإطلاق بعد عشر سنوات من وجودها هنا،

وقد أخبرتني أنّه إذا وجدت الأمر ملائمًا، فإنني أستطيع أن أتولّى مسؤولية مطبخ الطلاب المقيمين".

عندما كنت على وشك قراءة الرسالة التالية، سمعت الضجيج العالي لزوجة المارشال ومخلوقاتها. أغلقن الباب بعنفٍ واستخدمن مُكبّرات الصوت التي لديهن لموسيقا الريجتون الأزلية التي سمعتها خلال الأيام القليلة الماضية. "تو-تو-تو-تومبا لا كاسا مامي، توتومبا-ذا-مامي-هاوس". كيف يمكن لأحد ما أن يؤلّف موسيقا خاصّة للاحتفالات من كلمة "قبر"؟ وضعت أذني على الجدار وأصختُ السّمع، أعتقد أنّ هناك المزيد من الأشخاص. لقد دوت أصوات أولئك النساء وفاقت صوت الموسيقا. أعدت الصندوق وألبومات الصور إلى مكانها الأصلي، محاولةً أن أتركها في الترتيب نفسه، وهو ما يبدو الآن أمرًا عبثيًا وسخيفًا. من سيأتي للتحقّق من أنّ كل شيء على حاله؟ تصرفتُ كما لو أنّ أورورا وجوليا ستعودان في أيّة لحظة لتطالبا بما هو ملكٌ لهما.

بحثت عن مكان مناسب لإخفاء الظرف الأحمر الدائري، بدا الإعلان عن وجود زوجة المارشال وقوّاتها كأنّه منحهنّ قوّة لم يكنّ يملكنها بالفعل. كنت خائفة كما لو أن لديهن القدرة على تجاوز الجدران ليشاهدن من خلالها ما أفعل أو ما توقفت عن فعله. كنت مذعورة. هناك فتىً نائمٌ تحت سقف البيت لا أعرف شيئًا عنه، يمكن أن يكون سانتياغو أيّ شيء: شهيدًا أو مجرمًا أو خائنًا. اكتشفت في تلك الغرفة الغريبة أنّني وحيدة تمامًا. ينبغي عليّ أن أفعل شيئًا ويجب

أن أقوم به بسرعة. نظرت إلى الجدران البيضاء وحدّقت إلى لوحة منسوخة عن لوحة موريلو الطّاهرة، وهي نفس اللّوحة التي لدى خالتيّ في القاعة الرئيسة في نُزل فالكون. اقتربت من اللوحة وحملتها، عندما نظرت إلى ما يوجد خلفها، وقع ظرفٌ مختوم بالقرب من قدميّ. كان الظرف مليئًا بالأوراق النقدية من فئة العشرين والخمسين يورو.

عند تقاطع الطّرق ما بين تارميرو وبالو نيجرو، كان هناك خزّانٌ معدنيٌّ صدئ عليه شعار من ثلاثة حروف، P.A.N، وهو اختصار للمنتجات الغذائية المحلّية، والعلامة التجارية التي أنشأت أول شركة بيرة فنزويلّية لتصنيع الدقيق المطبوخ مُسبقًا، وهو المنتج الذي أطعم البلاد لعقود بفضل كعك الذرة وعجينة الذرة المحشوة باللحم والكعك المُحلّى التي تم إعدادها بالاستعانة بتلك الخلطة، تم تخزين الحبوب المستعملة لأجلها في مستودع شركة ريمافينكا، وهو مصنعٌ موجود في مكان يبعد مئتي كيلومتر عن أوكامار دي لا كوستا. كان ذلك المصنع هو المخزن الذي يعتمد عليه إقليم أراغا، الإقليم الذي وُلدت فيه أمّي حيث الدقيق من أهم منتجاته، إضافة إلى الرمّ وقصب السّكر.

سوّق الدّقيق في عبوات صفراء طُبِعت عليها صورة امرأة ذات شفتين حمراوين كبيرتين وترتدي أقراطًا ضخمة في أذنيها وشالًا مُنقطًا على رأسها. إنّها من دون مبالغة النسخة الكريولية الفلّاحية من كارمين ميراندا؛ وهي مُمثلة من أميركا الجنوبية شقّت طريقها إلى

أستوديوهات توينتيث سينتشري فوكس إضافة إلى موائد الطعام في جميع المنازل الفنزويلّية. على الأقل حتّى قدوم الموجة الثانية من المجاعة والندرة اللتين رعاهما أبناء الثورة، ليختفي هذا المنتج بشكلٍ كامل ويصبح من الكماليات، لقد أطعمت منتجات P.A.N الآلافَ من الرجال والنساء، وهي الديموقراطية التي تجلّت بحق في تلك الذرة الصناعية، وليس البرجوازيين الذين لم يوزّعوا النشاء بالتساوي والذي خُبِزت فيه ذكرياتنا.

أتى هذا الابتكار من نبات الجُنجل الذي تم تخميره على الطّريقة الألمانية ليروي حسرة تلك البلاد وعذابها، البلاد التي استبدلت بالثمالة والنشوة الحربَ التي قضت على أعمدة الكهرباء وأسلاكها، النّساء اللواتي زرعن الذّرة من خلال الضرب بهراوة على عمود الكهرباء الخشبي الغليظ المصنوع من جذع شجرة والذي أطلّ على البيوت والباحات المُشمِسة. أتت من ذاك المكتب أغنيات عمود الكهرباء، وهي صلاةٌ من العرق والتعب، لحنٌ رافق الحبوب اللذيذة والنّيئة. النساء التعيسات اللواتي رششن بفعل ضربات الهراوات قشور الحبوب التي حصلنا منها على الدّقيق، فقد تم إعداد ذاك الخبز السّيئ منها في المواقد العاملة على الخشب، في تلك البلاد التي كانت تعاني من الملاريا.

منذ ذلك الحين، أصبحت الموسيقا بمثابة دقّات القلب. هناك دائمًا امرأتان تثرثران معًا بشكلٍ مُتناغم. من هنا جاءت تلك الأغنيات التي تبدو أنّها تؤكّد إحدى الحقائق: لقد قُدِّر لنا أن نعيش في مأساة،

مثل الشّمس والأشجار المُحمّلة بالفاكهة اللذيذة والكبيرة. تلك هي الأشياء التي تحدّثت عنها أغاني عمود الكهرباء، الأشياء الصغيرة والنّساء غير المُتعلّمات اللواتي أطلقن أحكامهن ضدّ عمودٍ خشبي أتت منه أغانيهن التي تذكرتها عندما مررنا بمُفترق الطّرق.

- "أديليدا، استيقظي يا بنتي، لقد وصلنا إلى معمل ريمافينكا".

لم يكن هناك داعٍ لأن تُخبرني أمّي، فقد عرفت من رائحة الشعير القوية المُحبّبة لقلبي أنّنا وصلنا. رائحة الشعير والخبز التي جعلتني سعيدة. عندها بدأت بغناء الأشعار التي تعلّمتها من السّيدتين العجوزتين في أوكامار.

- "أضرب عمود الكهرباء بقوّة... إيو، إيو".
- "انكسر ذاك للعمود للتوّ". أكملت والدتي بصوتٍ خفيض للغاية.
- "أنتِ عاهرة وأمّك عاهرة..."
- "ليس ذاك الجزء يا أديليدا، لا تردّدي ذاك الجزء".
- "جدّتك عاهرة وخالتك عاهرة، إيو، إيو...".

قلت لها وأنا أضحك.

- "لا يا بنتي، أنشدي فقط الأشعار التي علّمتك إيّاها خالتك إميليا، رأسي يؤلمني بالفعل، إيو، إيو، من ضرب عمود الكهرباء كثيرًا، إيو، إيو، لأشتري خنزيرًا بدينًا وثيابًا للنوم، إيو، إيو..."

أنشد الزّنوج هذه الأشعار فيما كانوا يعدّون كعك الذرة بأيديهم أمام قالب صنع الكعك السّاخن الذي اشتروه من السوق. بدأت كلّ جملة بلُهاث "إيو، إيو"، التأوّه الناتج عن بذل الجهد.

هناك على أعلى التّل،

إيو، إيو،

يجري زفافٌ مدني،

إيو، إيو،

تزوّج الرجل ذو الشفتين الغليظتين الشبيهتين بشفتي الحمار ولديه كمان

إيو، إيو،

إذا كان لزوجك،

إيو، إيو،

دعيه يأخذه وليذهب بعيدًا

إيو، إيو،

لم أحصل على ثياب النّوم المصنوعة من قماش الكريتون

إيو، إيو.

كانوا يغنّون ورؤوسهم ملفوفة بالقماش ويدخّنون التّبغ. نفثوا دخان سجائرهم مثل النّساء اللواتي يرثين ويندبن، أولئك النّساء اللواتي تدفّقت ذرّيتهن للعالم من بين أفخاذهن، اللواتي تركن العالم يتدبر أمر إطعام ذرّيتهن، كُنّ مُرهقات على الدّوام بسبب الولادة. أولئك النّساء الضعيفات، ذوات القلوب الهشّة مثل الخبز والبشرة

البرونزية بفضل الشمس وحرارة الموقد والمكواة. الإناث اللواتي رششن الكعك باليانسون الحلو رغم كلّ الحسرة والشّجن.

التفت بنظرك نحو الشيطان

إيو، إيو،

من قلب الشّيطان،

إيو، إيو،

من سيُدلي بشهادته لديه لسانٌ أسود،

إيو، إيو،

لا أريد رجلًا مُتزوجًا،

إيو، إيو،

لأنّه يلذع بغرض القتل،

إيو، إيو

أريده أن يكون عازبًا، لأن رائحته مثل الأناناس الناضج.

كانت هناك أغانٍ لجميع المهن والحرف، الممارسات المُندثرة للمزارعين الذين ذهبوا إلى المدن مع نداء الحافلة المغادرة مع أنغام العمل ثم وضعتهم في ذاك العالم: حلبُ الماشية والسّقاية والطّحن والكي. وأكثرها حزنًا، أغنية معصرة الفواكه ذات العجلات الخشبية، حيث يتم عصر قصب السّكر، الأعواد الجّافة والحلوة التي سقطت من الشّاحنات القادمة من وديان آراغا إلى أوكامار، وتلك التي استمتعت بمصّها، وأنا مختبئة أسفل طاولة الطّعام في نُزل فالكون. كانت أمّي تكتشف أنّني مصصت قصب السّكر عندما نكون مغادرين،

إذ إن الغلوكوز المُركّز في تلك العيدان الأرضية يسبب إسهال الأمعاء مثلما يفعل الرّم بالإدراك السّليم للرجال في الميدان. انتفاخ مثل نشوة الرّوح. تطهير كل شيء حملناه في دمائنا وقلوبنا. إن أغنية عمود الكهرباء هي موسيقا النّساء. تم تأليفها من صمت الأمهات والأرامل اللواتي أرهقهنّ تأخر الأشخاص الذين لم يعودوا، لأنّهم لن يعودوا.

رأيتك البارحة تسير وتحكّ رأسك،

إيو، إيو،

أخبرت شريكي أنّ الحقيرة ذهبت إلى هناك،

إيو، إيو،

لا تقولي عنّي حقيرة،

إيو، إيو،

لأنني شريفةٌ للغاية

إيو، إيو،

وليس لديك أدنى لوم لذاتك لأنك أتيت لإهانتي،

إيو، إيو،

أنت عاهرة وأمك عاهرة،

إيو، إيو،

جدّتك عاهرة وخالتك عاهرة،

إيو، إيو،

كيف لا يمكن أن تكوني عاهرة وقد أتيتِ من نفس السّلالة،

إيو، إيو

إنّ التّجويف مُتيقّن منه،

إيو، إيو،

أنّ كلّ شيءٍ يستحقّه،

إيو، إيو،

وهو يعيش في مزرعةٍ تهزّها الرياح،

إيو، إيو.

غنّتها خالتي إيميلا، الخالة البدينة، وهي تضحك في المطبخ، وقد طلبت إلي أن ألتزم الصمت في حال تفاجأت أمّي. كرّرت وراءها مثل ببغاء حزين ونحيل من دون أذرع وأرجل قوية كتلك التي يملكها الزنوج، أشخاص عمالقة ذوو بشرة بنية وهم يغنّون أمام قالب إعداد كعك الذرة، أشكال صارخة شبيهة بنيران الحقول. فتحت النافذة وحدّقت إلى شارعنا عديم الأشجار، مُتعقّبةً دخان الموت ورائحة خبز الذرة، أغمضت عيني واسترجعت بقوّة بقايا السّيرة الذاتية المصنوعة من تلك العيدان. إنّ الحياة هي ما حدث، ما فعلناه وما صنعوه. الطّبق الذي كُنّا فيه مقسومين إلى نصفين مثل الخبز الذي على وشك الانتفاخ.

- "لديك الكثير من عدم الثّقة لكي تنامي والباب مغلق بترباسٍ من الدّاخل؟".

- "صباح الخير سانتياغو، أجل أنا بخير، شكرًا لسؤالك. بالمناسبة، أخفض صوتك، كُلّما استطعت أن أمنع الغزاة في الشّقة المجاورة أن يدركوا وجودي كان ذلك أفضل. إن المنشفة التي تركتها على الطّاولة هي لك، خذها". عدت إلى الشّرفة، لا يزال المتراس الذي ينبعث منه عمود الدّخان في مكانه. لم يكلّف أحد نفسه عناء إبعاد الحاويات أو تنظيف السّاحة التي لا تزال مليئة بالعوائق: قطع من الإسمنت مفصولة عن الأرصفة، زجاجات وعصي مكسورة. لم تعد أورورا بيرالتا على حالها، هناك كتلة مُتفحّمة في المكان الذي تركتها فيه. قلت لنفسي *كُلّ شيء على ما يرام*. بقيت واقفة عند النّافذة فترة أطول من المعتاد، كما لو أنّني أفقد الاتصال مع ما يجري وأعاوده. هناك بقع دم وزجاج مكسور على الإسفلت، وفي اتجاه الحي من لا كال نزولًا عبر جادّة بانيتيون، رأيت مجموعة مؤلّلة من أبناء الثورة. قارب عددهم الثلاثين. تقدّموا بشكلٍ مُتعرّج.

حملوا مكبّرات صوت وصرخوا بالعبارات المُعتادة: "لن يمرّوا! لن يعودوا! فلتحيَ الثّورة!"

أجل، على جثث الآخرين.

"فيمَ تفكّرين؟". أخرجني سانتياغو من السّديم الذي كنت فيه.

أجبت من دون أن أنظر: "بأسرع طريقة للخروج من هنا".

كنت منزعجة من الطّريقة السّريعة والعنيفة التي كان عليّ أن أطلب بها الأشياء، إضافة إلى عقلية إيجاد الحلول، بالطريقة نفسها التي قد استُعين فيها بقائد لكي يعيد النّظر.

تابعت كلامي:

- "اعثر على مكان لتختبئ فيه، لا يمكنك البقاء هنا".
- "لا أستطيع".
- "يجب أن تستطيع، وستفعل، ليس الآن، ولكن عليك أن تفعل ذلك. اتّصل بآنا، أو بصديق، ما الذي أعرفه...".
- "ليس لديّ مكان ألجأ إليه".
- "ولا أنا، ولا تلك السّيدة التي تراها تعبر الشّارع، ولا حتّى آلاف الناس المجانين المحتجزين في هذه المدينة. سيكون صديق ما من الكلّية قادرًا على استضافتك لبضعة أيّام".
- "أجل، هذا صحيح يا فتاة، أنا واثق من أنّهم أخرجوهم بالفعل من منطقة الاحتجاز في الإيليكويد. لا، انتظري، لديّ فكرة أفضل! بإمكاني أن أسلّم نفسي لقائد المجرمين السّود

في البداية. سوف يكون سعيدًا بسماع أنّني كنت مرتبكًا، لقد أضعت طريقي ولهذا لم أستطع أن ألتحق بهم بالأمس".
بحث عن سيجارة أخرى في جيوبه التي كانت فارغة. "ولكن كما تعرفين، فأنا فتى كتوم ومُتحفّظ وذكي، ولن يعتقدوا حتّى أنّني أخبرت أحدًا. بالطّبع سيتفهّم الأشخاص في القيادة ما حدث وسيتوسّطون لي أمام قادة المجموعات لكيلا يقتلوني برصاصة في الرأس".

طقطق بأسنانه، لقد اخترقني بعينيه الدّامعتين لأنّه فتى عبقري، النّسخة الخائفة من المراهق اللامع الذي قابلته: طويل ونحيل مثل جذع شجرة مع أغصانها، مع ذقن وفك مُحدّدين للغاية، الإيماءة المزهوة واللطيفة، البلوغ الجسدي الذي لم يواكب بشكلٍ كامل نضج شخصيته. إنّ كونه الأخ الأصغر لآنّا جعله أيضًا بمثابة أخي الأصغر، لهذا شعرت بالمسؤولية الأخلاقية لكي أصفعه، وإذا لم أفعل ذلك فلأنّه تلقّى نصيبه من الضرب والتعنيف من الآخرين.

- "سانتياغو، دع السّخرية جانبًا، إن هذه العجينة ليست لصنع الكعكة".
- "هل ستعطينني دروسًا في الحياة؟ وأنتِ يا أديليدا؟ ماذا بشأنك؟ كيف لا تقولين لي ما هي قصتك؟ إنّ هذا المنزل ليس لك ولا لعائلتك. ليس في هذا المنزل كتابٌ واحد وأنتِ أصلًا لا تعرفين الكثير، أين نظارتك؟ ماذا كنت

تفعلين في وسط الفوضى؟ لا أجدك تكرّسين نفسك للمقاومة ولا لميليشيات الضواحي. ما الذي حدث؟ لماذا كنتِ تركضين مثل المجنونة؟ ما الذي كنتِ تبحثين عنه؟ ما هو الشيء الذي تخلّصت منه؟ بما أنّ وجهك كان بارزًا في وسط الفوضى، فقد فضّلت أن أكون الشخص الذي يواجهك بدلًا من أن يأتيك أحدٌ آخر، وكنت مستعدًا لأن أوسعك ضربًا، أو أطلق عليك الرّصاص".

- "صمتًا، أخفض صوتك! أنت فعلت ما فعلته لأنّك أردت ذلك، إنّ هذا مُثبت جدًا، أستطيع في هذه المرحلة من حياتي أن أعتني بنفسي بشكلٍ أفضل بكثير مِنك، بالمناسبة ليست لديّ نيّة لأن أشرح لكَ أيّ شيء. لقد تقدّم بي العمر على تقديم التفسيرات والتوضيحات لفتى ذي حلمات. أنا أتفهّم أنّه لا يوجد لديك مكان تلجأ إليه، وأنّك مررت بأوقات عصيبة. أستطيع أن أتفهّم كلّ هذا، ولكن عليك أن تفهم أمرًا: أنت تقول إنّنا لطخات على التاج، حسنًا فليأخذ الجميع الاستشارة النفسية من الهراء الذي تقوله. بإمكانك أن تبدأ بالذهاب إلى بيت أختك، وكلّما أسرعت كان ذلك أفضل. بإمكانك أن تبقى هنا ليومين، خذ قسطًا من النوم لأنّك بحاجة إليه، لكي تستطيع التفكير بهدوء. اهتم بشؤونك فقط. ثم ارحل. لم ترزقني الحياة بالأطفال ولن تكون أنت طفلي البكر، هل نحن متفقان؟".

لم أرَ علامات الدّهشة والذهول على سانتياغو في الساعات التي أمضيناها معًا مثلما أراها على وجهه الآن، حدّق إلى الأرض وعقدَ ذراعيه أمام صدره.

سألت بإصرار: "هل نحن متّفقان؟".

امتدّت فترة الصّمت، وأصبح الجو متوترًا.

- "نحن متّفقان يا أديليدا، نحن متّفقان".
- "يبدو هذا جيدًا لي، وإذا سمحت لي، فإنني سأذهب إلى المطبخ، جاء دوري لكي أشعر بالجوع".

فتحت خزانات مطبخ أورورا بيرالتا الذي كان مفروشًا بأثاث قديم لغرفة طعام، من الكؤوس والرّفوف والأدراج التي احتوت على الفضيات وأدوات المائدة. هناك مجموعتان مُكدّستان من الصحون؛ واحدة لصحون الحساء والثانية للصحون المسطحة. عثرت على أدوات مائدة من لا كارتوجا أفضل من أدوات المائدة التي في منزلنا ذات المظهر الخزفي، بدت الأدوات التي وجدتها هنا كما لو أنّها مستودع محفوظ لما كان ناقصًا في رفوف منزلنا. كانت تلك الأدوات كما لو أنّها مُعدّة للاستخدام في المناسبات الرسمية: أواني تقديم الحساء، فناجين القهوة والصحون المرفقة بها.

أخذت أحد الصّحون وتفحصته بحذر. أدركت أنّه مصنوع بعناية وإتقان يفوقان الأدوات التي رأيتها سابقًا، لدرجة أنّني شكّكت بأصالة أدوات المائدة التي كانت تحتفظ بها أمّي بحرص كما لو أنّها أشياء ثمينة. لم أصدّق أبدًا أنّنا نحن عائلة فالكون، تناولنا الطّعام في

أطباق أكل فيها الأمير أميديو دي سافوي، ولكن عندما رأيت هذه بدأت أفكر في أنّ أدوات المائدة الأصلية من لا كارتوجا هي الأدوات التي احتفظ بها آل بيرالتا وليس نحن. أردت أن أكون الشخص الذي يأكل في هذا الطّبق ويستعمل هذه الأدوات. حتّى لو حوّلتني الظروف إلى ضبع، لا يزال لديّ الحق في ألّا أتصرّف مثل الضّبع. يمكن أن يتم تناول الجيفة بالشوكة والسّكين. فتحت المزيد والمزيد من الأدراج، وعثرت على المزيد من الطّعام المُعلّب: دقيق القمح، وباستا للطّهو، وعبوات مياه معدنية، إضافة إلى القهوة، والسّكر، وحليب بودرة، وثلاث عبوات زجاجية لنبيذ ريبييرا دويرو.

هناك سمك تونا مُعلّب يكفي لأسبوع، إضافة إلى الفلفل الحلو الموضوع في الزّيت والزيتون. هذا هو طعام البيت الإسباني، وهو أمر غير مألوف في هذه المدينة التي لا تعلم حتّى كيف سيكون بمقدورها تأمين الخبز.

وجدت ستّ بيضات في البرّاد، ووعاء مملوءًا حتّى منتصفه بمربّى الجوافة وجبنة للدّهن، وأيضًا طماطم وبصل كانت بحالة جيّدة. هناك ستّ قطع من اللحم في الفريزر موزّعة في أطباق منفصلة مصنوعة من البوليستيرين. شعرت برغبة لا تقاوَم في تناول شريحة من اللحم، شيء يُشبع الجوع المتراكم، لأنّني لم آكل منذ يومين وبدأت أشعر بالاستياء. لكنّني تذكرت زوجة المارشال وقوّاتها اللواتي سيستجبن بسرعة للرائحة، ولكن بالرغم من الجوع لم أرجّح أن ذلك سيحدث، لأنّهن يتلقّين أكياسًا وصناديق الطّعام التي تمنحها

الحكومة لمساعديها. ألقيت نظرة على غرفة الجلوس ووجدت سانتياغو ما زال هناك. "تعال، دعنا نأكل، لا توجد بيرة لكن يمكننا تدبّر أمرنا".

كان ظهره باتجاهي، وأضفى النّور المُشع من النّوافذ عليه صورةً ظلّية. بدا كما لو أنّه شبح، رأسه مُطأطأ وكتفاه مرتخيتان إلى الأسفل. عدت إلى المطبخ وأخذت التونا المُعلّبة والطماطم وبيضتين وطبختها في الماء. عثرت في أحد الدروج على دزينة من الأغطية البيضاء التي تُستخدم للطاولات، رُبّما استعملتها جوليا بيرالتا في مطعمها القديم. وضعت أحد هذه الأغطية على طاولة الطّعام كإعلان للسلام. أخذت قدحين وفتحت زجاجة نبيذ واقتربت من سانتياغو الذي كان يحدق إلى حذائه. نهض وأتى إلى الطاولة. قدّمت النبيذ وجلست بعد أن أخذت رشفة من كأسي. سألني عن حالة والدته.

- "هل تعرفين إذا ما تدهورت حالتها؟".
- "بحسب ما أعرف فإنّها بقيت على حالها حتّى الأسابيع القليلة الفائتة، في هذا العالم الذي ليس لنا أو لك فيه شيء".

قلت له هذا فأطلق صوتًا ينمّ عن الدّهشة. عند النّظر إلى هذه الناحية: على الأقل أنت لست مُدركًا بعد لهذه المُصيبة. إنّه لا يدرك على الإطلاق هذا الأمر.

- "لم تعد تتذكّرني أليس كذلك؟".
- "سانتياغو، لم تعد أمّك تتذكّر آنًا، إنّ الزهايمر يتفاقم عند عدم استعمال الأدوية".

- "هل تعتني أختي بأمّي جيدًا؟".
- "حسنًا، يخطر ببالي السؤال نفسه، إذا لم تُصب آنا بالجنون خلال الشّهور القليلة المُنصرمة بفعل التأثير المُدمّر لكل ما يجري. لا يمكنك أن ترجع إلى هنا، إمّا أن تتحرّك بسرعة وإما أنك ستنهار".

حدّق إلى كأسه وسألني عن سبب موت أمّي، وسرعان ما عبس عندما أجبته أنّها ماتت بالسرطان.

- "كيف تم إجراء العلاج الكيميائي؟ ليست هناك كواشف كيميائية، ليس هناك شيء".
- "اشتريت العلاج الكيميائي من السّوق السوداء، وفي العديد من المرّات لم أكن قادرة على التّأكد مما إن كان الدّواء الذي حصلت عليه هو الدّواء الصحيح".
- "يا للجحيم! أليس كذلك؟".

قال لي هذا من دون أن يرفع أصابعه عن الطاولة.

- "أيّا منها يا سانتياغو؟ السّرطان؟ أم الحكومة؟ أم ندرة المواد الغذائية؟ أم هذه البلاد؟".
- "أقصد يا للجحيم لأن أحدًا لم يساعدك".
- "اعتدت وأمّي على تدبّر أمورنا من دون أن نطلب المساعدة مِمّن حولنا".

ذهبت إلى المطبخ ووضعت الطماطم والتونا في صحنين، وفكرت في الطريقة التي ستمكّننا من تخزين الطّعام إذا بقينا محبوسين

هنـا، بـالنّظر إلـى أن سـانتياغو لا يسـتطيع المغـادرة، وبـالرّغم مـن أنّنـي أستطيع أن أخـرج إلـى الشـارع، إلّا أنّـه لـم تكـن لـديّ أيّـة نيّـة في أن أتركـه وحيـدًا في تلـك الشّـقة. علـيّ أن أتفقّـد كـلّ شـيء، ولا يـزال هناك العديد من الأمور الأخرى. زوجـة المارشـال والنسـاء الغازيـات اللواتي يرافقنها كُنّ مشكلةً أيضًـا. إنّ اسـتراتيجية الصّـمت التـي أتبعهـا أسـوأ من دعوتهن للإغارة على المكـان. قطـع سـانتياغو حبـل أفكـاري فجأة.

- "أتدرين يا أديليدا، لا أذكرك عندما كنتِ شابّة".

لقد أربكني هـذا التعليـق، أخـذت بيضـة مسـلوقة وبـدأت في نـزع قشرتها.

- "هل تدعوني بالعجوز؟".
- "لا، الأمر ببساطة...". بدأ يبحث عن الكلمات المناسبة كما لو أنّـه يريـد المواصـلة مـن دون إسـاءة الفهـم، "ليسـت لـديّ ذكريات عنك عنـدما كنـتِ في الجامعـة مـع آنّـا، أتـذكرك مـن حفلة الزفـاف، ولا أدري لمـاذا كانت آنّا تتحدّث عنـك طـوال الوقت".
- "وأنت يا سانتياغو، أنت بالنسبة إليهـا العبقـري الـذي يجـب أن تمنحه كلّ شيء. أتمنّى أن تجـد طريقـة لكـي تشـكرها في أحد الأيّام".
- "المصـوّر الـذي كـان معـك في حفلـة زفـاف آنّـا، لمـاذا قتلـوه بتلك الطريقة؟".

كان التعبير غير ملائم، بالرّغم من أنّه صحيح: فتحوا حنجرته وأخرجوا منها لسانه. تطلّب الأمر منّي الإجابة.

- "نشر معلومات شكّلت دليلًا للحكومة، ولم يسامحوه على هذا".

- "لا أعرف لماذا أنخرط في هذه النقاشات، رجاءً اعذريني".

رنّ الهاتف، نظر سانتياغو إلى الباب الخشبي، وضعت إصبعي على شفتيّ. لا تقل شيئًا، لا تفعل شيئًا، لا تتحرّك. بدأت ألعب بقشرة البيضة المكسورة أمامي، وسحقتها على غطاء المائدة. رنّ الهاتف مرّةً إضافية. بدا وكأن الأمر استمرّ لسنوات ونحن بانتظار أن يصمت الهاتف مُجددًا. ليس أمرًا جيّدًا أبدًا أن يقرع أحدٌ ما باب منزلك، وكان الأمر أسوأ في حالتنا. مرّت عشر دقائق لم نقل خلالها أيّ شيء. سمعنا صوت خطوات في الممر أمام الشّقة. حدّقت عبر ثقب الباب، رأيت ثلاثة رجال يرتدون ثيابًا عادية: لم يرتدوا زيًّا موحّدًا من أي نوع، لا القمصان الحمراء التي يرتديها أبناء الوطن، أو البذلات السّوداء التي يرتديها أفراد جهاز الاستخبارات، ولا البذلات ذات اللون الأخضر الزيتوني التي يرتديها الحرس الوطني. بدوا كأنّهم مجرمون.

توقّف أحدهم، بدا أنّه قائد المجموعة، أمام باب الشّقة. قال له أحد مرافقيه: "ليس هذا الباب يا جايرو، إنّه الباب الآخر". أجابه قائد المجموعة: "اخرس أيّها الوضيع". ثمّ انتقل إلى باب بيتي القديم. رنّ الجّرس، ودوى صوته عبر جدران غرفة الطّعام. كنت مذعورة، لقد

شكّل وجود سانتياغو مشكلة، وكان يعرف هذا. عندما سمعت صوت المرأة التي فتحت الباب، شعرت بخوفٍ أكثر. ما هو سبب هذه الزّيارة؟ هل أتوا ليستولوا على الشقق الفارغة؟ هل أتوا للقبض على سانتياغو؟ لم أستطع أن أتعرّف إلى ملامحهم بسبب الظلام في الممرّ. استندتّ بكلتا يديّ على الباب، راودني شعور بأنّني أحاول إيقاف قطار، كما لو أنّني أستعمل جسدي لإيقاف قطار الثّورة، أعداء التقدّم والتطوّر، القطار الذي يعرقل بلادنا.

اقترب سانتياغو من الباب، طلب إلي أن يلقي نظرة وهو يضمّ كلتا يديه، لو تسنّى لأحد أن يرى النّظرة على وجه شخص يوشك أن تُقطع رقبته، لذا أفسحت له المجال ليلقي نظرة وانتظرته. ظهرت زوجة المارشال عند عتبة الباب ودعت زوّارها للدخول. أوقفن موسيقا الريجتون، وأرسلت زوجة المارشال فتياتها إلى أسفل البناء، مع الرجلين الآخرين اللذين رافقا ما بدا أنّه أحد القادة. انتقلنا أنا وسانتياغو إلى غرفة النوم الرئيسة وجلسنا لنستمع إلى ما يقولانه. كان الحوار صريحًا وفظًّا. استطعت أن أفهم من الأشياء التي تحدّثا بها أنّهم يعرفون بشأن نشاطها، وأنّ ذلك لم يعجبهم على الإطلاق. بدا أنّ لمملكة زوجة المارشال حدودًا وأنّ الرجل جاء لتحديدها بوضوح. لدى الثّورة قطّاعات وطوائف وحصص، ويبدو أنّها تجاوزت ما هو مسموح لها.

قال لها الزّائر: "سأجعل الأمر أكثر وضوحًا، نحن نعلم أنّ شقيقك يعمل في وزارة الطّاقة العامة والأمن الغذائي والزراعي، نحن

نعلم أيضًا أنّك تحصلين على مقدار إضافي من أكياس الطّعام من التموين المحلّي ولجان الإنتاج، وأنك تجنين كثيرًا من إعادة بيعها، وما هو أسوأ، أنّك لا تشاركين هذا مع أحد. هذا الأمر لا يجوز".

لم تجب زوجة المارشال على كلام الرّجل ولم نستطع أن نتخيّل معالم وجهها. تحدّث الرجل مُجددًا من دون أن يفسح لها فرصة "هل أنتِ مُصغية لي يا حبّي؟ إنّ الجميع يعرفون أنّك تبيعين الطّعام إلى نخبة المواطنين، نحن نعلم أيضًا أنّك تحتفظين بكلّ شيء هنا. لا يمكن أن يكون الأمر على هذا النّحو. أراد القائد من الشّعب أن يدافع عن إرثه، لا أن نصبح أثرياء. إن ما يملكه الفرد هنا هو ملكٌ للجميع".

أخيرًا ردّت زوجة المارشال: "إنّ المؤن الموجودة في الشّقة هي ملكي، لقد أخذتها أولًا". أجابها الرّجل: "ليست ملكًا لك يا بنتي، ضعي هذا الأمر في حسبانك، نحن لا نحبّ الأشخاص الذين ينتهزون ذكرى القائد. لقد تصرّفت بأنانية مُفرطة، لهذا لن أعيد كلامي مجدّدًا: إمّا أن تعطينا كافّة صناديق الطعام التي أخذتها من اللجنة وسوف ندعك وشأنك، وإما أن الحرب ستبدأ".

بقينا أنا وسانتياغو ملتصقين بالحائط وحدّقنا ببعضنا بعضًا. بالنسبة إلى زوجة المارشال، يبدو أنّ شجاعتها قد خانتها: "لم أفعل شيئًا خاطئًا، الجميع يتصرفون على هذا النّحو". كانت نبرة صوتها أضعف. صرخ بها الرّجل: "هل ستعطينا الصّناديق أم ماذا؟". لم تتفوّه المرأة بأيّة كلمة. "لن أعيد كلامي مُجدّدًا، إذا اكتشفت أنّك لا

تزالين تعبثين معنا، فلن أمنحك فرصة للاختباء، تذكّري هذا جيّدًا، لن يكون هناك تحذير آخر!". أصبح الصّمت أطول وأشدّ توترًا، لم أسمع سوى صوت فتح الباب وإغلاقه بقوّة من قبل الزّائر. مرّت عدة دقائق، ثمّ أتت بضع نساء وصرخت بهن زوجة المارشال: "احملن جميع هذه الأكياس، سنغادر غدًا! أخرجن جميع الأكياس التي لدينا وتدبّرن بيعها! ووزّعن ما يتبقّى منها، سنُنهي النّقل اليوم!". أجابتها إحدى النساء: "هناك الكثير منها". ردّت زوجة المارشال: "بإمكانك أن تتدبّري أمرك، ألم أعطك اللائحة؟ ابحثي عنها، وتحقّقي من عددها، ستبدأ الفوضى اليوم ليلًا، وقبل أن نبدأ علينا أن نُخرج كل هذا الهراء من هنا، هل تصغين إليّ؟ أسرعن أيّتها الفتيات!". قالت لها مساعِدتها الأخرى: "لكن عليك أن تُسلّمي الصّناديق العائدة للجنة، لا نستطيع بيعها". استدارت زوجة المارشال نحوها وأجابتها: "أعلم أيّتها الحمقاء، أعطيني هذه الورقة". وبدأت زوجة المارشال بالقراءة: "رامونا بيريز: أعطينها كيسًا من الطّعام، لقد قامت بالكثير وهي ثائرة جيّدة، أعطين هذا الكيس لخوان جاريدا، إنّه يشارك في المسيرات أيّام الأحد، لا تقدّمن لماركانو شيئًا حتّى لو كان قنّينة ماء، ابنة الزّنا تلك...". "ولكن لدينا أمر أن نسلمها كلها". "لا أبالي بهذا يا فتاة، لا يهمّني هذا، لن يتم توزيع هذه الحصص، إنّها مُباعة، هل تسمعينني؟ وسوف تباشرين بنقلها، هيّا تحرّكي فيما أعالج هذا الأمر!".

صاحت إحدى المُساعدات: "سيّدتي! إنّ هذا الطّعام من الثّورة، لا نستطيع أن نعيد النّظر في أمر اتُخِذ فيه قرار من قبل القائد".

"أنا من يتحدث هنا بالنيابة عن القائد".

لم تتجرّأ المساعدات على مواصلة الحديث. سمعت أنا وسانتياغو أصوات النّساء وهنّ يجرجرن الكتل الموضوعة في الدّاخل، استغرق النّقل نصف ساعة. عندما غادرت النّساء بدأت زوجة المارشال في تحطيم الأشياء، واحدًا إثر آخر، ما الذي كانت تُحطّمه؟ ماذا بقي في الشّقة لكي يتم تخريبه إذا كُنّ قد دمّرن كل شيء من قبل؟ تلاشى الأمل لديّ مع كلّ شيء يتحطّم لإنقاذ وثائقي وأشياء أمّي. وضعت كلتا يديّ على فمي لكيلا أصرخ، وحاول سانتياغو أن يمسكني من ذراعي ليأخذني إلى غرفة الجلوس، ولكنّني تنحّيت جانبًا بطريقة خاطئة واصطدمت بالسرير مُعتقدةً أنّني تجاوزته، بفعل الخوف من إصدار أيّة ضّجة. لقد سلبوني كلّ شيء، حتّى الحق في الصراخ.

في ذاك المساء وددت لو أنّ لديّ خُطّافات في يديّ لكي أقتلهن جميعًا بحركة واحدة من ذراعي مثل طاحونة الموت. أطبقت فكّي، وأحسست بضرسي الذي انكسر للتوّ، ثمّ بصقته قطعًا صغيرة على الأرض الغرانيتية. شتمت بأسناني المكسورة تلك البلاد التي لفظتني ولا أزال أنتمي إليها من دون أن أكون جزءًا منها. شعرت بالكراهية تنمو في داخلي، أحسست بها تتصلّب كما لو أنّها براز في بطني.

عاد سانتياغو إلى الغرفة وبيده زجاجة نبيذ. أخذ منها جرعة كبيرة وقدّمها لي، وبدوري أخذت منها جرعة كبيرة. شربنا معًا بصمت، لقد جمعتنا الآن رابطة جديدة. "أمازلتِ تظنّين أنّني واحدٌ

منهم؟ أخبريني، هل تظنّين أنّني قادر على القيام بشيء مثل هذا؟".
أخذت الزجاجة من يده وتجرّعت الرّشفة الأخيرة: "أنا مُرهقة وخائفة يا سانتياغو".

أومأ برأسه: "وأنا كذلك يا أديليدا".

كُنّا خائفين، أكثر بكثير مِمّا نستطيع أن نتحمّل.



استيقظت على صوت إطلاق نار، كان الصّوت مماثلًا لما سمعته البارحة، طلقات خردق مع انفجارات ضعيفة. استغرق الأمر منّي دقائق لأدرك أين أنا. لم أنتعل الحذاء في قدميّ، وكنت مُتدثّرة بالأغطية، أمّا باب الغرفة فكان مُغلقًا، نهضت بسرعة إلى الخزانة وفتحت الدّرج الأخير. مازالت الوثائق والأموال على حالها من دون أن تُمسّ، ملفوفة بين الشراشف. نظرت إلى المرآة، كان وجهي مُنتفخًا ومتورّمًا.

كأنّني تحولّت إلى ضفدع. ذهبت إلى غرفة المعيشة، رتّب سانتياغو الغرفة ونظّف كلّ شيء.

- "لقد غادروا".
- "أعرف".

أجبته وأنا أفرك عينيّ.

- "دعينا ندخل إلى الشّقة، أعرف كيف أفتح الباب من دون أن أكسره".
- "هل تصدّق أنّ...".

راودني أملٌ بعيد المنال.

- "لا يا أديليدا، سوف يعودون، ألم تُصغي إلى ما قاله ذاك الرّجل؟ أعرف أنّك تريدين أن تسترجعي شيئًا ما، الآن هو الوقت المناسب. مع كلّ الفوضى التي خلّفوها لن يلاحظ أحد أنّنا دخلنا. وإذا لاحظوا، فصدّقيني آخر شخص يمكن أن يخطر في بالهم هو أنتِ".

بدا تفكيره منطقيًا. خرجنا إلى الممرّ، ونحن ننظر في جميع الجهات. حمل سانتياغو معه سكّينًا لتقطيع اللحم وعلّاقة ملابس، دفع لسان القفل بالحافّة الفولاذية للسكين، واستخدم العلّاقة ليحصل على العزم الكافي لدفع القفل، انفتح الباب بسهولة. كانت هناك رائحة براز قوية، أمّا الأثاث فسُرِق نصفه. تناثرت الصّناديق التي تحتوي على ثياب أمّي ودفاترها في أرجاء المكان. حطّمت زوجة المارشال كلّ شيء: جهاز الحاسوب، طاولة الطعام، مقعد الحمام، المغسلة. كانت جميع المصابيح مُضاءة والبراز في كلّ مكان، تحوّل المنزل الذي كبرت فيه إلى بؤرة قذرة.

أخذت كيسًا أسود ووضعت فيه الصّحنين الوحيدين اللذين بقيا من أدوات المائدة، إضافة إلى صورة أمّي التي التقطتها عند التّخرّج وصورتين مع خالتيّ في نُزُل فالكون، أمّا سانتياغو فقد كان يراقب الباب. فتحت خزانتي، لم يتبقَّ فيها أيّة ملابس. بحثت عن خزانة الملفّات الصغيرة المُخبّأة أسفل مكان وضع الأحذية، وأخذت وثائق ملكية المنزل ووثائقي القانونية، جواز السّفر وشهادة وفاة أمّي. كان

سطح المكتب ممتلئًا بشموع نصف مُستهلكة وتماثيل للقدّيسين مقطوعة الرأس شغلت مكان مخطوطاتي المفقودة.

مجددًا عبقت في أنفي الرّائحة الدهنية للمرحاض. مررت بجانب كومة من الصناديق المختومة والمحدّدة بأسماء الجهات المستفيدة منها: آل ويلي (مجموعة القتال الأمامية السوداء)، بيتزيدا (مجموعة القتال داخل الأحياء)، يوسنافي أجويلار (مجموعة لت بيدريتا الثورية)... أسماء مُختلقة، أدوات مُبتذلة ومُبذّرة، مصنوعة من كلمات أنغلوساكسونية حاول مالكوها من خلالها أن يصنعوا صورة مُهذّبة لأنفسهم. أولئك التّعساء لن يصلهم حتّى غرام قهوة ولا حتّى كيس أرز من تلك الصناديق المدعومة. إنّ الثورة التي تطالبهم بأن يفتدوها تسرقهم بكل طريقة مُمكنة. في البداية يسرقون الأمر الأكثر جوهرية للإنسان، الكرامة، مثلما سلبت زوجة المارشال صناديق طعامهم لكي تبيعها في السّوق السّوداء بضعفي أو ثلاثة أضعاف ثمنها، على حساب رشوة المخنّثين الذين يعملون في الجمعيات الخيرية.

راودني شعور بالارتياح كون أنّني لست الشّخص الوحيد الذي تم ابتزازه وسلبه. أسعدني أنه في إمبراطورية القمامة والسّلب والنّهب يسرق الجميع بعضهم بعضًا. كانت المكتبة خاوية. أين ذهبوا بكتبي بحقّ الجحيم؟ هناك العديد من الكتب المفقودة. إلى أين أخذوا كتب: *من الوحل*، *البيت الأخضر*، *عائلة آيريس*، *اسأل الغبار*؟ كان من الكافي أن أذهب إلى الحمام لأعثر على أجزاء كاملة من

مخطوطات يوجينيو مونتيجو وفيسنتي جيرباسي التي تمّ استخدامها لسدّ المواسير المكسورة. ردّدت بيني وبين نفسي بصمت، وأنا ألعق سنّي المكسور "إن الوقت ليس ملائمًا يا أديليدا، لم يعد البكاء يجدي نفعًا".

ألقيت نظرة على الكيس الأسود الذي وضعت فيه كلّ ما تبقّى، كنّا أنا وأمي آخر سكّان العالم حيث تكيّفنا للعيش في ذلك المنزل. الآن كلاهما ميّت: أمّي والمنزل، وكذلك البلاد. غادرت وسانتياغو من دون أن نقول شيئًا وبقينا هكذا بعد أن أغلقنا باب شقّة أورورا بيرالتا. أحضر سانتياغو صندوق عدّة من أسفل المغسلة. استخدم بعض البراغي وقضيبًا معدنيًا صغيرًا لتعزيز الترباس وأضاف قفلين آخرين.

- "لن يوقف هذا أحدًا، ولكن لا بأس من إضافته. لن ترجع أولئك النّساء مُجددًا، هل سترجعين إلى المنزل لكي تستعيديه؟". طرح عليّ هذا السؤال فيما كان يدخل برغيًا في الخشب.

بقيت صامتةً لثوانٍ قبل أن أجيب: "لن أبقى هنا لفترةٍ طويلة، ليس أكثر من خمسة عشر يومًا".

- "هل تستطيعين الصّمود لأسبوعين؟".
- "أجل سأصمد". أجبت باقتضاب.

لا أعلم ما الذي أزعجني أكثر، المزاج السيئ، أم الخوف من عدم معرفة ما الذي يجب القيام به، أم الشّك بأن سانتياغو يريد أن

ينضم إليّ في الخطط التي أنوي تنفيذها، تكفّلت هذه الأشياء الثلاثة مُجتمعة بتعكير مزاجي، في تلك الأثناء استمرّ سانتياغو في إضافة وسائل الأمان إلى الباب، يشدّ أجزاء ويُرخي أخرى بمفك البراغي.

- "سيتكفّل هذا بإعاقة الدخلاء، ولكنّك لن تكوني بأمان، عليك أن تخرجي من هنا".

في الخارج دوى صوت انفجار القنابل المُسيلة للدموع. أُشبع الهواء برائحة غاز الفلفل، وبالرّغم من أنّني اعتدت على الأمر إلّا أن المواجهات كانت أشد شراسة، تكرّرت الهتافات في الشّارع بحماسة أكبر. ألقيت نظرة من خلف السّتائر، ورأيت مجموعة من فتيان الحماية مع دروع خشبية يحاولون التّقدم أمام صفّ من الحرس الوطني، الذي بدوره عزّز عديد عناصره.

هناك الكثير منهم، وقد أطلقوا القنابل المُسيّلة للدموع على متظاهري المقاومة الذين يبعدون أمتارًا قليلة. أتى سانتياغو إلى حيث أقف: "سأغادر غدًا، وأعتقد أنّك يجب أن تفعلي ذلك". بدت نبرته الحاسمة غريبة، وحتّى جافّة. قلت له: "ستكون الليلة أسوأ من البارحة، سأدخل إلى غرفة النّوم".

مشيت عبر غرفة الجلوس وأنا أشعر أنّني أخلّف ورائي أثرًا من العطب الذي أصابني. فتحت الكيس الأسود، ونشرت محتوياته على الفراش. أمسكت بصكوك ملكية البيت وقرأتها بصعوبة بالغة، بدأ ضوء النهار بالتراجع، ولكن لم أرغب في أن أُشعِل أيّة لمبة إنارة، على الأقل حتّى يصبح لديّ يقين بأنّ أولئك النّساء لن يعدن. وحتّى

لاحقًا، من يستطيع ضمان أنّه لن يحدث شيء آخر، ولن يأتي أوغادٌ جُدد؟ من يستطيع أن يعطيني الضّمان أنّهم لن يذبحوني في زاوية أحد الشّوارع؟ أو أنّهم لن يخطفوني؟ أنّهم لن يقتحموا بيتي مُجددًا؟ لن يكون أيّ شيء مثل سابق عهده، ولا أطيق الانتظار حتّى أطلق الرصاصة التالية من المسدّس الدّوار.

عليّ أن أفعل شيئًا ما بخصوص الفرصة التي مُنِحت لي من موت أورورا بيرالتا، قد تعطيني فرصة للهروب. في تلك الغرفة المُظلمة، عقدت عزمي واتخذت القرار، لن يكون هناك رجوع. جلست على الأرض، وبدأت أحصي الطلقات النارية، واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع. أحيانًا أسمع خمس أو ستّ طلقات تباعًا، كما لو أنّ أحدهم يستخدم سلاحًا أوتوماتيكيًا. تزايدت الانفجارات، وكذلك استخدام قنابل الغاز. كان القمع أسوأ بكثير من يوم أمس.

صبّ أبناء الوطن جام غضبهم على النّاس في الأسفل. حطّموا الزجاج في طريقهم. شكّل هدير المحركات في موكبهم موسيقا تصويرية للحرب الأبدية، ثم سمعت جلبة كبيرة على باب بنائنا. ألقيت نظرة للخارج من الشّرفة، وأنا مختبئة خلف الستائر. هناك مجموعة من الحرس الوطني مؤلّفة من ستّة أو سبعة عناصر يضربون باب البناء ببنادقهم، "افتحوا الباب! افتحوا الباب اللعين! نحن نعلم أنّهم في الدّاخل، دعونا ندخل لكي نقبض عليهم!".

استدرت ونظرت إلى سانتياغو الذي بدوره نظر إلى باب الغرفة وإلى صندوق العدّة في يده، بدت نظرته مكسورة وحرّك ذقنه. هرعنا باتّجاه بوّابة المطبخ وألقينا نظرة على مرأب البناء. رأيت عشرة من أفراد الحرس الوطني وهم يدخلون ووجوههم مُقنّعة. صرخ الجيران من داخل منازلهم، كان هناك شيء ما يجري في الطوابق السفلية.

- "ليس هناك أحدٌ هنا".

صرخ صوتٌ ذكوري.

- "لا يا فتى، ليس هناك أحد هنا".

استمعنا إلى الآخرين وهم يصرخون من نوافذ الطوابق السُفلى من البناء. أجاب أحد عملاء جهاز الاستخبارات الذي ميّزته من بذلته المكوّنة من سروال مُموّه وصدرية سوداء: "افتحوا الباب، افتحوا الباب الآن أو سوف نطلق الرّصاص! أنتم تخفون العديد من الإرهابيين داخل منازلكم!". رأيت فتاةً يسحبونها من شعرها، كانت تقاوم وتركل: "اسمي ماريا فيرناندا بيريز وأخذوني ضحيّة! لم أفعل شيئًا! اسمي ماريا فيرناندا بيريز وأخذوني رهينة! أنا بريئة! لم أفعل أيّ شيء! أنا فقط أتظاهر! اسمي ماريا فيرناندا بيريز وأخذوني ضحيّة! لقد قبضوا عليّ! لقد قبضوا عليّ!".

"اخرسي أيّتها العاهرة! إرهابية! طُفيلية!". قال لها الجنديّ الذي ضربها على معدتها. قبضوا أيضًا على أربعة فتيان، كانوا يتظاهرون في الحيّ الأول واتّخذوا ملجأً للاختباء من القنابل الدخانية. كبّلوهم بالأصفاد وعندما قاوموا طرحوهم أرضًا وتلقّوا المزيد من الضربات. صرخ أحد الجيران من الأعلى: "دعوهم وشأنهم! إنّهم يتظاهرون بشكل سلمي! إنّهم مجرّد فتيان! أطلقوا سراحهم! مجرمون أوغاد! صوّروا ذلك! وثّقوه!".

كان آخر من قبضوا عليه هو جوليان، وهو جاري في الطابق الأوّل. مشى مُكبّلًا وحافي القدمين، كان يرتدي شورتًا قصيرًا وقميصًا بلا كُمّين."أنت أيضًا إرهابي أيّها الفتى، أنت أيضًا، سنضعك في السّجن ولن تخرج من هناك إلّا بعد سنوات، هل تسمعني؟".

وضعوهم جميعًا في شاحنة السّجن التابعة للحرس الوطني. لم أقل وسانتياغو شيئًا، ولم نصرخ، بدونا مثل تماثيل الجرغول البشعة في أعلى البناء. "سأغادر غدًا يا أديليدا، غدًا". كرّر سانتياغو. راقبت الشّاحنة وهي تبتعد، تتبّعتها بنظري بين سحب الدّخان والرصاص. أردت أن أخبر سانتياغو أنّه لا داعي للعجلة، يستطيع أن يبقى لبضعة أيّام أخرى إذا اقتضى الأمر ذلك. عندما التفت، كنت قد انفصلت عمّا حولي، عدت إلى الغرفة الرئيسة لكي أختبئ من كل ما يجري، مِمّا رأيته في ذلك اليوم، ومن اليوم الذي قبله، وما قبل قبله. شعرت برأسي وجسدي يتألّمان بسبب البقاء متوترة كلّ يوم على مدار السّاعة.

تركت باب الغرفة مفتوحًا، لو أراد سانتياغو أن يسرقني لفعلها منذ الدقيقة الأولى. سعيت بتلهفٍ للحصول على جواز السّفر والوثائق التي أضعها على السّرير الآن، إنّها أشياء عديمة الجدوى. إن العالم الحقيقي هو ما يجري في الشّارع وقد انتصر بفعل قوّته العبثية. أصبحت أراقب ما يجري يومًا إثر يوم، بقيت صامتة فيما كان الآخرون يلاقون مصيرهم إمّا في السّجن وإما الموت. كُنّا على قيد الحياة. مُتيبّسين مثل التماثيل، ولكن حيّين. جلست على الأرض وحضنت ركبتيّ. شعرت أنّني مُراقبة.

رُبّما سأصاب بالجنون. رأتني عينا القائد مُباشرةً، إنّها مطبوعة على القمصان ومعروضة في اللوحات الجدارية في المدينة. وضعت جبيني على ركبتيّ وتضرّعت إلى الله أن يجعلني غير مرئية، أن

يمنحني عباءة فلا يعرف أحد ما أفكّر فيه أو أشعر به. قفزت من الرّعب عندما رأيت سانتياغو واقفًا عند الباب.

- "أديليدا، اهدئي، إنّه أنا".

عرفت بالطبّع أنّه كان سانتياغو، ولكن جسدي لم يُطعني. غطّى العرق البارد جسدي بأكمله وما بدأ كارتعاشات تحوّل إلى تشنّجات. أحسست أنّ نبضات قلبي خارج السّيطرة، آلمني صدري وتوقّف تنفّسي تمامًا. بدأت أُصدر أنينًا، مثل شخصٍ على وشك الغرق. كلّما أنّ أكثر، شعر بخوفٍ أكبر. "يجب ألّا نُصدِر أيّة ضجّة". كرّر تلك العبارة عدّة مرّات. جذبني سانتياغو من كتفيّ وأخذني إلى المطبخ، المكان الوحيد في المنزل حيث رائحة الغاز المُسيّل للدموع ليست شديدة. "تنفّسي باستعمال هذا"، أعطاني كيسًا ورقيًا قديمًا بدت رائحته كالخبز. "ضعيه على فمك وأنفك وتنفّسي، تنفّسي ببطء، تنفّسي".

بدأ الألم بالانحسار. عندما زال إحساس الرّعب الذي تملّكني، أحسست بالخزي والخجل. توقّف صدري عن الارتجاف واستحال الألم إلى فراغ. راقبني سانتياغو من دون أن يُقدِم على أية حركة. أضاء وهج الأنوار في الأبنية المجاورة عينيه، رأيت فيهما بؤبؤين بلون السّحاب. وضعت السّبابة مجددًا على شفتيّ في إشارة لإخفاض الصّوت، وكرّر هو إشارتي، مثلما لو كان مرآتي.

انتقلنا إلى غرفة النّوم: استندت على ذراعه وحملني كما لو كنت شخصًا ضريرًا. جلست على الأريكة، وأرحت ظهري على مسند

الظّهر، شعرت أنّ رئتيّ قد انفتحتا مجددًا وأن الأوكسجين الذي تدفّق في دمي جعلني واعيةً لما يجري حولي. مرّر سانتياغو أصابعه على شعري، وأدخلها ما بين جدائلي وضغط على قاعدة جمجمتي، وحرّكها بشكلٍ دائري وهو يضغط بشكلٍ خفيف للغاية. أنزلت سبّابتي عن شفتيّ. نظرنا إلى بعض لوقتٍ طويل، تحسّسنا وجهينا كما لو أنّنا نتأكد من وجودنا. تلامسنا لكي نتأكّد من أنّه في تلك البلاد المُحتضرة، لم يُقدِم أحد على قتلنا بعد. عندما استيقظت كان الوقت نهارًا، أمّا سانتياغو فلم يكن موجودًا، لقد رحل كما وعدني. لم أره بعدها أبدًا.

كان المدير رجلًا عمليًا ومباشرًا ولم يبدُ عليه أنّه مهتم كثيرًا لمعرفة السّبب الحقيقي الذي جعلني أطلب هذه الوثائق: جواز سفر وهويّة باسم أورورا بيرالتا، سوف تكلّفني ستمئة يورو. من الممكن أن تكون تكلفتها أقل في ظروفٍ مُغايرة. قال لي: "إن السّرعة لها ثمنها". عرضت عليه فنجان قهوة، إلّا أنّه رفض بهزّ رأسه، من دون أن ينظر إلى المادة التي أعرضها عليه. دقّق صور الهوية الشخصية، أمّا مكان توقيع أورورا بيرالتا بخطّ يدها على الأوراق فكان فارغًا، وهذا ما تحقّقت منه في وثائقها: "هل أنت مُتأكّد من أنّك لا تريد أن تشرب شيئًا؟". رفض الرّجل مُجددًا، ولم يكن في الأساس الكثير مِمّا يمكن شراؤه في المقهى الذي تقابلنا فيه، إنّه محل لبيع الشوكولا، ولكن لا توجد فيه شوكولا أو حليب أو خبز أو كعك. فقط برّادات فارغة، وذباب، وعلب مشروبات غازية مكدّسة في برّاد يحمل شعار مثلّجات كوبيليا؛ وهي علامة تجارية شيوعية استوردها أبناء الوطن من كوبا وتوقّفت عن الإنتاج منذ وقتٍ قريب. لذا وبداعي الأدب طلبت عبوة مياه معدنية.

أخرج المدير دفتر ملاحظات من جيبه، وكتب فيه شيئًا ما. ثمّ أغلقه وتركه لكي أراه. قال لي بصوتٍ خفيض للغاية وهو يضع دفتر الملاحظات على شفتيه: "اذهبي إلى الحمّام وضعي مئتي يورو داخل هذا الدفتر". أعدت الدفتر إليه عندما افترقنا في الشارع. ذهبت إلى الحمّامات، اخترت أقرب كبين إلى باب الخروج. فيما كنت أتبوّل وضعت أربع أوراق مالية من فئة الخمسين يورو، طويتها في منتصفها ووضعتها داخل الكرّاسة ذات الأوراق المسطّرة بشكلٍ مُربّع. وضعت الدّفتر في حقيبتي، غسلت يديّ وخرجت. انتظرني المدير في الشّارع، سلّمته الدفتر وافترقنا في منتصف ساحة الثّورة التي كانت تعجّ في ذاك الوقت بعابري السّبيل.

وقفت في منتصف السّاحة حيث اعتادت أمّي أن تأخذني أيام الأحد. نظرت إلى الكاتدرائية البائسة التي لا يوجد أمامها مدخلٌ مسقوف، تم إخفاء عدم أهميّتها من خلال جدار الجص المزيف الذي كان يعلوه برج الجرس. كلّ ما يحيط بذاك المكان إمّا اختفى وإما تم تغيير اسمه. لا تزال بضع أشجار يزيد عمرها على مئة عام منتصبةً هناك، يبدو أنّها مُعمّرة وممانعة أكثر من تلك البلاد.

هناك تماثيل لرجال عسكريين ارتدوا زيّ الجيش الوطني في معركة كارابوبو وتمثال لسيمون بوليفار. تمت حياكة تلك البذلات من أقمشة خشنة، كانت أقرب إلى كونها زيًّا تقليديًا أكثر منها بذلات موحّدة.

تابعت سيري بين الواعظين والإنجيليين. ومررت بالهات كورنر، حيث كان من المُعتاد أن يلتقي هنا رجال ونساء يرتدون القمصان الحمراء، تنحصر مهمّتهم في إلقاء خطابات باستخدام مكبّرات الصّوت عن المآثر الخالدة للقائد، وكان الجميع يحملون العلم الوطني الجديد الذي أضاف إليه النظام نجمة ثامنة، وهذا ابتكاره الخاص للولاية التي تم استردادها.

شكّل وجود المساعدين الرّعاع والصورتين العملاقتين لبوليفار المُحرّر - كما كُنّا نسمّيه، ربّما بسبب الزّعيم الديكتاتوري - مشهدًا جنائزيًا ذا نزعة عسكرية. كانت الملصقات الإعلانية جديدة، كأنّها خرجت من المطبعة للتوّ. تم تعليق هذه الملصقات في جميع المكاتب الحكومية، وذلك لاستبدال صورة بطل الاستقلال التي كبرنا عليها. تضمّنت الهيئة الجديدة بعض التعديلات في السّمات الأصلية الموثّقة حتّى الآن. أصبحت بشرة بوليفار لوسيا غامقة أكثر مع خصائص لا يمكن لأحد أن ينسبها للقومية الكريولية في القرن التاسع عشر. أُصدِر أمر لإخراج رفات البطل الوطني وتحليلها وراثيًا. أُخرجت الجثة من المقابر الوطنية في مراسم بدت أقرب لمطارحة الغرام مع الأموات من أن تكون مراسم سياسية، بدا الأمر كأنّهم أضافوا سلالة خلاسية جديدة إلى الحمض النووي لمؤسّس البلاد، وأصبح الآن أشبه بزنجي بعد أن كان في البداية من أبوين إسبانيين معارضَين للملك فيرناندو السابع.

بدا الأمر بمثابة جراحة تجميلية نفّذها أبناء الوطن ليضيفوا بعض المحاكاة على الماضي. مشيت عبر شارع أوردانيتا وكلّي يقين بأنّني سأترك كلّ هذا ورائي. لقد انفصلت عن هذه البلاد بفعل مزيجٍ من الخوف والازدراء. على غرار توماس بيرنهارد من كتاب السرداب وتالا، بدأت أكره المكان الذي ولدت فيه. لم أكن أعيش في فينا، ولكنّني كنت في قلب البلبلة والفوضى.

"آه، أيّها المتراس!".

بدأت عملية التحوّل إلى أورورا بيرالتا بالفعل، ويمكن القول إنّني أنهيت بنجاح الخطوة الأولى في الخدعة. ذهبت إلى القنصلية الإسبانية وأنا أرتدي ثيابها التي تجاوزت مقاسي بثلاثة مقاسات، لأن ثيابي كانت في خزانتي في بيتي القديم. لم يكن لديّ شيء لأرتديه، باستثناء الفساتين والسراويل التي يبلغ مقاسها اثنين وأربعين. استغرق الأمر منّي أيامًا لكي أعتاد على الشّكل الهرم للقابلة القانونية قبل الموعد المحدّد للقنصلية. وقفت لساعات أمام المرآة، لكي أتفقّد الكارثة الصغيرة في مظهري، وهذا إيحاء ذاتي روتيني لم أستطع أن أحرز فيه أيّ تقدّم حقيقي إنّما كان دمارًا كاملًا. عندما وقفت أمام الكاميرا الرقمية الصغيرة في القنصلية من أجل صورة جواز السفر البيومترية، لم أعرف ما إذا كان يجب أن أبتسم أو أن أحافظ على ملامح أقرب لشخص مصاب بانقباض الأمعاء. في النهاية حافظت على ملامح بائسة ومزيّفة، مطبوعة في تلك الوثيقة التي أحملها في يديّ الآن.

فتحت الكتيّب المختوم عند باب المكتب القنصلي، كُتِب عليه الاتحاد الأوروبي باللغة الإسبانية بحروفٍ ذهبية. أصبح عمري الآن

متوافقًا مع عمر وبلاد لا أنتمي إليهما، قصّة من الشّقاء والأفراح الدخيلة لسببٍ غير معروف. لم أعرف شيئًا عن حياة أوروورا بيرالتا وعليّ الآن أن أغوص فيها فجأة. هناك أمام الطّابور الطويل من أبناء الإسبان وأحفادهم ممن انتظروا دورهم ليحصلوا على الوثائق التي ستُخرجهم من هذه البلاد، هناك اعترتني فرحة شخصٍ فاقد الأمل. لم أكن تلك المرأة ولن أصبح على الإطلاق. بإمكانك على الدّوام أن تختار وجود السّيف ما بين المطرقة والسّندان. كان جواز السّفر ذاك هو ملاذي. أخبرت نفسي أنّه ليس هناك وقت للنّدم. تسير الأمور دائمًا على هذا النّحو.

كانت مهمّتي أن أنجو. ازدادت الأمور سوءًا بعد رحيل سانتياغو. عادت زوجة المارشال وصحبها، هذه المرّة مع المزيد من التعزيزات: مجموعة تتألف من عشر نساء يرتدين الجوارب الملوّنة. استحضر مظهرهنّ البدانة السّخيفة في مكان يتضوّر فيه الجميع جوعًا. احتلّت خمس منهن المنازل الفارغة في الطابق الأرضي، وهذا ما أصبح جزءًا من استراتيجيّة توسعية. تم إعداد مقر قيادة للعمليات العسكرية في أحد هذه المنازل لمجموعة تُدعى النّساء المُحرِّرات، بحسب ما أشارت اللوحة الإعلانية البدائية الصّنع المعلّقة بشريط بلاستيكي.

تابعت بقيّة المجموعة العمل تحت إمرة زوجة المارشال. نقلن الصّناديق طوال اليوم إلى بيتي القديم، الذي حوّلنه إلى مستودع لصناديق الطّعام. لا بُدّ أن تلك المرأة قد انتصرت في المعركة ضد المتنمّر الذي حاول أن يدمّر عملها. لقد ازدهرت تجارتها القائمة على الأغذية المُقنّنة في السّوق السّوداء. سارت الأمور على ما يُرام بالنسبة إليها. كان النّاس يجيئون ويذهبون على مدار السّاعة إلى ذاك الطابق، ناقلين أكياس الطّعام وطروده، إضافة إلى الصناديق الكبيرة المليئة بورق الحمّام. إذا كانت هناك ندرة في منتج ما، فستجده لديها، تبيعه بضعفي أو ثلاثة أضعاف قيمته الأصلية في الأسواق العامّة التي أنشأتها الثّورة لتعويض النّقص في المتاجر التي تفتقد الكثير من السّلع.

توضّع عمل زوجة المارشال في منتصف السّلسلة، باعتبارها صاحبة مستودعات بضائع السّوق السوداء. اختارت زوجة المارشال بناءنا بسبب قربه من مناطق الأسواق الثّورية إضافة إلى إمكانية منافسة المحلّات التجارية الأخرى في المنطقة دون أن يصلها أي شيء تقريبًا، فقد تم اتّهام مالكي هذه المحلّات بأنهم يكنزون البضائع

من قبل أبناء الوطن. أنشأت زوجة المارشال شبكتها المكوّنة من الزّبائن المُقيّدين باحتكارها للمواد الغذائية: وجميعهم من الطّبقة الوسطى الجائعة التي لم تتلقَ أيّة عطايا من الثّورة. أنشأت عملها وفقًا لقوانين المضاربة التي يعزوها قادة البلاد للرأسمالية التي بفضلها ملأت جيوبها هي وغيرها بالمال.

نادرًا ما ناموا في شقّتي القديمة. لقد استخدموها لتنظيم عملية تسويق المخزون الموجود. منحني غيابها هي ونساؤها في الليل الحدّ الأدنى من السلام. كنت أقوم بكلّ شيء بعد العاشرة ليلًا: آخذ حمّامًا، أُعدّ طعامًا بشكل سريع في المطبخ، أنقل الأثاث، أتحرّك بشكلٍ طبيعي أكثر، ولكنّي لم أستخدم الإنارة الكهربائية أبدًا. حاول الجيران أن يقاوموا وجودها. كان أوّل من بدأ ذلك هو جلوريا؛ جارتي التي تقطن في الدّور الأخير. كرّست جلوريا نفسها لتنسيق الإجراءات المستعجلة للغاية فاستدعت الجيران للتخطيط لاستراتيجية دفاع مشتركة. رنّت جرس منزل أورورا بيرالتا مرّتين، بقيت ساكنةً من دون حراك في ذاك المنزل المُظلم كالقبر. سمعتها في أحد الأيام تسأل بعض الجيران عن مكان أورورا، حتّى إنّها سألت عن مكاني. لم يكن أحد قادرًا على إجابتها ولم يرغبوا حتّى في أن يعرفوا.

بينما كنت حبيسة تلك الجدران، كرّست نفسي لاكتشاف السّيرة الذاتية للمرأة التي سوف أتحوّل إليها. أوّل شيء فعلته بعد الاطلاع على مراسلاتها البريدية وألبوم الصّور العائد لأمّها، هو أنّني شحنت هاتفها وشغلته، لتظهر في الحال ثلاث رسائل صوتية جميعها من ماريا

خوسيه التي أرسلت العديد من الرسائل الإلكترونية الموجّهة إلى أورورا. سارعت بالردّ على رسائلها لكي أشرح سبب عدم الاستجابة سابقًا: أعمال الشغب، انقطاع التّيار الكهربائي وتخريب خدمة الإنترنت. قلّدت أسلوب أورورا بيرالتا في الكتابة، أمّا الرّد فكان مباشرة: "متى سوف تأتين؟". أجبت: "حالما يصبح جواز سفري جاهزًا". كان ذلك كافيًا، على الأقل بالنظر للنثر المُقتضب والسكرتاري لأسلوب أورورا بيرالتا. كان جهاز الحاسوب لديها قديمًا واستكمل تلقائيًا بيانات التّصفح، بما فيها كلمات السّر الشخصية. تمكّنت من الوصول إلى جميع معلوماتها من دون الحاجة إلى الرجوع. ركّزت على حسابات المصرف ورسائل البريد. أكّدت في البداية صحّة التوقيع الإلكتروني لحساب المصرف بعملة اليورو. تألف التوقيع من أربعة أرقام أرسلها المصرف لأورورا احتفظتُ بها مع بقية المعلومات: كلمات سر البريد الإلكتروني، عناوين البريد الإلكتروني، أرقام الهواتف، والعناوين الدائمة. مازالت تلك الأرقام الأربعة مُفعّلة.

حالما شغّلت هاتفها أرسلت رمز الأمان برسالة إلى المصرف، وتدبّرت أمر إجراء تحويلات مالية صغيرة للبطاقة الائتمانية الصّادرة باسمها، بالرّغم من أنّها مربوطة بحساب المصرف الذي لا تزال جوليا بيرالتا تظهر على أنها شريكة فيه. لم أُرِد أن أترك أمورًا عالقة. حاولت التّأكد من أنّ كلّ شيء يسير على ما يرام. كانت الخطوة التالية الأكثر تعقيدًا: إعادة بناء علاقة أورورا بيرالتا مع عائلتها

الإسبانية. جميع الرسائل الإلكترونية في صندوق الوارد لديها من ماريا خوسيه رودريغز بيرالتا، ابنة عمّتها. كان من الصّعوبة بمكان الإلمام بكافّة التفاصيل، ربّما لأنّه من المُسلّم به لدى النّاس أن يعرفوا بعضهم بعضًا.

كانت ماريا خوسيه ابنة باكيتا، المرأة التي وجدت صورها في السّبعينيات وبدأت أتابعها بدقّة منذ تلك اللحظة. تبلغ فرانشيسكا بيرالتا من العمر الآن واحدًا وثمانين عامًا، وقد راسلت أورورا ابنتها. لقد كانت السّبب الرئيسي لمغادرتها البلاد، وذلك لتسديد الدّين العائد لزمن طويل من الحسابات المُعلّقة مع زوجة أخيها جوليا. استخدمت الرّسائل التي كتبتها جوليا بيرالتا إلى باكيتا. هي من شجّعتها على السّفر إلى الجهة الأخرى من المحيط بعد موت فابيان. كانتا تكتبان لبعضهما كلّ أسبوع على الأقل خلال السّنوات الثمانية الأولى. بعدها بدأت المراسلة تتباعد، مع عدم تجاهل التّحويل المالي البالغ خمسمئة بوليفار؛ أي ما يقارب ستّة آلاف وثمانمئة بيزيتا، التي أرسلتها جوليا لعائلة زوجها.

كانت باكيتا مُهتمّة بنمو أورورا الصّغيرة، وأصرّت على أن زيارتها في أحد فصول الصّيف. "نعلم أنّ لديك الكثير من العمل، ولكن بإمكانك أن تأتي في وقتٍ ما، نحن نفتقدك وسوف يكون من الرّائع لماريا خوسيه وأورورا أن تقضيا بعض الوقت معًا". بحسب ما فهمت فقد سافرت عائلة بيرالتا مرّة واحدة إلى إسبانيا بعد أن غادرتها. كان ذلك في عام 1983، وبالرغم من الذّكرى الحديثة العهد

لموطنها، إلّا أنّ تكيّفها التدريجي تجسّد في تطوّر عملها: إن المرأة التي عملت في البداية طبّاخة استطاعت بعد وصولها بوقتٍ قصير أن تمتلك مطعمها الخاص الذي كان في البداية حانةً صغيرةً.

كان كاسا بيرالتا مكانًا غريبًا، مثل جميع حانات المهاجرين في البداية. قصده الزّبائن في بعض الأحيان لتناول الطّعام وفي أحيان أخرى كان بمثابة مقهى أو حانة. أتذكّر أنّه مع كلّ كأس نبيذ، وحتّى مع المشروبات الغازية، كانت جوليا بيرالتا تدبّر تجهيز أريكة صغيرة. أمّا وجبات الطّعام فكانت كبيرة: الأخطبوط، البيض، حساء الأرز وطبق البايلا لتملأ البطون الجائعة للزبائن الذين تردّدوا بشكلٍ شبه يومي. مع مرور الوقت أدرجت جوليا بيرالتا الأطباق الكريولية في قائمة الطّعام: عجينة الذرة المقلية والمحشوة باللحم والجبنة، أو كعكة الذّرة التي بدأت تُقدّمها بعد أن وظّفت مساعِدةً لها في المطبخ. جذبت هذه التغييرات المسؤولين الحكوميين في الوزارات القريبة الذين أتوا إلى مطعمها لتناول وجبات الفطور والغداء في أيّام العمل. تحوّلت جوليا الإسبانية، كما كان يناديها النّاس، إلى السّيدة جوليا. وأصبح كاسا بيرالتا يعمل جيّدًا. أتاحت لها شهرة توابلها أن تحصل على طلبيات أكبر. بدأ الأمر مع قائمة الطّعام للاشتراكيين الأوائل وانتهى بها الحال لتطبخ الأرز للبحارة والبايلا للديموقراطيين الاشتراكيين الذين قدّموه في حملاتهم الانتخابية.

يمكن القول إن جوليا بيرالتا أطعمت جيلين من القادة السياسيين الديموقراطيين. لقد فازوا بعدّة انتخابات على التّوالي، في

المحصّلة وبعد مرور عشرين عامًا من حكم الديموقراطيين الاشتراكيين استطاعت بيرالتا الإسبانية أن تنجح في عملها وتبرز في المدينة. تمكّنت من أن تكتسب شهرةً نسبية. هنا في غرفة تناول الطّعام في بيتها، عُلّق تقرير صحفي في إطار زجاجي حول مطعمها تظهر فيه مُبتسمةً في مطبخها "هذه هي الإسبانية التي تطهو لحزب العمل الديموقراطي في فنزويلا" كما كان يُسمّى السّياسيون في اليسار المعتدل؛ وهم أوّل من شرّع الانتخابات الحرّة والتعليم الأساسي المجّاني وتأميم البترول، إلى أن تم القضاء على الديموقراطية الاشتراكية من خلال محاولتين انقلابيتين: أولئك الذين دشّنوا السّلك السياسي للقائد وحركته المدعوّة أبناء الوطن.

كانت جوليا المرأة التي طهت للأحزاب الديموقراطية، عندما كان هناك شيء كهذا. أحبّت أمّي أن تأكل في كاسا بيرالتا أيّام الأحد، بدا لها أنّه مكان مُحترم، وهي الصّفة التي استعملتها أديليدا بيرالتا لتوصيف النكهة الجّيدة نسبيًا إضافة إلى اللّباقة ولطف المعاملة. دعونا السّيد أنتونيو الذي لطالما تناول طعامه وحيدًا ليجلس معنا. كان من جزر الكناري من لاس بالماس، وهو الأصغر بين سبعة إخوة، ومؤسّس أوّل مكتب لتوزيع الكتب في المدينة. أحببت أن أستمع إليه عندما كان يتحدّث مع أمّي. أتى إلى هذه البلاد في أواخر الخمسينيات. أخبرنا أنّه كان يتجوّل كثيرًا في شارع سابانا غراند لبيع تذاكر مباريات كرة السّلة وأدوات النشر العلمي إلى الأكشاك في المنطقة. ثمّ اشترى سيّارة فان وبدأ يسافر إلى مُدنٍ أخرى في المنطقة

الجبلية المركزية ليبيع الجرائد، أسّس مكتبته في المدينة وسمّاها كانيما، تيمّنًا برواية غاليغوس.

عَمِلت أورورا بيرالتا في صالة المطعم في أخذ طلبات الزّبائن ووضع سلّات الخبز مع الطعام وغيرها في حين كانت أمّها تخرج من المطبخ حاملةً طبقًا يتصاعد منه البخار وقد أعدّت فيه المحار وثمار البحر. كانت فتاة قبيحة تلمّع الكؤوس وتتفقّد الكعك في الجانب الآخر من الحانة وعلى وجهها إيماءة غير راضية. بالرّغم من أنّها أمضت فترة مراهقتها في البلاد، إلّا أنّها لم تستطع أن تتآلف مع محيطها، كانت غافلة عن قضاء وقت طيّب مع أصدقائها، كما لو أنّها بقيت مُستثناة، مُعلّقة على سياج حكمتها الشّائك. إنّ سيرتها الذّاتية مليئة بالثغرات والأحداث غير المنتهية. إنّ تحوّلي إلى هذه المرأة هو معركة خاسرة سلفًا.

من الآن فصاعدًا لم أعد في الثامنة والثلاثين من العمر وإنّما في السابعة والأربعين، ويجب أن تماثل حياتي تلك الطّباخة التي تحمل درجة شهادة عليا في علوم السياحة، بالنّظر إلى مؤهلاتها، فإنّها عادية للغاية، وهي ليست تلك العالمة اللغوية المُختصّة في التحرير الأدبي. لقد عنى ذلك نوعًا من إلغاء التّصنيف. كيف يجب أن تكون تعابير وجهي عندما أقدّم نفسي لنساء العائلة تلك؟ أصرّت ماريا خوسيه على التعجل في الرّحيل عن البلاد. لقد وافقت من دون أيّة إمكانية للتفاوض على أن أبقى في المنزل ريثما أعرف كيف تسير الأمور في مدريد.

كانت باكيتا، والدتها، مُتحمّسة للغاية لرؤيتي. كتبت لي ابنة العمّة "لقد مرّت سنواتٌ كثيرة يا أورورا"، وذلك كي تستحثّني على القدوم، فكّرت في أنّ عدم سفر أورورا بيرالتا لسنوات عديدة إلى إسبانيا قد يساعدني في إخفاء حقيقة مظهري الخارجي. حتّى إنّ الأمر سيكون مفهومًا إذا لم أتذكّر الأسماء أو الأماكن. ولكنّي كنتُ قلقة بشأن رؤيتها لبعض الصّور لأورورا الحقيقية، حتّى إنّني كنت قلقة أكثر بشأن الذكريات التي اطّلعت عليها على عجل واستذكرتها بشقّ النّفس. قد ينتهي كلّ هذا بأن أخلط الأمور، إذ إنّ احتمال الفشل مرتفع، إضافة إلى أنّ مسألة أن تكون شخصًا آخر تضيف صعوبة إضافية: كيف سأؤلّف قصّة عن اختفائي.

لم يتوقف بريدي الإلكتروني عن تلقّي الرسائل من الناشر الذي عملت معه. أراد في البداية أن يعرف فقط ما إذا كنتُ أجد في نفسي القوّة الكافية لأبدأ بمخطوطة جديدة. من الأمور التي كانت في صالحي أن العمل في مجال تحرير الكتب وبيعها أصبح أكثر فأكثر مهنة مُبذّرة ومُدَمّرة في تلك البلاد. إلّا أن الهدوء لم يستمرّ طويلًا. كتب لي المُحرّر الإقليمي، وكنت ضجرة من صمتي، سألني عما إذا كان باستطاعتي أن أعتبر هذا خطوة، وأنّ غيابي كان مُباغتًا ومن دون الكثير من التفسيرات.

كتبتُ رسالة إلكترونية قصيرة أوضحت فيه قراري بمغادرة البلاد لفترة من الزمن. وجدت أنّ الظروف الوطنية وحتّى الطاقم الذي عمل مع أديليدا فالكون سبب أكثر من مُقنع. كتبت "أحتاج إلى

بعض الوقت حتّى أتعافى من وفاة أمّي، من بين جميع الوفيات التي حدثت".

أخيرًا تمّ لقاء جديد في كافتيريا أُخرى مُدمّرة، سلّمني المدير الوثائق الفنزويلّية المزورة التي كنت أحتاج إليها، بوصفها وسيلة لمغادرة البلاد تحت اسم أورورا بيرالتا. اشتريت عصر ذاك اليوم بطاقة السّفر بالطائرة إلى مدريد عن طريق الإنترنت. بإمكاني أن أغادر ذلك الأسبوع، وإذا لم أستطع فسيكون ذلك بسبب الانخفاض الشّديد في الرحلات الجوية الدولية بفعل الاحتجاجات التي عصفت بالبلاد. دفعت ثمن التذكرة بوساطة بطاقة أورورا بيرالتا الائتمانية. كان المبلغ كبيرًا نسبيًا. تنفّست الصّعداء عندما رأيت نجاح عملية الشّراء من دون أيّة معوّقات. عند وجود المال يصبح كلّ شيء سهلًا وسريعًا. عندما تمتلكه ستستطيع الحصول على جميع الأشياء الرّائعة التي تريدها، ولكن الأسوأ هو عدم امتلاك المال، وهكذا عاشت الأغلبية السّاحقة، في إفلاسٍ أبدي.

سرقوا المزهرية وخمسة أحرف من الضّريح. انتُزع من قبر أديليدا فالكون كلمة "ارقدي"، بقيت عبارة "في سلام" كما لو أنّها دَين لن يسدّده أحد. كانت الكنية مفقودة أيضًا والأحرف السّاكنة في اسم المدينة التي وُلِدت فيها وحيث كبرت مع تعاقب الفصول. انتزعوا الحروف واحدًا تلو الآخر تاركين الأحرف البقية صامتة ومتأثة، مثل حرف الفاء في كلمة فالكون على وسم النُّزُل الذي تمتلكه خالتاي. فيما يخصّ الخسارة، فقد خسرنا كلّ شيء حتّى الاسم. هم، نحن عائلة فالكون، الملكات لعالم في غيبوبة الموت. وجب عليّ أن آخذ مزهرية فارغة من شاهد قبرٍ آخر كي لا تذبل أزهار القرنفل البيضاء في عاري الكبير.

مرّ شهر على وفاة أمّي، وبالرغم من أنّي لم أعد مثلما كنت، لكنّني أردت أن أكون أمامها، أردت أن أخبرها كم أحبّها. كنت ميّتة أنا أيضًا على غرار أمّي. هي تحت الأرض وأنا فوقها. هذا هو السّبب الذي دفعني لزيارتها في ذاك اليوم. لكي أوحّد كلماتنا التي تتحدّث للريح. لا أعرف كم وقفت أمام قبرها، كلّ ما أعرفه أنّها كانت أطول محادثة لنا. وبالرّغم من أنّه لم يتبقَ كلمات لنقولها، حتّى لو تشاركنا

هذه البقعة من العشب، إلا أنه يمكننا أن نكون أقرب ما يمكن لبعضنا في هذا المكان من العالم.

يمرّ الموت بسرعة عندما يصرّ العالم على الدّوران، وعالمي، أمّي، لم يدر حول نفسه كما كان إلى أن تقابلنا، على غرار الأرض في شعر مونتيجو. لقد انقلب عالمنا يا أمّي وسقط على الآخرين. حُشِر فيه الحيّ والميّت ليفرض عليهم سماته. لم يبقَ شيء من المنزل، منزلنا، أو على الأقل لم أستطع أن أدافع عنه يا أمّي. ستعلمين يا أمّي أن هناك أشياء أخرى تغيّرت أيضًا. لم أعد أدعو نفسي باسمك وسوف أغادر هذا المكان قريبًا. لا أتوقّع منك أن تتفهمّي، أريدك فقط أن تُصغِي إليّ، هل بإمكانك سماعي؟ هل أنتِ هنا يا أمّي؟ أتيت لأخبرك عن أمور اعتبرتُها مُسَلّمات، ولكنها لم تكن كذلك. أتيت لأخبرك أنّني لم أكترث مُطلقًا لاحتمال وفاة والدي. كان اسمك كافيًا لي، إنّه المكان الرّاسخ الوحيد الذي أستطيع أن أحمي نفسي فيه مثلك، أديليدا فالكون، كان طريقة لأحمي بها نفسي من البذاءة والحماقة والغباء. عندما كنت طفلة كنت أفتخر سرًّا بقرارك بعدم العيش في بلدتك (جميلة ومالحة، ولكنّها في النهاية مكان صغير ومخنوق). لقد فضّلتِ أشياء أخرى على القمار والرمّ وأعواد الكمّون التي خدّرت أرواح النّاس الذين عاشوا في أوكامار دي لا كوستا.

أحببت أنّك لم تكوني تشبهين أختيكِ؛ كنتِ رصينة وحذرة، وأنّك ازدريتِ الخرافات، وأنّك قرأتِ لتعلّمي الآخرين أن يفعلوا ذلك. كنتِ مثل أمٍّ للبلاد التي تخلّيت أنا عنها. كنتِ أمًّا لأحد

المتاحف والمسارح التي أخذتِني إليها، كنتِ أمًّا لأولئك الذين يحبّون الظهور والنّاس ذوي السلوكيات التي لم تعجبك مثل الإفراط في الأكل والشّرب، كذلك الأمر بالنّسبة إلى الأشخاص الذين يتحدّثون بصوتٍ مرتفع أو يصرخون كثيرًا. لقد كنتِ تكرهين الإفراط في كلّ شيء. ولكنّ الأمور تغيّرت، الآن هناك الكثير من الأشياء التي تطفح: القذارة، والخوف، والبارود، والموت، والجوع. عندما كُنتِ تحتضرين، أُصيبت البلاد بالجنون.

لقد وجب علينا أن نفعل أشياء لم أتخيّل أنّنا سنفعلها لكي نستمر على قيد الحياة: نتظاهر أو نصمت، ننقض على رقبة أحد ما أو ننظر إلى الاتجاه الآخر. ما يُطمئنني أنّك لم تعيشي لتري هذا. وإذا ما استبدلت اسمي فليس السّبب أنّني أريد أن أغادر البلاد التي تشكّلت من اسمك واسمي، إذا ما فعلت ذلك يا أمّي، فلأنّني خائفة، وأنا كما تعرفين لم أكن أبدًا بقدر شجاعتك، أبدًا. هذا هو السّبب في أنّ ابنتك الآن تقاتل في كِلا الجانبين في الوقت نفسه: أنا واحدة من أولئك الذين يقتلون، وواحدة من أولئك الذين يلتزمون الصّمت. أنا واحدة من الذين يحمون غيرهم، وواحدة من أولئك الذين يسرقون بصمت ما يمتلكه الآخرون. أنا موجودة في واحد من أسوأ الحدود، لم يُطالب أحد بالضحايا الذين بقوا على قيد الحياة، مثلي، على جزيرة الجبناء. وأنا يا أمّي لست شجاعة، على الأقل ليس في طريقة الاحتياط والحذر التي علّمتني إيّاها. لقد منحتني الشجاعة، ولم أكن شجاعة، على غرار بورخيس في الشّعر يا أمّي.

عَرفت نساءً كنّسن الأفنية لكي يصنّ وحدتهن، أنتِ أيضًا سلالة مُنقرضة. خالتاي كلارار وإيميليا، وأيضًا من سبقنهما وأتين في أحلامنا. وأولئك اللواتي سبقننا لكي يأتين في أحلامنا. النّساء الورقيات اللواتي تعلّقن بعلّاقات معدنية في خزائن كوابيسي. المرأة العجوز الصّارمة في كنيسة أوكامار التي ترتدي وشاحًا يغطّيها بالكامل كما لو أنّها في اليوم التّاسع لموت يسوع النّاصري. أولئك اللواتي يدخّنّ سيجارة إلكترونية ويخسرن أسنانهن عند إطباق الفكّين. أو أولئك اللواتي تظهر عليهن علامات الاحتضار إلّا أنّهن يطردن الموت بحسب وصفهن: "ابتعد أيّها الموت، ابتعد أيّها الموت". لقد مكثن في كوكب تضخّم في ذاكرتي. هل تذكرين الخالة إيميليا؟ سرعان ما رأيتها تُكنس. رأيتها تنظّف وتفرك الأرض الإسمنتية للباحة الخلفية المليئة بشجيرات وأشجار ملتوية: التمر الهندي، والمانغا، والكاجو، وفاكهة المامي، والليمون الإسباني، والفلفل الحلو، وفاكهة القشطة الشوكية.

كان مذاق فاكهة هذه الأشجار حلوًا وحامضًا في الوقت ذاته، هناك أثر لشيء مُتعفّن في فمي، هناك الكثير من السّكر الذي قاد قلبي ولساني إلى القمّة. حكمت وماتت الخالة إيميليا من تلك الحديقة؛ المكان الذي زُرِعت فيه الجذور واقتُلعت منه، فيما تظفر الحياة والموت بنفس الطّريق. أتذكّرها جندية ترتدي ثياب النّوم وعلى وشك أن تقتل ذكرياتها بمجرفة. بالنسبة إلى الحياة يا أمّي، فقد كانت مليئة بالنّساء اللواتي يكنّسن الأرض حفاظًا على خصوصيتهنّ. نساء

يرتدين ثيابًا سوداء، يضغطن أوراق التّبغ ويجرفن الفاكهة المتساقطة عن الأشجار في الصباح الباكر. لم أعرف كيف أزيل الغبار، تعوزني الأفنية والذراعان. تتساقط من الأشجار في شارعنا قوارير زجاجية مكسورة.

لم نكن نملك أفنية يا أمّي، أنا لا ألومك. أمشّط أرضي بمكنسةٍ في الصباح الباكر وأحيانًا في الظلام حتّى تنزف. أجمع ذكرياتي وأكدّسها كما فعلنا في أوكامار دي لا كوستا مع الأوراق المُعدّة للحرق في وقتٍ متأخر بعد الظّهر. خلقت رائحة الحريق في ذاتي افتنانا سرّيًا شهدت على انكساره مع مرور الأيّام. إنّ النار تُطهّر أولئك الذين لا يملكون شيئًا آخر. هناك حزن ويُتم في الأشياء التي تحترق. منذ الليلة التي أخبرتني فيها عن جدّتي وأخواتها الثمانية، اللواتي وقفن عند طرف سريرها عندما كانت تحتضر، فكّرت في شأننا، في ما عشناه معًا. أتعرفين! إنّ نساء العائلة، شجرة عائلتنا المكوّنة من فروعٍ قليلة وفاكهة لم تصبح كاملة النّضج أبدًا، أتعرفين يا أمّي؟ لم أتصرّف على نحوٍ جيّد مع نساء عائلتنا. لم أتصل بكلارا وإيميليا منذ أن أخبرتهما بوفاتك. سأتصل يا أمّي، دعي عنك الحيرة، أريد في الوقت الحاضر أن أؤجل الكلام إلى وقتٍ لاحق، لأنّ الاحتكاك مع الماضي سيجعلني أغوص في الأرض التي يجب أن أرحل عنها.

تستبدل الأشجار مكانها أحيانًا. لم يعد مكاننا هنا أهلًا للاستمرار في الحياة، وأنا لا أريد يا أمّي أن أحترق مثل جذوع الأشجار المريضة التي تُرمى في المحرقة. لست متأكّدة مما إذا كنت

سأرى كلارا وإيميليا مُجددًا وهذا لا يقلقني لأنّهما ليستا وحيدتين ولديهما بعضهما بعضًا، مثلما كنّا أنا وأنتِ. ولكن كما ترين، لم يعد هذا يجدي الآن، لقد أتيت لكي أخبرك بأشياء أخرى. لم أخبرك أبدًا بهذا الأمر كما حدث: في تلك الظهيرة التي ضعت فيها عن البيت، أتذكرين؟ لم أتشتّت أو أتشوّش، وهو شيء تعرفينه مُسبقًا بالتأكيد. غادرت نُزل فالكون يومها لكي أؤدّي المهمّة التي كلّفتني بها: شراء كيلو من الطماطم لإعداد الطّعام.

– "هل تعرفين مقدار الكيلو، أكثر أو أقل؟ هل تعرفين يا أديليدا؟".

رفعت كتفيّ.

– "إنّه يبلغ هذا القدر".

أشرت لي بكلتا يديكِ، كما لو أنّك تمسكين بميزان خيالي فيه الطّماطم في العالم الحقيقي.

– "هل أدركتِ الآن؟".

أجل يا أمّي، وأنا أنظر إلى قمم أشجار المانجو.

– "انتبهي يا أديليدا، لا تأخذي كمّية أقل. لذا تذكّري كم يبلغ الكيلو". وأشرتِ بيديكِ مرةً ثانية، "لا تتأخري، ولا أريدك أن تتكلّمي مع الغرباء".

مشيت إلى السّوق في ساحة البلدة، وطلبت ما أوصيتني بإحضاره. أعطوني كيسًا صغيرًا فيه طماطم صغيرة وقبيحة، دفعت ثمنها بورقة مالية ووضعت العملات المعدنية في جيبي. تفرّجت

دونما كثير من الاهتمام على المحلّات في السّوق؛ هناك محلّ يبيع عجينة الذّرة المحشوة بلحم كلب البحر، وهناك امرأة تعجن قدرًا كبيرًا من الدّقيق، هناك رجال بدناء من تورنتو أتوا من المرفأ واشترى كلٌّ منهم زوجًا من تلك الشّطائر. رأيتهم يتناولونها بقضمات سريعة بعد أن يضعوها في صلصة خضراء ذات نكهة لاذعة سالت على ذقونهم في أثناء أكلها.

مررت أمام حوضٍ زجاجي مملوء بالرخويات البحرية، وأطباق السّردين، وسمك النّهاش، وسمك أبو منشار. تلك الأسماك ذات النظرة المرعبة، والأفواه المفتوحة، والأسنان الصغيرة، والبطون المشقوقة، المعلّقة في موازين ذات إبرة قياس. كانت رائحتها مثل الأحشاء، مثل القشرة المالحة والحارّة. رأيت أيضا متجرًا للمثلجات، بِيعت هناك أكواب الثّلج المبقّعة بالسّكر الملّون وعلى قممها المتجمّدة وُضِعت القهوة والحليب المكثّف. كان الطّقس حارًّا ورطبًا في تلك القرية السّاحلية. عليّ أن أعود للمنزل، كان هذا أمرًا ونادرًا ما عصيت الأوامر.

كانت تعليماتك بمثابة التعليمات النّافذة في وكالة محلّية. لقد منحتني هذه التّعليمات المسؤوليةَ، لقد أخرجتني في بعض الأحيان من الحالة السّرمدية للطفولة. كان الأمر بمثابة ارتداء الأحذية ذات الكعب، إلّا أنّه أفضل من ذلك. اخترت في تلك الظّهيرة أن أتنازل عن سيادة جمهورية فالكون. بإمكاني القول إن المكان كان مزدحمًا وانتظرت كثيرًا، أو إنّ الشاحنات التي تحمل البضائع من الميناء قد

تأخرت ولهذا استبدلوا بالطّماطم فاكهة أخرى. إن القضيّة هي ألّا أصل. وجب عليّ في ذاك اليوم أن أُعدّ كعكة السّلحفاة البحرية، لذا سيكون في مطبخ آل فالكون توليد وموت.

فضّلت أن أتجنّب الإغماء الذي سيصيبني عندما أرى خالتيّ كلارا وإيميليا وهما ترتديان ثيابًا من قماش الكريتون وتحملان السّكاكين، استعدادًا لوضع بانشو في وعاءٍ من الماء المغليّ؛ بانشو السّلحفاة البحرية التي كنت أغويها بالخس سينتهي بها الحال مطبوخة كأنّها سرطان البحر، ثمّ مُقطّعة ومطهوة مع الفلفل الحلو والطّماطم والبصل. أحببت فكرة أنّنا سنأكل كعكة، ولكنّني فضّلت ألّا أدفع ضريبة الاستماع لبانشو وهي تموت. أذكر أنّ جميع السّلاحف البحرية كانت تطلق صرخةً كأنّها صرخة بشرية ثمّ يدوي صوتها في أحشائي، كنت مذنبةً بكوني جزءًا من المجموعة السّعيدة التّي تسبّبت بمعاناتها. أحببت النّهكة الحلوة واللّاذعة لذاك اللّحم الطّري، ولكنّني أردت أن أستمتع من دون إخضاع ذاك الكائن الضعيف لمحنة قاسية، أردت الاستمتاع بالمذاق من دون التّذكير بموتها. أردت أن آكل من دون ذنب قتلِها على غرار ما يحدث الآن يا أمّي.

هكذا أشعر وأنا أمام الطّاولة محاولةً أن أنسى من بدأ بتقطيع شريحة اللّحم لكي أتغذّى جيدًا. لهذا أخبرتك عن وجودي في كلا الجانبين، من يسرق ومن يتعامى عمّا يجري، من منهما يقتل من دون إراقة دم أحد؟ ذهبت في ذاك اليوم إلى شارع الضّلال، أتذكرين؟ هكذا يسمّون ذاك الشّارع الذي حذّرتني مئات المرّات من ألّا أذهب

إليه بمفردي: "لـم يسبق أن حدث هناك شيء جيّد على الإطلاق". وقلتِ مِرارًا إن الجميع في أوكامار يتحدّثون عن ذاك الشّارع. كل ما في الأمر أنّه يوجد منزل مهجور، منزل المهندس المعماري، حتّى أنتِ وخالتيّ ذكرتنّ الأمر. كانت خالتي إميليا تهمس بذعر وهي تؤدّي إشارة الصليب المقدّس وتنهيها بقبلة على الإبهام. لقد أنّبتِ خالتيّ مرارًا: "هذه محض ترّهات وخداع، لأن من يقول هذا هم النّاس الجهلة وغير المتعلمين".

وصلت إلى المنزل دون كثير من الجهد. كنت في مكان ينتهي فيه كلّ شيء، بمحاذاة النّهر تقريبًا. كانت البّوابة الرئيسة الحمراء مغلقة بطريقة سيّئة بقفلٍ تالف. شعرت بانجذاب كبير تجاه نباتات القطن الّتي زيّنت الحديقة الرئيسة، لم يسبق لي أن رأيت شيئًا كهذا. كانت انتفاخات بيضاء موبرة، وشكلها يغري النّاظر بتناولها. عندما تقول خالتاي "منزل المعماري" يتهيأ لمن يسمعهما أنّه منزل ساحر شرّير فيه أُناس سيّئون، ولهذا تفاجأت عندما وجدت أنّ المنزل بالرغم من كونه متداعيًا إلّا أنّه جميل وحديث، مكان رحب وجميل في تلك القرية الصغيرة والسّاكنة، كما لو أنّه ترخيص من باوهاوس للبدء بنشر التقدّم والنظام في تلك الغابة الصّغيرة.

بدا لي أنّه من المُتعذّر تفسير الكلام السّيئ المنسوب لأحد الأبنية الجميلة القليلة في ذاك المكب. لم يكن المنزل بأية وسيلة مكانًا قبيحًا أو شرّيرًا كما تصوّرته. لقد جمّل وجودُه كلّ ما أحاط به: بيوت الصّفيح، والمساكن المسبقة الصّنع التي استعملها الصّيادون

لتمليح كلب البحر وتعليقه، ومتاجر الخمور ذات السّتائر المصنوعة من الخرز التي ارتادها الرجال لشرب اليانسون. لم ينتمِ ذاك المنزل لتلك القرية وبإمكاني أن أقول إنه لا ينتمي حتّى لذاك العالم. دخلت المنزل من دون خوف، وقد جذبتني النّوافذ المتعدّدة الأشكال ذات الزجاج الأبيض والملوّن، إلّا أن المنزل في حالة يُرثى لها من الدّاخل، فقد ابتلعت الأعشاب والزواحف كامل بيت الدّرج تقريبًا المصنوع من المعدن الأبيض والزّجاج.

هناك آثار ترابية على الجدران بفعل الفيضانات، أما مقابض الأبواب المخلوعة والفوضى في الداخل فتدلّ على دخول اللصوص إلى البيت. كانت زوايا الفاترينات مليئة بالدّبابير. بقيت قطع أثاث قليلة وتوجد على الأرض أوراق مخلوطة: كتابات عن نظرية الألوان المضافة وعن كيفية تعليق كرة في الهواء، إضافة إلى رسومات لإنشاءات معدنية. دقّقت النظر في المكتبة التي كانت بارزة من الجدار الأبيض. احتوى الرفّ الأوّل على كتب بالفرنسية. كانت تلك المرّة الأولى التي أرى فيها كتابًا من إصدار دار غاليمار، بدا الكتاب باهتًا وأنيقًا، مع ذاك الصندوق المزدوج المكوّن من خطوط مستقيمة على الغلاف العظمي.

وجدت العديد من الكتيبات الإرشادية الفنّية التي كانت مُنتزَعة وصفحاتها مُمزّقة. لم يسبق لي أبدًا أن قرأت تلك الأسماء، لقد انحفر بعضها في ذاكرتي بسبب غرابتها: جوزيف ألبيرس، جين أرب، كالدير، دوشامب، جاكوبسن، تينغلي، وغيرهم. خُصّصت صفحة

لكل فنّان، وفيها شرح مُفصّل. وجدت العديد من الأعمال المُعادة المألوفة في تلك الكتب. سيّارات الشوارع ومترو الأنفاق، حتّى الممرّات المخطّطة المخصّصة للمشاة في المدينة، كان لها نمطٌ متشابه. استغرق منّي الأمر سنوات لكي أدرك أنّ هناك شيئًا في البريق الذي شعّ في المنزل المفقود في تلك القرية السّاحلية لينتشر عبر البلاد: كان الوعد بأننا سنصبح بلدًا مُتقدّمًا، كان إعلان نوايا، ولكن حتّى النوايا تم تدميرها، على غرار اللوحات الجدارية المعدنية المدُمّرة التي سُرِق جمالها الأخّاذ من قبل المحتالين واللصوص. انتصبت التّماثيل المُتداعية في جميع أرجاء المدينة. رغبت في الانتقال لأعيش في منزل المهندس المعماري، حتّى إنّه راودتني تخيّلات حول فكرة تنظيفه وتهيئته لكي أُمضي فيه الأوقات المُملّة التي قدّمها لي نُزل فالكون بسخاء.

تدلّت حبال الثريّات فوق القاعة الرئيسة، وعثرت قرب الدّرج على أشياء لا يبدو أنّها منسجمة مع روح المكان: كتب مُمزّقة لقدّاس الصلاة، وتماثيل مقطوعة الرأس للقديسين، وكراسات توصية منزوعة الغلاف، إضافة إلى قوارير الكونياك الفارغة، وحلزون البحر، وريش الدجاج، وثياب بالية قذرة. صعدت الدّرج مع إحساس غامر بالخوف والدّهشة معًا. صرّت الدرجات تحت قدميّ، كانت منخورة بفعل ملوحة أوكامار دي لا كوستا. يمكن من الأعلى رؤية نباتات القطن التي كانت مبعثرة في ذاك الوقت وتلقّى أشعة الشمس. من الممكن سماع الصوت المتموّج النّهر، وهناك نساء يغسلن الثياب

عند الضّفة. انزلق كيس الطماطم من يدي ووقع على صندوقٍ فارغ من الورق المقوّى، كانت السقطة قوية كما لو أنّني كنت أحمل الحجارة بدلًا من الخضار.

- "من هناك؟".

كان هذا صوت رجل، هرعت إلى أسفل الدرج، وانزلقت وأصبت بخدشٍ كبير تسبّب لي بألمٍ لاذع، ولكن الرّعب الذي أصبت به كان أكبر من ألم الجرح. ركضت من دون أن أنظر إلى الخلف، ولم أتوقّف حتى وصلت إلى ساحة السّوق. وعندما وقفت وحدي لاحظت أنّ سروالي مُمزّق وملطّخ بالدّم. عدت إلى النُزل بعد ساعة، ولا أتذكّر ما الذي كان أسوأ، صرخات بانشو وهي تُطبخ على قيد الحياة في وعاءٍ من الماء المغلي أم النّظرة التي وجّهتها لي أمّي عندما رجعت بثيابٍ مُمزّقة ومن دون طماطم. أعرف أنّك لم تُصدّقي القصّة التي رويتها لك.

كتمت الغضب والغيظ داخلك، مِمّا يجعلهما أشد إيلامًا. أكلنا بقايا بانشو دونما بهجة، وتحركت خالتاي جيئةً وذهابًا في المطبخ وهما تهزّان مؤخرتيهما الكبيرتين. قالت كلارا لشقيقتها الكبرى: "إيميليا، لقد كانت من دون نكهة"، التي بدورها وجّهت نظرة حانقة لشقيقتها.

"تحقّقي من أمر هذه الفتاة، من أسقطكِ أرضًا؟ يا إلهي!". أجابتها إيميليا لكي توجّه غضبها نحو شيءٍ آخر. صاحت بصوتٍ عالٍ: "عذراء الوادي، هذه الفتاة ستجعلك حمقاء". لقد تجاهلتِ يا أمّي الدراما التي اختلقتها خالتاي، أكلتِ قطعة صغيرة للغاية من

الكعكة. "ولكن أديليدا، يا بنتي، لقد قتلت السلحفاة وأنتِ لم تأكلي! إذا كنت تصرّين على هذا فسوف تجعلين يومنا مريرًا، انظري أيّتها الفتاة العنيدة، انظري ماذا فعلتِ بأمّك".

حدّقت خالتي كلارا بي بعينيها المجنونتين الشبيهتين بأعين الأفاعي، وهي مستاءة، كما تقول، من الجفاء والكمّ الكبير من العمل الواجب إنهاؤه. أنتِ يا أمّي أكلت دون أن ترفعي حاجبك، كنتِ أوّل من نهض عن الطاولة ونظّف الصّحون. لم تتحدّثي معي ليومين، كانت تلك أوّل عقوبة صمت وقد آلمتني أكثر من أيّ أذىً جسدي. ولكن لطالما كنت كذلك يا أمّي.

أطلق سائق التاكسي الزّمور مرّتين، لا بدّ أنّني بقيت أكثر من الوقت المتّفق عليه سابقًا. غادرت هذه المرّة من دون أن أنظر إلى الوراء، وأنا أمضغ الأحرف المُمزّقة لاسمينا، أنا وأنتِ: أديليدا فالكون. جلست في المقعد المجاور للسائق بفمٍ وقلب من دون أسنان. أعطيته الاتجاهات التي أخبروني بها في المكتب العام للمقبرة. انتقلنا إلى أحد الأماكن القليلة الارتفاع، مربّعات ممتلئة بالقبور المكسوّة بين أحواض الزهور، وقد تحلّل قاطنوها من دون أيّ أثر، وهم مُتجمّعون بقرب بعضهم بعضًا.

- "انتظرني هنا، لن أستغرق وقتًا طويلًا مثل القبر السّابق، ولا تقلق، سأدفع لك لقاء الوقت الزائد".

أطلق الرّجل زفيرًا، كما لو أنّ عمله كان مُدمّرًا. أغلقت الباب باليد التي أحمل فيها باقة زهور من الأقحوان. لم يكن هناك أيّ أحد

في المقبرة، وغطّت الأوراق الجّافة الممرّات الطّويلة. في تلك البقعة من المقبرة، هناك قبر أقدم من قبر أمّي، ضمّت معظم القبور مهاجرين أوروبيّين، وعلى الرّغم من اتّباع نفس النّمط في تصميم القبور، الشكل المربّع والبسيط من دون أيّة زخارف مما جعل جميع القبور متماثلة، إلّا أنّ بعضهم أضافوا عددًا من التفاصيل الكمالية: ألعاب في هيئة مروحية وشموع للأطفال الذين أتمّوا عامهم العشرين وهم موتى، نباتات زينة عيد الفصح وأشجار ميلاد صغيرة لوّحتها الشّمس. هناك شواهد قبور عليها صور شخصية ذات إطار بيضوي لرجال ونساء يرتدون ثيابًا على الموضة القديمة.

وجدت قبر جوليا بيرالتا على بعد بضع خطوات من شجرة. توجد طبقة عشبية كثيفة تغطّي القبر بأكمله تقريبًا لتحوّله إلى ما يشبه الأريكة العشبية. كان عليّ أن أقترب أكثر وأزيح بعض الأعشاب لكي أقرأ اسمها بالكامل: جوليا بيرالتا فيغا. خرجت مجموعة غاضبة من النمل قاطع العشب في جميع الاتجاهات. كان عددها بالمئات ولونها أحمر، مثل تلك التي تُفرز الصلصة الحمراء اللاذعة وتكتسي بعصارة المينهون اللاسعة. أحاط النّمل بالصورة المصقولة لجوليا بيرالتا، وهي صورة استديو تصوير، باردة وعديمة الرّوح. هذه نفس خصالها عندما كانت على قيد الحياة. عندما حاولت أن أضع باقة الزّهور في الإناء عضّت إحدى النّملات سبابتي. قفزت إلى الوراء وأنا أضغط بقوّة على إصبعي. كانت عضّة كبيرة، وبدأ إصبعي يرتجف ويلذعني، حاولت أن أحرّك بقيّة الأجمة بعصا، ولكن اتضح لي أن هذا مستحيل.

تورّم إصبعي بعد ثوانٍ بسبب ردّة الفعل التحسّسية على العضّة. يبدو أن جوليا بيرالتا وجدت أن زيارتي لها غير ملائمة ولهذا هاجمتني من قبرها بالمشاة من قوّات النّمل التي تتضاعف بيوضها تحت قيادة الملكة الأم. مصصت إصبعي مثل الطّفل، وحملت الباقة الصّغيرة التي فسدت بالفعل ووضعتها على اللّوح الإسمنتي بالقرب من اسمها المطبوع.

لا أدري ما إذا كنت أطلب المغفرة أو الإذن، لا أعرف ما الذي كنت أفعله، وأنا أقف أمام القبر الذي كان من الممكن أن تشغله ابنتها، وهذا ما لم يحدث بسببي. أخذت جوليا بيرالتا حقّها في النوم أسفل التراب ببضعة أمتار، أما ابنتها من ناحيةٍ أُخرى، فقد احترقت بالكامل بالقرب من مكب للنفايات. أنا من وضعتها هناك، وأنا من أشعلت فيها النّار وتركتها. إذا ما كان أحد ينتمي للمكان الذي دُفِن فيه أحبّاؤه، فإن هذا المكان يجب أن أشغله أنا من بين الجميع. بإمكاننا أن نُدفن بقرب أحدٍ ما عندما يسود السّلام والعدالة، وليس لدينا أيٌّ منهما الآن، لهذا لم تأتِ الفرصة لذلك، هناك القليل لكي يتم غفرانه.

"أعطيتها، أعطيتها، أعطيتها وروداً وأزهاراً، أحضرت لها ألواناً مختلفة لأجل سان خوان!". هكذا أنشد الزّنوج في أوكامار دي لا كوستا في ليالي حزيران. "الطّقس المجنون يذهب من دون رجعة، والموزة النّاضجة لا تعود خضراء أبداً". هكذا أنشدوا وهم يهزّون أوراكهم على الشّاطئ في طفولتي. "أعطيتها، أعطيتها، أعطيتها وروداً

وأزهارًا، أحضرت لها ألوانًا مختلفة لأجل سان خوان!". تركت باقة الأزهار التي اشتريتها لامرأة كنت أعرف القليل عنها وأخذت منها كلّ شيء، ومثلما لن يعود سان خوان إلى السّماء، فإنّ السّلام لن يحلّ على الأرض. في تلك الظّهيرة غادرت المقبرة التي تساقط من أشجارها ريش الدّجاج مقطوع الرأس. عادت الطّماطم لتنفلق، السّلحفاة البحرية التي كانت تصرخ داخل إناء الماء المغلي. والقطن والسّمك اللذان خرجا من صدري.

لقد ألزمتني أمّي بالصمت الأبدي، أما المرأة الإسبانية الأخرى فقد استعملت جسدها لتقدّم السّم للنمل قاطع الورق في الأرض التي اختارت أن تموت فيها. لا أحد يرقد بسلام في هذه البلاد، لا أحد. قلت للسائق قبل أن أغلق الباب، "خذني إلى شارع أوردانيتا مرورًا بزاوية لا بيلوتا".

"الرجاء من المسافرة أورورا بيرالتا الحضور إلى موظّف شركة الطيران". تركت جواز السّفر على الطاولة ونزلت من العربة، أطعت الأمر، هذا هو الخيار لمن لا يملكون الخيار. قلت بيني وبين نفسي "اللعنة"، فيما كنت أعدّل الصدرية العاكسة التي تجبر قوّات الحرس الوطني المسافرين على ارتدائها إذا ما كان لديهم شيء ليصرّحوا عنه. كانت هذه المرّة الثالثة التي يفتّشونني فيها، لذا افترضت أن هذا هو التفتيش الفاصل، إمّا أن أبقى وإما أغادر. تعرّقت أكثر مِمّا هو طبيعي فيما قادني عنصر الحرس بلطفٍ مبالغ فيه وهو كفيل بالإيقاع بأولئك الذين لا يعرفون كيف يكذبون أو يرتكبون الجرائم. وقفت هناك من دون جواز سفر، كانت رؤية مسؤول الحرس الوطني آخر ما أريد الاستمتاع به، على الأقل بالنّسبة إليّ.

أجبرني على أن أضع حقيبتي على الطّاولة المعدنية، وتحرّك بشكل مائل كي لا يقترب منّي. فتحت أقفال الحقيبة وهو ينظر إليّ مباشرةً في عينيّ مشيرًا لي ببذلته المموّهة الخضراء، والقلادة المعدنية المُخيّطة على صدره، والمسدّس وقراب المسدّس والطّلقات في

نطاقه العسكري التي بدت جديدة تمامًا على خصره، دسّ "السّيد" يده بين أغراضي، كما تفعل السّلطات عادةً عندما تكون مشغولة في كونها السّلطات المختصّة.

- "لماذا تحملين الكثير من الكتب والأوراق؟ ما هو الغرض منها؟".
- "أنا طاهية".
- "فقط لهذا السّبب؟".
- "أجل فقط لهذا السّبب".

ألقيت نظرة على أغراضي الفوضوية داخل الحقيبة: كتبي، دفاتر الملاحظات القديمة، الصّور، كانت جميعها عديمة الجّدوى إلّا لأمرٍ واحد؛ تذكيري بهويتي السّابقة أو من أنا في الحقيقة. هناك أيضًا الأشياء الأخرى: الملابس القبيحة ذات الموضة القديمة لاورورا، ألبومات الصّور، الرسائل التي قرأتها ودرستها ودوّنت ملاحظاتي عنها كما لو أنّني سأتقدّم بامتحان حولها. صنعت بطانة مزدوجة في الحقيبة لأجل هذه الرّحلة خصيصًا ووضعت فيها سندات الملكية للشّقتين، شقّتي وشقّة أورورا بيرالتا، إن هذه الوثائق لا تشكّك بوقوع أيّة جريمة، ولكنّني أخفيتها على أيّة حال.

في منتصف مدرّج الطّيران في مطار قائد الثورة الأبدية الدّولي، رأيت وأنا مذهولة من رائحة الوقود والبحر الطّائرات التي تحمل النّاس عبر المحيط الأطلسي. شعرت أنّني أمام بطنٍ مفتوحة لحوت حيث من الممكن رؤية أحشائه. شعرت بالتواضع. أردت أن أغطّيه

وأغطّي نفسي، ولكنّني لم أعترض، لم أرفع إصبعًا حتى. لم أسأل السّيد "ما هو عدد الرّصاصات في قراب مسدّسك التي حُفِرت عليها أسماؤنا"، ولم أُرِد حتّى أن ألجأ إلى التضامن مع أولئك الّذين انتظروا في الطّابور: المدنيّون الذين أطاعوا القوّة.

ألحّ عليّ العرّيف مجدّدًا "إذن أنتِ طاهية، ما هو نوع الطّعام الذي تقومين بإعداده؟ لماذا لا يوجد الكثير من الكتب عن الطّهو؟".

- "أنا أُعِدّ الكعك والحلويات سيّدي، وأحبّ أن أقرأ، أشعر بالضجر عندما أنتظر بالقرب من الفرن حتّى ينضج ما أقوم بإعداده، لهذا أقرأ كثيرًا".
- "امممم... حسنًا، وماذا أيضًا؟"
- "لم أفهم مقصدك".

وحدّقت إليه.

- "أنا أسأل ما الّذي ستفعلينه، هل أنتِ ذاهبة إلى إسبانيا للعمل طاهية؟ لديك تذكرة ذهاب فقط أيّتها المواطنة، لا أرى هنا أيّ شيء بخصوص العودة".

استرجعت في ذاكرتي الكلام الذي أعددته وحفظته عن ظهر قلب بعد أن أدّيته مئات المرّات أمام مرآة الحمّام.

- "كما ترى سيّدي، فإنّ عمّتي العجوز مريضة، وكما تعلم فعليّ أن أعتني بها. إنّ موعد عودتي يعتمد على تحسّن حالتها، لهذا لم أدفع لقاء تذكرة العودة". كانت هذه خدعة على الطّراز القديم، استخدام التفاصيل الصغيرة، ولكنّها

بدت فعّالة لتأكيد الدّور الذي أؤديه.

- "امممم... والآن..." قال بتلكّؤ، كما لو أنّه لم يفهم ما قلته، وهو ما كان أقلّ من توقّعاتي بكثير. "انتظري هنا أيّتها المواطنة"، وغادر لوقتٍ بدا لي أبديًا. كنت أخشى أن يرسلوني إلى غرفة الفحص، هناك يعرّونك ويتحسّسونك، ويضعونك في منتصف طبقٍ معدني، في حال كنت تُخفي شيء ما في معدتك أو للتحقّق من أنّك لا تُخفي شيئًا في فتحات جسدك. لم أكن أخشى من الأمر الأوّل، ولكن في حالة الأمر الثّاني فسوف تتم تعريتي بالكامل، مجرّد تخيّل الأمر أصابني بالدّوار. كنت أُخفي جميع الأوراق المهمّة في حزام مشدود لآلام منطقة أسفل الظّهر. إنّه دليل براءة سيئ، ولكنّه دليل براءة على أيّة حال، وفي النهاية، كنت أضع ما بين بطني وظهري الأوراق النّقدية من فئة اليورو التي بقيت معي، إضافة إلى البطاقات المصرفية لأورورا بيرالتا التي أخفيتها في بطانة مزدوجة أُخرى في محفظة نقود كانت في حقيبة اليد مع الوثائق القليلة الأخرى التي تدلّ على هويّتي الحقيقية.

كان يجب أن تسير الأمور على نحو خاطئ للغاية لكي يقرّروا أن يفتّشوني، وبالطّبع، إن النتيجة لا يتم تقريرها بسبب مخاوفه، ولكن هو من غرس الخوف في ذهني. إن المغزى يكمن هنا، كان الأمر أشبه باللعب بالطعام قبل أن تضعه في فمك، أن تُخضِع إرادة الطّرف الآخر

من دون أن تلمسه. عاد العريف، وهو يسير بخطوات طويلة كما لو أنّ السّأم وزنه أكبر من الحذاء الذي يرتديه.

- "ما اسم عمّتك أيّتها المواطنة؟".
- "فرانشيسكا بيرالتا".
- "آه، فرانشيسكا بيرالتا، وهل أخذتِ معك طعامًا؟".
- "لا، بإمكانك أن تتفقّد الحقيبة".
- "حسنًا، يجب أن تخبريني لأنّك في هذه الحالة يجب أن تخضعي لقوانين الجّرائم البيئية والرّسوم الجمركية".

كانت الحقيبة لا تزال مفتوحة، أخذ العريف كتابًا وأخذ يشمّه.

- "إذا كنت تطبخين، فلماذا لا تأخذين الطّعام معك؟".
- "سيّدي، إنّ سبب مغادرتي هو أنّني سأعتني بامرأة مريضة، وليس لأطبخ".
- "ولكن ما هو مضمون هذه الكتب؟ هل توجد فيها وصفات؟".
- "لا سيّدي، إنّها روايات، أقرؤها لكي أُمضي الوقت".
- "مممم... حسنًا، وأين تعيش عمّتك؟"
- "في مدريد يا سيّدي".
- "في أي جزء من مدريد أيّتها المواطنة؟".
- "في لاس فينتاس يا سيّدي، بالقرب من حلبة مصارعة الثيران".

- "هل هناك حلبات لمصارعة الثيران في مدريد؟".

أومأت برأسي في إشارة الموافقة.

- "وهل أنتِ إسبانيّة؟ إذا كنت ستمكثين لفترة طويلة، فلا بُدّ أن تكون لديك إقامة هناك، صحيح؟ يجب أن تكون لديك أوراق تتيح لك الإقامة".
- "إنّ أمّي إسبانية، وكما ترى، لديّ جنسيتان".
- "حسنًا، وأين جواز سفرك الإسباني؟".

أُصبت بالدوار وبدأت أشعر بحرق في أمعائي. أومأت برأسي ووضعت يديّ في جيبي وأخرجته.

- "ها هو ذا".
- "ولماذا لم تُريني إيّاه من قبل؟".
- "حسنًا، لأنّني... لأنّني... أنا مواطنة في هذه البلاد، أليس كذلك؟ قلت هذا وجواز السّفر ما زال في يدي".
- "أعطيني إيّاه".

تردّدت للحظة، إذا ما كان لحياتي أيّ معنى، فإنّ الفضل يعود لهذه الوثيقة. أعطيته الجواز كما لو أنّني أعطيه كلية من كليتيّ.

- "انتظري هنا". وغادر مجدّدًا، تولّد لديّ انطباع أنّ أي موقف ذي أدنى تعقيد فإن العريف يجب أن يستشير أحدًا ما ذا رتبة أعلى، كما لو أنّه عاجز عن معالجة أيّ موقف يتجاوز الرّوتين الأساسي.

هناك فتاة تنتظر بالقرب مني، لقد صادروا منها ثمانية ألواح من الشوكولا، وهي، لم تكن لديها جنسية إسبانيّة، شرحت لهم مئات المرّات أنّها مسافرة لكي تدرس الماجستير في برشلونة. وبعد أن تناول أفراد الحرس الوطني قضمات من جميع الألواح، سألوها عما إذا كانت ستعود، أجابتهم من دون تردّد بالإيجاب. خلفي بطاولتين، هناك امرأة عجوز وجب عليها أن تُخرِج سنّارات الحياكة وأن تشرح أنّها بغرض حياكة الصّوف. تشارك جميع الأشخاص الذين يُتوقّع أن لديهم أشياء ستتم مصادرتها نفس الخصائص: كُنا جميعًا نساء وعجائز، حالة سهلة لكي تتمّ إخافتها.

نظرت إلى كلب الرّعي الألماني الذي استخدمه الحرّاس للكشف عن المخدرات القادمة من بلدان أُخرى والتي يتولّى أمر حمايتها المسؤولون الأمنيون أنفسهم. لم ترتدِ الكلاب كمّامات ودسّت أنفها في كلّ شيء، وضعت أنفها بين منفرج السّاقين وفي حقائب اليد التي يحملها المسافرون. لقد أقسموا لنا، ووضعوا أصابعهم في أكثر الأماكن التي تسبّب الألم. كانوا يدعوننا بالمواطنين، ولكنّهم عاملونا كالمجرمين. كانوا مُرتابين ومُتشكّكين واحتجزوا النّاس من أجل أن يدعوا الآخرين الذين يحملون الكوكايين المُخبّأ يمرّون دون تفتيش. لقد أدّوا تمثيلية الاهتمام لأمرنا والتّربيت علينا لأن كسب الوقت معنا هو أمرٌ مُربح، إن المخدرات تجني دخلًا أكثر من التنمّر. إن بثّ الخوف يولّد المتعة أيضًا. عاد العريف وأعاد لي جواز السّفر الإسباني ووضعه في يدي.

"امممم..."

لم أفهم إذا ما أراد أن يُخبرني بشيء بذاك الصّوت، الذي كان أنينًا أكثر منه كلامًا. قال لي بلهجة آمرة "تعالي معي". سلّمت أمري للموت، تبعت الرّجل عبر القاعات الرّمادية، لم يكن معي جواز سفر أو هاتف وليس بإمكاني الهرب. لم أكن من عائلة فالكون ولا من عائلة بيرالتا في حال قاموا باغتصابي أو جعلوني لحمًا مفرومًا، لن يعرف أيّ أحد بما جرى معي. قادني العريف إلى مكتب حيث يجلس رجل بدين يتفقّد الأوراق.

- "اجلسي، ما اسمك؟".
- "أورورا بيرالتا".
- "لماذا أنتِ مسافرة إلى إسبانيا؟".
- "لأعتني بقريبتي المريضة".
- "هل تحملين معك أوراقًا نقدية من فئة اليورو أيّتها المواطنة؟".

لم أكن أعلم ما هي الرّتبة التي سأناديه بها، ولكن من الواضح أنّه هو من أتى إليه العريف ليخبره بأمري.

- "لا يا سيّدي".
- "كيف ستدفعين لقاء إقامتك هناك".
- "سأقيم في منزل أقربائي".

تفحّص الرجل جواز سفري وأخرج زفيرًا بدا لي كأنّه هبوب الرّيح.

- "أخبرني العريف غوتيريز أنّك نظيفة، ولكي أتأكد من ذلك، سنجعلك تمرّين في غرفة الفحص". لا بُدّ أنّني فتحت عينيّ على اتساعهما، تابع الرّجل: "لا تقلقي، أيّتها المواطنة، ستتكفّل الدولة بهذا، لن يكلّفك الأمر أيّ شيء. هلّا تفضّلت بمرافقة العريف غوتيريز؟ وسأحتفظ بجواز سفرك وفي حال تعاونت معنا، سنعيده لك".

وضع العريف غوتيريز يديه على حزامه، رأيت أنّني أدفع بالجنس مقابل موتٍ سريع، ما الذي يجب أن أفعله؟ هل أصرخ؟ ومن أجل ماذا؟ ما الذي سيجدي هذا؟

- "أيًّا كان ما تقوله أيّها الضّابط، إذا كان باستطاعتي أن أتعاون فسوف أفعل".

أجبته كما لو أنّني ابتلعت السّائل المنوي للرجل.

- "اذهبي مع العريف، وتعاوني أيّتها المواطنة".

رافقني العريف غوتيريز إلى الشاحنة. أمرني "اخلعي السّترة العاكسة".

أصابتني النّظرة التي رمقني بها بالرّعب، نزعت الزّي وتركته في المضافة، بالقرب من حقيبتي.

"تعالي معي".

بقيت الطّائرة على أرض المطار، إلّا أنّني لم أصعد إليها بعد. مشى العريف غويتيريز معي في الصّالات والمعارض حيث تجوّل المسافرون للتوجّه إلى بوّابات الصّعود إلى الطائرات. توقّف العريف

أمام أحد المتاجر المُعفاة من الضرائب، وهي إمبراطورية من العطور والخمور وأدوات التجميل. تغيّرت نبرته على نحوٍ مُفاجئ.

- "انظري أيّتها الفتاة الجميلة، ادخلي إلى هنا، واختاري تلفاز سامسونغ، ذاك التلفاز، الأكبر بينها، ثم اذهبي إلى الصندوق، قدّمي أوراقك وخذي التلفاز".

كنت أومئ برأسي فيما كان يتكلّم.

- "ولكن يا سيدي، لا أملك المال لكي أدفع ثمنه".
- "ليست هذه مشكلة يا بنتي، أحضري التلفاز فقط، الأمر بهذه البساطة".

دخلت إلى المتجر وطلبت التلفاز، وقّعت على الأوراق وقدّمت وثائقي، طبع موظف المتجر الفاتورة وغرزها وجهّزها، وودّعني قائلًا: "استمتعي بالتسوّق وبرحلتك". عدت إلى العريف، الذي أشار إلى الأرض بأنفه، وضعت التلفاز وجاء موظف المطار وأخذه. عندها فقط عدنا إلى الشّاحنة. انتهى بنا المطاف حيث بدأنا؛ أمام حقيبتي، فتح العريف حقيبتي ثانيةً، وفحصها بشكلٍ آلي، ثم قال: "كلّ شيء على ما يرام أيّتها المواطنة".

عندها فقط أعاد لي جوازَي السّفر، الإسباني والفنزويلي، وكلاهما باسم أورورا بيرالتا، وهناك لصاقة صفراء ذات شكل دائري على الجواز الإسباني. صعدت الدّرج إلى غرفة الانتظار بصعوبة، كانت قدماي ترتجفان. هناك في غرفة الانتظار اللامعة لبوّابة الصعود، نظرت إلى مدرج هبوط الطائرات وعمّال المطار. أولئك الرجال

والنساء الذين حرّكوا أذرعهم كما لو أنّهم يؤدّون رقصةً للطائرات. توهجّ الإسفلت مثل شوكة مصقولة فيما اهتزّ الزجاج بفعل الصّوت الخشن للتوربينات. لم تكن ساعة الروليكس التي في الصّالة تعمل، إذ إنّها توقفت عند الثّانية من بعد الظهر. نظرت إلى جواز سفري، كما لو أنّني أطّلع على صفحاته بنظراتي الخالية من أيّ معنى، كأنّني أحاول أن أقنع نفسي أنّني هذه المرّة أصبحت أورورا بيرالتا. رأيت المسافرين حولي وهم مشغولون بهواتفهم المحمولة. كانوا يقتلون الوقت بسأم بالضغط برؤوس أصابعهم على شاشات الهواتف.

أصبح المطار مثل فرنٍ لإحراق الموتى مع مكيّف الهواء السّاخن، تلك المرأة، أو ذاك الطفل، أو ذاك الرجل ذو النظارة، أرسلوا الرسائل قبل عبور البحر وكأنّهم يحرقون خرطوشاتهم الأخيرة، أو لا، كأنّهم يحرقون السفن. إنّ عدم العودة هو أفضل شيء يمكن أن يحدث لنا. رنّ هاتفي الخلويّ داخل الحقيبة. كانت آنّا هي المتّصلة. كانت تصرخ بين الشهقات الباكية. لم أستطع أن أفهم أيّ شيء مِمّا تقول، ثمّ كلّمني خوليو، أخبرني أنّ سانتياغو مات؛ عثروا عليه في أحد الحقول على مشارف المدينة، كان مقتولًا بثلاث طلقات في الرأس وهناك كيس من الكوكايين في حقيبة الظهر.

- "كوكايين؟".
- "أجل يا أديليدا، ألم تقرئي الأخبار؟ قالت الحكومة إنّه كان يبيع المادّة بحسب معلوماتهم، ذكروا في الصحيفة أنّهم قتلوا طالبًا من قادة المقاومة هرّب المخدرات، لكي يبدو الأمر

على أنّه تدخّل لإحباط عمل تخريبي. هل تسمعينني؟".

- "أجل يا خوليو، دعني أتكلّم مع آنّا".

أخبر آنّا أن تتكلّم معي.

- "هذا ليس صحيحًا، وأنتِ تعرفين هذا!".

- "لا لا، استمعي لي، إنّ الأمر المهمّ الآن يا آنّا، إن الأمر المهم أن تهدئي قليلًا".

كرّرت عبارتي وأنا أصرخ، كما لو أنّ الصراخ كان وسيلتي لكي أعالج أمر حالة الذهول التي أصابتني.

- "مهووسون!"

- "آنّا، أصغي إلي!". كان من المستحيل الحديث معها. لم تتوقّف عن البكاء. "آنّا، أصغي إليّ، آنّا، آنا! هل بإمكانك أن تسمعيني؟". انقطع الاتصال، حاولت الاتصال بها عدّة مرّات، إلّا أنّ الاتصال تم تحويله لمسجّل الرسائل الصّوتية، تركت لها ثلاث رسائل صوتية. حدّقت بشاحنة الأمتعة المركونة بالقرب من الطائرة. أعلن موظف شركة الطيران بدء عملية صعود الركاب إلى الرحلة X072 المتجهة إلى مدريد. هرع العمّال الأرضيون لتحميل الحقائب والصّناديق. نظرت إلى الحقائب وأنا أحاول أن أميّز حقيبتي، ولكنّني فشلت في التعرّف إليها. وجدت أن جميع هذه الحقائب صغيرة، لا تكفي لكي تنقذ حياة أورورا بيرالتا. لقد كانت حالة تلك الحقائب تحاكي حالنا: مكدّسة

ومضروبة. تشاركنا معها الحالة البائسة للسمك في السّوق، هناك أحد ما قطّع أوصالنا، فتح بطوننا لكي يفتّش عمّا يوجد داخلنا من دون أيّ عار.

في ذلك اليوم فهمت ما هي الوداعات المؤكّدة التي تتم بشكل نهائي. ودّعت نفسي، ذاك المقدار الضئيل من الأحشاء والقذارة، ودّعت ذاك السّاحل، تلك البلاد التي ليس بإمكاننا أن نستعيد منها أيّ شيء ولا حتّى دمعة. صعدت إلى الطائرة وجلست في مقعدي. أطفأت الهاتف وأطفأت معه أعصابي. نظرت إلى النافذة، لقد حلّ الليل وأنارت الكهرباء البائسة والجميلة في آن واحد المدينة. بدت كاراكاس مكانًا دافئًا ومريعًا في ذات الوقت، إنّها مثل العشّ الدّافئ الذي يسكن فيه حيوان يحدّق بك بأعين صفراء شبيهة بأعين الأفعى في الظلام.

ذهبت إلى النهر لأغسل الثياب البيضاء. صحبتني فتاة ترتدي سروالًا مثقوبًا، هناك شقّ مُنقّط ببقع الدّم الجّافة عند القماش الممزّق في الركبة اليُمنى. نظرت إلى القرية المليئة بالقماش القذر، سألت الفتاة عن اسمها وعمّا حدث لها، وعن مكان وجود أمّها. إلّا أنّها أمسكت يدي وسحبتني بقوّة أشبه بقوّة العمالقة. غطسنا تحت الماء العكر الذي لم يُشبه في شيء الماء النظيف والشّاطئ الهادئ حيث كنت أعصر ثيابي. كنّا نطوف بالقرب من البراز المتطاول كالأفاعي وقد تحرك ببطء بالقرب من الخيول والفرسان الموتى. كانت عيونهم مفتوحة وألوانهم مصفرّة مثل صفار البيض المقلي. ارتطمت جثث الحيوانات والرجال بي أنا والفتاة فيما كنّا نسبح، سبحنا بلا رشاقة في تلك البركة الدافئة من الدمّ والقذارة، وبسبب عجزنا عن السّباحة عكس المسار، تابعنا مع اتّجاه التيار الذي أخذ يدور بنا في تلك الحجرة الضّيقة من الكوابيس البطيئة.

سحبتني الفتاة من يدي وغطّستني أكثر، في تلك الشعاب المكوّنة من الطحالب البحرية والرّوث القاسي والمتصلّب. أردت أن أسبح إلى السّطح، ولكن الفتاة سحبتني ثانيةً من يدي لكي تدلّني على

أمرٍ ما. هناك خلف الحصان المُسرّج من دون فارس، رأيت هناك جثةً طافيةً استحالت إلى كرة: جنينٌ ذكر مع مشيمة متعفّنة. سحبت الفتاة إليه من دون أن تترك يدي، ثمّ أمسكته من كتفه، وأدارت الجثّة على نحو يمكّننا من رؤية وجهه؛ كان سانتياغو. استخدمت الفتاة ذراعها الحرّة لتضعها على كتفيه، ثمّ تعانقنا نحن الثلاثة، في وسط ذاك السّرب المكوّن من البهائم والروث والرجال الموتى حولنا. عندما فتحت عينيّ رأيت مضيفة الطّيران تمسكني من كتفي.

- "هل أنتِ بخير؟". لا بدّ أنّني كنت أصرخ.
- "أجل، أنا بخير". شعرت بفمي ثقيلًا وليّنًا. وكنت أمسك حقيبتي التي بقيت في حضني طوال الوقت بكلتا يديّ.
- "سنحط في مطار باراخاس في غضون ساعة، هل تريدين الفطور؟".

أومأت برأسي، وأنا مذهولة من الرائحة الحلوة للخبز الطّازج التي عبقت في الهواء. وضعت المرأة أمامي قائمة طعام على الطبق: مكعبات فواكه، وجبنة صلبة، وتورتيلا للمسافرين الجائعين.

- "هل ترغبين في شرب الشّاي؟ القهوة؟ مع حليب أم من دون حليب؟ سكّر أم سكّرين؟". الكثير من الأسئلة، هل تريدين المتابعة أم العودة؟ هل اسمك أديليدا فالكون أم أورورا بيرالتا؟ هل قتلتها أم كانت ميّتة بالأصل؟ هل هربتِ أم قمت بالسّطو والسّرقة؟ بدت الطّائرة صغيرة وخانقة. قلت لها: "أشعر بالعطش".

- "هل تريدين الماء؟ العصير؟ أناناس أم برتقال؟".
- "برتقال، أريد برتقال".

شربت العصير المركّز مرّةً واحدة، شعرت أنّني استعدت الحياة والصّفاء مع الطّعمة الكيميائية للحامض التي روت دماغي العطش. تفقدّت كلّ شيء حولي. لم أجد أحدًا يجلس بالقرب مني. عبثت قليلًا برغيف الخبز، وتفحصت الأوعية الصغيرة والعديمة الفائدة. انتهى كلّ شيء بالطريقة نفسها التي بدأ بها: مع الكثير من الأطباق العديمة النفع. التفتّ إلى النافذة، بدأت خيوط الفجر تنسلّ بكسل عبر الظلام، كما لو أنّ الشمس تخرج ببطء لكي تبدأ يومًا جديدًا مازال مظلمًا في الجانب الآخر من البحر. متجاهلةً الأعجوبة التي يتحدّث عنها أولئك الذين عبروا المحيط الأطلسي، بالكاد تناولت طعامي.

أتت مضيفة الطيران، وأخذت الطّبق مع المناديل المكوّمة والكؤوس الفارغة. أعلن قائد الرحلة X072 أنّنا سنهبط بعد عشرين دقيقة في مطار باراخاس في مدريد. التفتّ ثانيةً إلى النّافذة المغطّاة بالجليد، وتفحصّت الملامح غير الحقيقيّة التي تبديها المدن عند النظر إليها من أعلى: الجانب المزيف، النموذج المصغّر. الطّرق السريعة، المنازل، الأراضي، برك السباحة، السيارات الصغيرة، السّائقون الذين يتحركون صوب وجهاتهم. أشخاص صغار بعيدون ذوو حياة غير مهمّة. حطّت الطائرة فجأة. تقدّمت الطائرة وهي تحتك بالمدرّج. لحقت بي رائحة الخبز البارد حتّى الباب الوحيد الذي

تمخّض عن المسافرين الواحد تلو الآخر. بدت الطائرة بعد نزول المسافرين كأنّها ساحة معركة: وسائد منسيّة، أوراق مجعّدة، كؤوس ورقية نزفت منها بقايا العصير أو المشروبات الغازية، التثاؤب الأخير عند النّوافذ.

مشيت عبر الممرّ وجواز السّفر بيدي، أحمله كما لو أنّه بوصلتي. أوحى لي المطار أنّ هذه البلاد ذات عملة لها قيمة حقيقيّة. عندما وصلت إلى مكتب سلطة الهجرة، وجدت طابورين من المسافرين، أحدهما للمسافرين من الاتحاد الأوروبي والآخر للأجانب. وقفت في طابور الأوروبيين مثل من يحمل أشياء مسروقة في جعبته. انتظرت دوري، تفحّص ضابط الهجرة جوازي، كان له وجه حليق وهيئة جميلة. لا يمكن للسلطة الممنوحة لك أن تكون خطرة مثل السلطة الممنوحة للعريف غويتريز ببذلته العسكرية التي تعلوها الشّارات. إن عملية أن تكون شخصًا آخر مُعقّدة عندما تكون هناك طاولة في المنتصف، كأنّك تبيع الحزن والحسرة وتقبض ثمنهما بالبيزو. لم تكن في جوازي الإسباني أية أختام، كانت صفحاته خالية تمامًا. لا بُدّ أنّ هذا استدعى انتباه ضابط الأمن، لأنّه تفقّد كلّ صفحة من الجواز. تفحّص الضابط تاريخ إصدار الجواز وصورتي عليه، ثم أغلقه وأعطاني إيّاه، وداعًا، وهذا كلّ شيء.

أصبحت إسبانية في تلك الكبينة الصغيرة بفضل تلك الأوراق المختومة التي حصلت عليها. ربّما هذه المرّة الأولى والوحيدة التي أحلّ فيها محلّ شخص آخر. تابعت سيري وقدماي بالكاد تحملانني.

تجوّلت في المعارض الموجودة في المطار وأنا أدفع اسمي كما لو أنّه ينير الطّريق أمامي. عندما وصلت إلى قاعة استلام الحقائب، رأيت الأحزمة الدّوارة وهي تحمل الحقائب. بدت الإنارة الفوسفورية كأنّها حاضنة للتفقيس نمت فيها المرأة التي كانت في داخلي على نحوٍ شاذ. كنتُ أمّي وكنتُ طفلي. توقّفت في ذاك اليوم عن التمسّك بالماضي بأسناني وعن النظر إلى الوراء. كان حمل حقيبتي هو الجهد الأخير الذي يجب أن أبذله. أمسكت بها بوساطة مقابضها وتقدّمت باتجاه باب الخروج. قلت لنفسي بصوتٍ خفيض "أيّتها البلاد اللعينة، لن تريني مُجدّدًا أبدًا". في ذاك الصّباح، ولمرّة في حياتي، انتصرت. مع حربة الصّيد ذات الخطاف العالقة ببطني، لكنّني انتصرت. إن كلّ بحر هو غرفة عمليات جراحية حيث يمزّق المبضع الحادّ أولئك الذين يجرؤون على عبوره.

هناك عائلة تنتظر وهي تحمل البالونات والأعلام. كانوا في أوّل الأمر مبتهجين وبعد مرور ثوانٍ بدت عليهم علامات خيبة الأمل لأنّهم لم يروا أحدًا من أحبّائهم يمرّ عبر بوّابات الخروج اللّامعة. رأيت أيضًا رجالًا يمسكون بأجهزة لوحية إلكترونية مع اسم المسافر، ونساء مُتأنّقاتٍ للغاية، كُنّ يرتدين ثياب المضيفات، يبدو أنّهن ينتظرن وصول مجموعة من السّياح. أردت أن أضربهنّ جميعًا، لا أعرف السّبب، ولكنّني أردت أن أضرب وأسبّب الأذى وأن أدمّر، كما لو أنّني إعصار، قوّة من قوى الطّبيعة.

سحبت حقيبتي إلى أن وصلت إلى مكانٍ خالٍ. تفقدّت العنوان: شارع لندن، الرّقم ثمانية، لاس فينتاس. "من المهم أن تخبري السّائق أن العنوان ضمن إم – 30". هذا ما أخبرتني به ماريا خوسيه في آخر بريد إلكتروني أرسلته إليّ. عشرة أسطر من التعليمات الضرورية للسفر وفي النهاية تمنّت لي رحلة جيّدة. ولكن هل كانت رحلة جيّدة في نهاية الأمر؟ لمن ستتمنّى مثل هذا الأمر، لمن يرحل أم لمن يعود؟ للشخص كائنًا من كان عندما يرحل أم لمن كان شخصًا آخر في

الأساس؟ إذن، ما الذي سيحدث إذا لم آتِ إلى العنوان؟ ماذا لو تهت في مدريد وبحثت عن حياة من دون أن أضطرّ إلى تجاوز عقبة عائلة لا أعرفها بالأساس؟ لماذا يجب أن أُقحِم نفسي بين أُناسٍ لا أعرف شيئًا عنهم في حين أستطيع باسمي الجديد أن أذهب إلى أيّ مكان من دون أيّة حاجة إلى التبريرات؟ شعرت بالخوف، أكثر بكثير مِمّا شعرت به عندما تخلّصت من جثّة المرأة التي أعطتني اسمها الآن. نظرت إلى حذائي، والثياب التي أرتديها ولا أملك غيرها. إنّ أيّ أحد يراني سيظنّ أنّني أتيت من مكان لم تحلّق فيه الطّائرات من قبل ولا يُستخدم فيها الصّراف الآلي.

لم تُفلِح الثّياب المخطّطة والكبيرة للغاية في مساعدة جسدي على لعبة انتحال الشّخصية. منذ أن ادّعيت أنّني أورورا بيرالتا، وبدأت أرتدي ثيابها وأبدو مثلها، وأتذكّر الأشياء مثلها بل وأحيانًا أفكّر مثلها، أخذت بعين الاعتبار أنّني سأكون امرأة غير مرغوبة وساهية عمّا يجري ومن دون صفات مُميّزة. أين يبدأ الشّخص بالكذب؟ عندما يقول اسمه؟ أم في الإيماءات التي يُبديها؟ أم في الذكريات؟ هل هذا بسبب الكلمات؟ تطلّب منّي أن أتحدّث مثل أورورا، أن أمتصّها داخلي، أن أفهمها وأستوعبها إلى أن أستطيع أن أحاكي الفكرة البعيدة في ذهني عنها. شكّل لي انتحال شخصية أورورا بيرالتا تحدّيًا مصيريًا كأنّه مبارزة. يجب أن أتوقّف عن الوجود، وأن أمنح نفسي لقصّة امرأة أُخرى، يجب أن أقولبها في الأيّام اللاحقة بصوتي، ذكرياتي، الطريقة التي أتصرّف بها إزاء الأشياء ومظهري.

ما الذي سيحدث في اللقاء الأوّل؟ كيف سأمضي الأيّام الأولى في اتّباع التعليمات الأساسية هنا، مثل الحمّام، كيفية عمل غلّاية القهوة والتلفاز؟ ما هو الفحم الذي يجب أن أستخدمه لإشعال النّار بعد عقد الهدنة من باب الأدب والمجاملة عند التّرحيب بشخصٍ غريب؟ من الممكن أن أتأسّف على موت أم ليست أمّي، ولكن كيف لي أن أتحدّث عن مرضها وموتها؟ عاجلًا أم آجلًا سيتم الحديث عن هذا الشّأن، ما هو الوجه الذي يجب أن أرتديه عندما يتم الحديث عن المنزل؛ وهو الشّأن الّذي تحدّثت عنه كلٌّ من جوليا بيرالتا وباكيتا مرارًا في الرّسائل الّتي تبادلتاها خلال السّنوات القليلة الفائتة؟ قبل أن أسافر بيومين قرأت خطابًا موجّهًا من هيئة الضّمان الاجتماعي الإسبانية إلى جوليا بيرالتا. كان تاريخ الإرسال حديث العهد وقد طلبت الهيئة ما يثبت بقاءها على قيد الحياة من أجل إتمام إجراءات تحويل الرّاتب التقاعدي للأرملة.

هناك ستّ رسائل مؤرشفة من الهيئة بخصوص الشّأن ذاته، بمعدّل رسالة واحدة كل سنة منذ أن توفيّت جوليا بيرالتا. توجد مع كل رسالة من هذه الرسائل وثيقة مصدّقة عن الشّهادة التي أدلت بها أورورا بيرالتا أمام القنصلية الإسبانية في المدينة أن أمّها ما تزال على قيد الحياة، ولكن مشكلاتها الصّحية تحول دون حضورها شخصيًا إلى القنصلية. في الجزء الطّبي من الشهادة، هناك توقيع من قبل نفس الطّبيب المسؤول، فقد أورد نفس الفحوصات الطّبية التي أجراها على جوليا بيرالتا. لم يكن لدى أورورا بيرالتا الوقت الكافي للرد على

الرسالة الأخيرة، وبالرّغم من أنّني حرصت على الحصول على هذه الوثيقة مقابل مبلغ سخيف من المال، إلّا أنّني لم أتجرّأ على إرسالها.

"أمّي دائمًا تقول إن وزني يزداد"، كتبت أورورا هذا في بداية دفتر الملاحظات الذي وجدته في الدّرج بجوار سريرها. كان الدّفتر في مكان مخفي، كما لو أنّها كانت تخشى أن يقرأه أحد آخر غيرها. كان دفتر ملاحظات أزرق ذا ورق مُصفرّ كأنّ أحدهم تبوّل عليه. كان هذا الدّفتر يعجّ بالملاحظات المكتوبة التي يمكن فهم دوافع كتابتها من خلال محاكمة عقلية بسيطة: خربشات مراهقة مستاءة للغاية فيما تقترب من سنّ الشّباب، وانتهى بها الحال بالاستسلام للواقع الذي يفرضه النّضج والبلوغ. كانت تكتب بمعدّل سطر واحد في اليوم، لو عاشت أورورا بيرالتا حتّى سنّ الثّمانين فسوف تبقى هناك صفحات فارغة في ذاك الدّفتر.

"أنا حزينة اليوم"، "لم أتناول طعام العشاء بالأمس"، "لا أريد الذهاب إلى المطعم"، "ستلومني أمّي بقسوة"، "ذهبت اليوم للعب البينجو"، "لا أريد أن أتحدّث مع أحد"، "أكره كثيرًا أن تلومني أمّي"، "تريد أمّي أن تذهب من دوني لأنّنا تشاجرنا". وفضلًا عن الحديث عن مشاعرها، عرضت أورورا بيرالتا قائمة الموجودات في مطعم والدتها بسعر أقلّ من السّعر المحلّي. ألمحت أورورا بيرالتا في مرّاتٍ قليلة لأشياء تتجاوز عالمها الخاص المتمحور حول صحّتها واستيائها من أمّها ومن المطعم، وذلك في كلّ مرّة تتجادلان حوله بشكل أكثر إلحاحًا.

"لا أحبّ ذاك المكان"، "أنا أشعر بالضجر، لا أريد أن أكون هناك". رسمت التعليقات في السّنوات الأخيرة صورة مُبهمة أكثر بشأن ما كانت تريده أورورا بيرالتا وما لا تريده. إنّ الشّيء الوحيد الذي وضّحته أنّها لا تحبّ المطعم ناهيك عن العمل مع أمّها. "وجب عليّ اليوم أن أقلي ثمانين فطيرة باللحم"، "ستذهب أمّي إلى المقرّ الرئيسي للحزب من أجل أن نطبخ، لا أريد الذهاب، أنا لست خادمة".

إنّ الشرح المكتوب في سطرين أو ثلاثة أسطر يزخر بالسخرية من الطّريقة الثانوية التي اتّبعتها أمّها لتكسب عيشها. كان سأمها أكثر بكثير من رفض العمل المُنجز. أسبغت أورورا على مرض أمّها - الذي وصفته فقط بالسرطان - صفاتٍ نعزوها للأشخاص، كأنّه شخص ذو استقلالية وكيان خاص، كأنّه أحد أفراد العائلة الذي عاش وتحرّك في الشّقة معها ونسبت إليه حالات مزاجية خاصّة. تمّت كتابة كلّ شيء بشكلٍ غير مستقر، وفي الغالب بصورة استعراضية، كما لو أنّها صبي يلعبُ بعبوتين من الصّودا ويصدرُ أصواتًا من هذه الأشياء الجماد. "كان السّرطان سيّئًا مع أمّي اليوم، لقد بقيت مُمَدّدة في الفراش طوال اليوم. كان عليّ أن أفتح المطعم وأُغلقه اليوم"، "تصرّف السرطان على نحوٍ حسنٍ اليوم، اليوم نهضت أمّي من الفراش"، "غضب السّرطان اليوم، لم نستطع أن نفتح المطعم، أمضينا اليوم في العيادة، أنا آسفة يا أمّي، ولكنّها أرادت أن تُصاب بالمرض، لأنها أمضت اليوم بطوله أمام الفرن. إنّ الشّيء الجيد اليوم أنّها لم تُشغّل المقلاة".

وجدت أشياء قليلة في غرفة أورورا بيرالتا. لا يبدو أنّها كانت تقرأ كثيرًا، هناك كتب قليلة في رفّ الكتب، روايتان أو ثلاث لإيزابيل أليندي ونسخة من الرواية الكلاسيكية المحلّية السّيدة باربرا. كما يبدو أنّها لم تكن تستمع للموسيقا كثيرًا، لكنها أحبّت الصحافة الإخبارية. لديها مجموعة من قصاصات الصّحف. هناك وصفة للكريم كراميل وحلوى الأرز أو حلوى البروفيتيروليس إضافة إلى الأحداث اليومية للمسلسلات الطويلة التي كانت تُعرض على التلفاز. بإمكانك أن تبني التسلسل التاريخي الدرامي لأحداث عقد بأكمله بوساطة المجموعة التي احتفظت بها. لا بُدّ أنّ أورورا عانت مع نتيجة كلّ موسم، لأنّها سطّرت بالقلم أسفل تعليقات المحرّرين على النهايات التي بدا أنّها تتماثل جميعًا بالنسبة إليها، ولكن هناك شيء واحد استثنائي فيما يخصّ سجلّات القصاصات تلك: عندما وصلت لسجل القصاصات الثالث رأيت شيئًا جعلني أُصاب الذهول. احتفظت أورورا بيرالتا بصورة الجندي الميّت على الرّصيف، نفس الصّورة التي اكتشفتها في يوم عيد ميلادي العاشر واحتفظت بها لوقتٍ طويل.

فتحت صورة الغلاف لكي أرى الصّورة المعروضة للفتى ذي الحاجبين الغارقين بالدّماء. من خلال تصميم الصّفحات المطوية للجريدة، فهمت سبب احتفاظ أورورا بيرالتا بالصّورة: تعود هذه الصّورة لصفحة الغلاف التي تضمّنت الصفحتين الأولى والأخيرة، وقد تم استخدامها لوضع تقييمات برامج التلفاز على الطّرف المقابل

من الصحيفة، حيث تم توثيق الانفجار الاجتماعي الأوّل في البلاد التي كبرت كلتانا فيها على الجهة الأخرى من ورقة الصحيفة. هناك أيضًا نعي الممثّلة دوريس ويلز. كانت ويلز المشعوذة في أحلامنا، الشريرة الأنيقة التي تستطيع أن تجعل أيّ أحدٍ يركع بحاجبيها الكثيفين وشعرها الذهبي. أنا احتفظت بنعوة موت البلاد، وهي احتفظت بها مع نعوة ممثلة مسلسلات طويلة. كانت كلتاهما قصّة خيالية. شعرت بالذهول، وأنّ جسدي ثقيل للغاية، وأنّني غير قادرة على جرّ الحقيبة إلى بوّابة المطار.

عندما رفعت نظري، رأيت مجموعات من الأشخاص يكررون نفس الحركات، ويبدو عليهم الارتياح فقط عندما يظهر أفراد آخرون. عائلات متوتّرة تغيّرت معالم وجوههم فجأة: يبتسمون أمام مسافر قد يكون الشّخص المُنتظر هذه المرّة، وهناك عائلة زالت الابتسامة عن وجوهها فجأة بفعل خيبة الأمل، وهناك أشخاص منتشرون حول المكان، إنّهم نفس الرجال مع الأجهزة اللوحية الإلكترونية، ونساء يضعن الكثير من مساحيق التجميل، ولكن هناك آخرون أيضًا، هناك من استقبل مجموعة من اليابانيين. كان كلّ شيء متشابهًا ومختلفًا، مثل المصباح الذي يُنير وينطفئ، وأنا هناك، جالسة على نفس المقعد، من دون أن أحرّك أيّة عضلة وأتساءل ما الذي يجب أن أفعله مع هذه الصّدمة الكبيرة الآن، كما لو أنّها كانت قنبلة. لم يكن من الكافي أن تسري دماء أورورا بيرالتا في عروقي لكي أُشغّل هذا المحرّك الذي يعطيني هذه الدّماء وأُنعش ذاتي. كانت أورورا بيرالتا

امرأة بائسة ولم تدفعني لأكون مثلها. أجل لقد قطعتُ شوطًا طويلًا، لن أفشل في هذا.

مشيت إلى مكان توقّف سيّارات التاكسي، قلت للسائق: "إلى شارع لندن رقم ثمانية من فضلك". وأغلقت الباب. سارت السّيارة الصّالون بسرعة في الطّريق إم – 30 في حين أعلن رجل كان يتحدّث على المذياع "السّاعة الآن التاسعة، والثّامنة بتوقيت جزر الكناري".

مررنا بطريق سريع ضخم ذي أبنية لامعة من كِلا الجانبين. بدت السّماء صافية للغاية. استرجعت في ذاكرتي السّيرة الذاتية لعائلتي الجديدة: تعمل ماريا خوسيه مُمرّضة في مركز صحّي تابع للبلدية. انتقلت هي وابنها بعد طلاقها إلى شقّة استأجرتها على بعد مسافة قليلة من منزل فرانشيسكا. إنّ الواجهة الخارجية الخامسة جميلة للغاية، "سوف تعجبك كثيرًا"، هذا ما قالته لي في البريد الإلكتروني الأخير الذي وصلني منها. تعيش أمّها، فرانشيسكا، في منزل العائلة القديم بين شارعي كاردينال بيلوغا وخوليو كامبا، في مكان قريب للغاية من ساحة سبانيش أميركا، وهو المكان الذي عرفت أنّني سأحبّه، بسبب شجرات الزّيتون الثلاث المزروعة في الدّوار التي لا تغيّر مظهرها أبدًا، وهذا الشّيء الوحيد الذي لا يتغير في دورة الفصول الأربعة التي تمرّ على المكان.

تعيش فرانشيسكا وحيدة، ولكن هناك امرأة بوليفية تعتني بها. من الواضح، كما فهمت، أنّ فرانشيسكا كانت على عجلة من أمرها لكي تراني، كتبت لي ماريا خوسيه "سترينها"، وأجبتها "أجل سأراها"،

أجبتها بهدوء وأنا مأخوذة بجمال الأبنية، كان كلّ بناء أجمل وأطول. اتّخذ السّائق الجّهة اليمينيّة عند السيلز بريدج ومرّ خلف حلبة مصارعة الثّيران، وهو المكان الذي تُقتل فيه الثيران والرّجال على حدٍّ سواء: وهذه نفس الطّقوس الدّينية التي تحتفل مدينتي بها على طريقة المسلسلات التلفزيونية الطّويلة، أن تدفع لقاء مكان لكي تشاهد أحدًا ما يموت، يا له من أمر بالنّسبة إليّ! هذا مجّاني في المكان الذي أتيت منه. بدا لي البناء رقم ثمانية في شارع لندن جميلًا، كان باب البناء مفتوحًا وهناك رجل ذو بشرة مُسمرّة ومشقّقة يكنّس الدّرج، بدا في حالة باهرة من النظافة. ارتدى الرّجل بذلةً ذات لون أزرق نيلي وابتسم لي ابتسامة جذّابة للغاية، ترك الرّجل مكنسته وساعدني في حمل الحقيبة.

- "أنا ذاهبة إلى الطّابق الخامس".
- "تسكن هناك ماريا خوسيه، لقد أخبرتني أنّها تنتظر أحدًا ما، هل ترغبين في أن أرافقك؟".
- "لا شكرًا".

عندما أُغلق باب المصعد، نظرت إلى المرآة، بدت هيئتي بائسة، كنت مرهقة، ومُسنّة، ومستاءة ما بين المرأة التي كنتها والمرأة التي تنظر إليّ في المرآة الآن بعد أن قطعت طريقًا طويلًا للغاية، مع نسخة مزوّرة من الوثائق الأصلية. بدا أنّني فقدت الكثير من الوزن، وأرتدي ملابس قديمة الموضة، كما لو أنّني قادمة من بلاد أُخرى ذات طقس مختلف. هكذا يجب أن تبدو هيئة جوليا بيرالتا عندما تصل إلى

مـدينتها. ولكنّني كنت على قيد الحياة، بعكسها هي. حيّة، هذه المعجزة التي ما زلت عاجزة عن فهمها إضافة إلى الإحساس العميق بالذّنب. إنّ الرّعب هو جزءٌ من النجاة يلازم أولئك الذين يستطيعون الهروب. إنّها مثل الحشرات الطّفيلية التي تسعى لهزيمتنا عندما تجد أنّنا بصحّة جيّدة، لكي تُخبرنا أنّ هناك أحدًا ما يستحقّ أن يكون على قيد الحياة أكثر منّا. توقّفت عند باب خشبي مُعرّف بالحرف D. وقفت باستقامة وقرعت الجرس. سمعت خطواتٍ قادمة وصوت قفلٍ يُفتَح.

- "هل أنتِ؟".
- "أجل، إنّها أنا: أورورا".

كانت السّاعة العاشرة والنّصف صباحًا، التّاسعة والنّصف بتوقيت جزر الكناري.

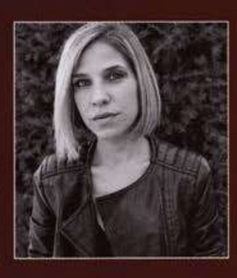
سيكون هناك ظلامٌ دائم في كاراكاس.

هذه قصّة خيالية، بعض أحداث الرواية وشخصياتها مستوحاة من أحداث حقيقيّة، ولكنّها غير مأخوذة عن بيانات واقعية. إنّها جزء من الحقيقة مع رسالة أدبيّة، وليست بهدف تقديم شهادة واقعية.



بعد صراع طويل مع المرض تسلَم أدلايدا فالكون الروح، تاركة ابنة وحيدة في مدينة تطغى عليها الفوضى والعنف. بعد عودتها من مراسم دفن أمها، تكتشف أن بيتها قد تم احتلاله من قبل مجموعة من النسوة تحت إمرة القائدة. تقرع باب جارتها دون جدوى، لتكتشف أن جارتها «الإبنة الإسبانية» قد ماتت وإلى جانبها رسالة تفيد بمنحها الجنسية الإسبانية، فتقرر دون تردد أن تتخلص من الجثة وأن تنتحل شخصية جارتها للهروب من الجحيم الذي تعيشه.

تتفوَق «الإبنة الإسبانية» بقوةٍ بصورة ڤنزويلا، وتفاصيل الإقتلاع، إنها قصة امرأة تهرب من جميع الصور النمطية لتواجه مواقف صارمة.



ولدت كارينا ساينز بورجو وترعرعت في كاراكاس. بدأت حياتها المهنية في ڤنزويلا كصحافية لـ El Nacional. منذ الهجرة إلى إسبانيا قبل عشر سنوات، كتبت لـ Vozpópuli وتتعاون مع المجلة الأدبية Zenda. وهي مؤلفة كتابين روائيين، Tráfico y Guaire (2008) و Caracas Hip-Hop (2008).





